يوسف زيدان

# الورّاق

## أمالي العلاء

رواية

دار الشروق

ضياء
t.me/twinkling4

الوراق

# أمالي العلاء

يوسف زيدان

الطبعـة الأولى ٢٠٢٣

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

تصميم الغلاف: هاني صالح

رقـم الإيداع ٢٠٢٣/٠٩٨٥٣

ISBN 978-977-09-3843-0

© دار الشروق

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمَ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

t.me/twinkling4

.. أَقْصِرْ، فَمُذْ مَاتَ العَلَا، مَاتَ العُلَا

# اليومُ الفارقُ

بلا تلكؤٍ لا يُجدي، وبعيدًا عن لكاعة الابتداء بمعتاد «البسملة» ثم قَدِّ «الحمدلة» ثم تطريز «الصلعمة» على عباد الله المحظوظين الذين اصطفى، واستهدافًا للمفيد من دون مطٍّ ولا تطويل. أقولُ أنا الورَّاقُ هينُ الشأن، الوحيدُ الأَبترُ الآيلُ عما قريب إلى مآل الزوال المحتوم، المهادنُ المسايرُ المسمِّي نفسه للآخرين «سفير»:

من غير تدبيرٍ أو قصد بدأ يومي الفارقُ بين نصفي حياتي، ساعة شروق شمس يوم «الجمعة» الموافق للعشرين من شهر شوال، سنة سبعٍ وثمانين وستمائة للهجرة. ساعتها، وجريًا على المعهود والمتكرِّر من سوابق أيامي، توهمتُ أن نهاري المقبل متمهلًا سيكون كسائر الأيام مُملًّا، عديم المذاق، بطيء الوطء. لكنه لم يكن كما توهمتُ، وإنما أتى بمسارٍ مغايرٍ لعمري البالغ وقتذاك أربعين عامًا، معظمها ذهب هدرًا كأنه هباءٌ هَامَ حينًا في خواء الهواء، ثم راح مع الرياح.

كنتُ قد قضيتُ الثلث الأخير من ليلتي السابقة، حالكة الاسوداد لاحتجاب البدر والنجوم خلف غيومٍ معتمة، مسهَّدًا ومنزويًا بزاوية الدَّكَّة التي بزاوية سطح منزلي الصغير البائس، المستأجر، أحدِّقُ في فراغي واللاشيء المُحدق بي، متشاغلًا بذلك عن الأرق الطاحن لروحي، ومقاومًا لما يعتمل بنفسي من هواجس ومُقلقاتٍ. منها

انعدام معنى الوجود، وفداحة إدراكي لعبث المسعى، وهزلية الموت المحتوم. وسُخف الحياة، المحتفُّ بها الفناءُ بفنونه.

لو رآني أحدٌ لحظتها، ولو رآني الآن أحدٌ، أعني أثناء كتابتي هذه السطور. فربما استراح من الحيرة وسطّح ما يراه، باعتقاده أنني مجنون، ولسوف أوافقه على ما اعتقده، لأستريح منه. ومني. مع أني في قرارة نفسي لا أصدِّق صفة الجنون، ولا أظن أن الجن من الأصل موجود. ولكن لا يجوز أن نبوح بكل ما قرَّ في نفوسنا، ولا يصح التصريح التام، لأن عاقبته خطيرة الأثر. دعونا من ذلك، ولنعُد إلى ما نحن بصدده من القصّ وحكاية ما جرى في تلك الليلة، ففي القصِّ اقتصاصٌ من ظلم الحياة لنا. ولعبها بنا. وفي الحكي ارتياح.

كنتُ قد بقيتُ مترقبًا قدوم نور النهار وتراجُع العتمة عند صعود الشمس من وراء البيوت العالية المحيطة بمنزلي، لكي أستكمل نسخ الصفحات الأخيرة من كتاب «الزمردة» لأبي الحسن أحمد «ابن الراوندي» المُلَقَّب بالمُلحد. هو كتابٌ محظورٌ، نادرُ التداول، لأنه في نقض النبوات وبيان زيفها. غير أن «صفيَّ الدين النصراني» الشاعر، أسرَّ إليَّ بأنه يريد منه نسخةً مجلدة، وجلب لي نسخة الأصل في سِفرٍ قديم متهرئ، قال إنه كان مدسوسًا عند أحد معارفه، ولم يُحسن حفظه، فلحقت بحوافه الرطوبة. وعدني بخمسة دنانير أجرةً للنَّسْخ بقلمٍ منمقٍ،

وتسفير النسخة بغلافٍ من الجلد المدبوغ. ونقدني مقدمًا ثلاثة دنانير. فلم أجد بُدًّا من الموافقة لفرط احتياجي وقتها إلى المال، وبدأت عمل الكتاب في التوِّ، مقلِّدًا خطَّه النسخيَّ العتيق.

عندما علت الشمسُ الباكرة الحانية وانحسر الديجورُ بالنور، ختمتُ تطوافي غير المفيد في الهواجس والذكريات المستبدَّة بدماغي، وأزحتُ عني ما استدفأتُ به ليلًا من خِرقٍ خَلقةٍ. وقمتُ إلى طاولة الكتابة ببطء الناقهين، آملًا في الانتهاء من نسخ الكتاب قبل الظهيرة، وتجليده قبل أوان العصر، فأخلص من خطر وجود أصل الكتاب ونسخته بين يديَّ.. لو وشى بي واشٍ أو دلَّ عليَّ أحدُ العَسَس، فسوف يُلقى بي في السجن سنوات وربما أبقى فيه حتى الممات، لعِظَم الجُرم وانعدام الشفيع. ويُعاد معي ما جرى مع الوراق «مرزوق بن ياسر» الذي ضُبط في دكانه نسختان من رسالة أبي بكر الرازي «في القول بقِدَم العالم» ونسخةٌ من كتاب محمد الكُلَيني «الكافي في فقه الشيعة الإمامية» فأُهين الرجل، وحكم القاضي بجلده وتجريسه وسجنه. وبعدها انقطع خبره، وخرَّب العامةُ والدهماء دكانه ومنزله.

قمتُ، فكانت لَسْعاتُ النّسمات المبكرة منعشةً لجانبَي وجهي، ومرعشةً لجانبي صدري. صَفْو البكور معينٌ على صفاء الذهن وجريان القلم. بعد ساعتين أو ثلاث انتهيتُ من النسخ، وختمتُ الورقة الأخيرة بما هو مكتوبٌ في

طُرَّة الأصل بحروفه. فمن أفعال النَّزق الطائش أن أذكر اسمي كناسخ، أو أشير إلى مكان وتاريخ النسخ، حسبما جرت العادة مع المعتاد من الكتب.

فاحتْ عبر الهواء رائحة خبز جاءت من فرنٍ على سطح بيتٍ قريب، لا، أظنها رائحة فطيرٍ مرقَّقٍ مطيَّبٍ بالزبد. جُعت، فقضمتُ من المخلاة المعلقة على حبل الغسيل، خشيةً من الفئران، أطراف رغيفٍ طري، وتمطيتُ مرتاحًا أو شِبْه مرتاح، ثم جمعت الأوراق وراجعتُ ترتيبها بدقة، وهممتُ بالنزول بها إلى الحجرة التحتانية لإتمام تسفيرها لتكون في غلافٍ من الرقِّ المقوَّى. لكنني ما كدت أصل بما أحمله إلى الدَّرَج، حتى أزعجني بل أفجعني زعيقُ منادٍ عليَّ من قلب الزقاق، كنعيقٍ لا يهدأ: يا سفير، يا سفير، يا سفير..

عدتُ مسرعًا إلى سور السطح، ونظرتُ من عَلٍ مرتجفًا فوجدته رجلًا نحيلًا يقف في الزقاق قُبالة باب منزلي، وإلى جواره أتان عليها بَرْدعة، والناس من حوله كالحلقة ينظرون.. لمَّا لم أجد فيه شيئًا، يدلُّ على أنه من العَسَس أو الشُّرَط أو ذوي الشأن، تشجعتُ وسألته متبرِّمًا من فوق السطح عمَّن هو، وعما يريد؟ ردَّ عليَّ بأنه يعمل في دار الحكيم «سديد الدين» وقد أرسله لاستدعائي، وأردف: هو ينتظرك في داره، وهذه الحمارة لركوبك.

خرجتُ من غمرة اضطرابي واستغرابي، بسؤاله من فوق حصني غير الحصين: تقصد، الحكيم سديد الدين الدمياطي؟

فأجاب بالإيجاب ودعاني للإسراع.. استمهلته لحظاتٍ ونزلتُ شاردَ اللبِّ إلى حجرتي التحتانية، وبسرعة نزعتُ عني في زاويتها جلبابي القصير، ومسحت إبطيَّ وما بين ساقيَّ بخرقةٍ مبللةٍ، لأستفيق، ثم ارتديتُ على عجلٍ أفضل ثيابي. أعني جلبابي الصوفيَّ الأسود. وخرجتُ من باب المنزل وأنا أعصبُ بالعمامة رأسي وأشدُّ قماشها، كأنني أُمسك بها ما يعربد بدماغي من محيرات: ما الداعي لاستدعائي المستعجل في هذا الوقت المبكر؟.. السديدُ الدمياطي رجلٌ موقَّرٌ، مرموقُ المكانة، ومن صفوة الأطباء بالبلاد.. لكن الأطباء، وليس نُسَّاخ الكتب، هم الذين يستدعيهم محتاجوهم الكبراء في غرائب الأوقات. فما سرُّ احتياجه هذا، المُلِحّ، الداعي لاستدعائي الآن؟ ولماذا يرسل ركوبةً؟ ما حاجتي للركوب والمسافة ليست بعيدةً من منزلي المنزوي خارج السور عند بابَي زويلة، وداره المعروفة ذات الطوابق الثلاثة، المشرفة على ناصية العرصة التي تبدأ عندها حارة اليهود. المسافة لا تزيد عن سويعة سيرٍ على الأقدام، بخطى وئيدة.. ما هذا الصباح الغريب؟

اعتليتُ البردعة مزهوًّا بحالي أمام جيراني، وهرول الخادم من خلفي وإلى جواري، فخرجنا من زحام الضحى بحارة زويلة، إلى زحام الحارات والميادين القاهرية الغاصَّة دومًا بأهلها. أهل القاهرة يسمون الأحياء والنواحي الآهلة «حارات» والعَرَصات ميادين. وفي طريقي إلى دار «السديد» تقافزت في ذاكرتي المرات القليلة التي

قابلتُ فيها هذا الحكيم ذائع الصيت، المعروف بفضله وسعة معارفه ومعالجاته الناجعة للحُكام والخُدَّام، وعموم المرضى، ومشهورٌ عنه أنه إذا مرض السلطان فاستدعوا إليه رئيس الأطباء وصفوة النَّطَاسيين، تقدَّمهم جميعًا «السديدُ الدمياطي» وقام بجسِّ نبض السلطان ووصف له العلاج. وعندما شَرَط السلطانُ المنصور «قلاوون» أن يتولَّى الأطباء المسلمون، لا غيرهم من أهل الديانات، علاج المرضى بالبيمارستان الكبير الذي بناه. بدأ استثناءُ هذا الشرط بالسديد الدمياطي، ثم تلاه عددٌ من مشاهير الأطباء اليهود، أعني النابغين من بني «كُوجك» و«بني الصُّغيّر». الطريف هنا أن أولئك وهؤلاء أبناء أسرةٍ واحدةٍ تشتغل بالطب والمداواة، نزحت إلى مصر من بلاد التُّرك، فأسلم نصفهم وصاروا يسمون «بنو الصُّغيّر» وبقِي نصفهم الآخر على اليهودية وأبقوا على لقبهم القديم «بنو كُوجك». وكوجك هذه، كلمةٌ تركية تعني مصغر الصغير، أي الصُّغيّر. ومن هنا كان السديد الدمياطي يعرف أيضًا بابن كوجك اليهودي، غير أن اشتهار فضله بين الناس جعل معظم القاهريين يخجلون من مناداته بذلك، ومن الإشارة إليه باليهودي.. كان «فلتة الورَّاق» رحمه الله، أو عاقبه، يقول كلما وَرَدَ ذكر هذا الحكيم أو أُشير إليه: واللهِ لا يصح أن يكون رجلًا حكيمًا مثل السديد، يهوديًّا، ولو الديانة بالمكانة لكان هذا الحكيم من أجلاء المسلمين.. سمعتُ ذلك غير مرَّةٍ من «فلتة» وكان في كل مرة يُنهي عبارته الزاعقة هذه، بضحكته الطريفة التي تجعله يبدو كطفلٍ

بدينٍ مُدلَّل.

التقيتُ بالسديد قبل عامين أو ثلاثة، حين اختارني مع جماعة من النُّسَّاخ المشهود لهم بجودة الخط ودقة النقل. عشرةٌ منهم كانوا يعملون في وكالة «سراج الدين الوراق» ذات الدكاكين الكثيرة، وناسخٌ آخر يعمل مثلي من منزله اسمه «جمال الدين الوطواط» وهو رجلٌ هادئ الطباع، لم أكن أعرفه قبلها. وقد وجدته نابهًا ومهتمًّا بالتصنيف في الأدب وفي التاريخ، ولطيفَ الصحبة، فصارت بيننا مودةٌ لم أوصلها إلى درجة الصداقة، لانشغالي أيامها بأمورٍ أهم وأكثر همًّا.. أيامها طلب «السديدُ» منا أن نتفرغ تمامًا لعمل نسخةٍ من مؤلفات أستاذه ومعلمه، العلامة المعروف «علاء الدين عليّ» رئيس أطباء مصر والشام، أطال الله بقاءه. فقد أراد العلامة «علاء الدين» الذي يسميه بعض الناس «ابن النفيس» إهداء مؤلفاته كلها لمكتبة المارستان المنصوري، أعني دار الاستشفاء الكبيرة التي بناها المنصور قلاوون بقلب القاهرة القديمة، قرب حارة برجوان وحمَّام الساباط.. فكان من الواجب أن تُعمل من هذه المؤلفات نسخٌ أخرى لتكون عند الوراقين، اتقاءً لفقدانها التام إن تلفت أصولها أو لحق ببعضها البِلَى.

وأيام إتمام تلك المَهمة المُهمة، رأيتُ من «السديد» ما يدل على وفرة توقيره وعظيم محبته لأستاذه العلاء، ليس فقط من حيث عنايته بأن تتم أعمال النَّسْخ التي أرادها الأستاذ، على أفضل صورة، ولكن أيضًا حيث طريقته في

الكلام عن أستاذه، وحكايته لوقائع صحبته له. فهو لم يكن يذكره إلا بصفة «سيدي الفاضل الرئيس علاء الدين» أو بقوله: أستاذنا العلاء.. ولم يكن في ذلك ما يثير الدهشة، فالمعروف عن العلامة «علاء الدين» أنه من صفوة حكماء هذا الزمان، ومن نبلاء أعلام العلماء. وكنتُ قد سمعتُ من «فلتة الورّاق» ومن غيره، أن هذا العلامة الفاضل الذي يلقّبه بعض الناس بالنفيس، وبعضهم الآخر يسميه توقيرًا «الحكيم ابن النفيس» هو أعلم أهل الأرض بالطب، ولم يأتِ من بعد ابن سينا مثله، وهو في العلاج أعظم من ابن سينا. ويقولون إنه هو الذي جَسَّر الناس على كتاب «القانون في الطب» لابن سينا، بعدما كاد ينطمر مع مرور الزمان، وذلك بشروحاته الكثيرة على هذا الكتاب. ومشهورٌ عنه علاوةً على ما سبق، فضائل كثيرة في الرفق بالفقراء، والزهد في المتاع الدنيوي والتوغُّل في دروب العلوم والمعارف.

ما كنتُ وقتها قد التقيتُ بالعلامة العلاء، رأيته فقط من بعيد بطريق الصدفة، مرات. المرة الأولى حين لمحته وهو يخرج سامقًا بالطيلسان والعمامة من باب الجامع العتيق، بعد الصلاة الجامعة، وكنت أيامها ما زلتُ أصلِّي ظُهر الجمعة في الجوامع. يومها، كان الملأ يتحلَّقون حوله ويتسابقون إلى مصافحته.. والمرة الثانية كانت قبل زواجي بأيام، إذ نصحني كثيرون بأن أذهب قبل العرس إلى الحمَّام الكبير الذي عند باب الزهومة، وهو الحمَّام الفاخر

المعروف بحَمَّام الساباط. أي المدخل المسقوف بين دارين. وذلك للتمريخ وحَلْق العانة والتطيُّب بالزيوت العطرية، بأجرةٍ عاليةٍ، لأن العاملين في هذا الحَمَّام مَهَرَةٌ في مهنتهم. ذهبتُ إلى هناك بعد العصر وجلستُ قرب «الأبزن» منزويًا وإلى جواري بعض سُراة الناس، وقبالتي إيوانٌ فيه جماعة تدل هيئتهم على أنهم من كبار الأعمار والمقامات الرفيعة. كانوا يتضاحكون فيما بينهم ويتشاكون لبعضهم البعض بلا حرج، من ضعفهم في المجامعة، ويتسامرون بذِكْر المفردات والمركبات المعينة على الباه. وبينما هم على ذلك، دخل عليهم «العلاء» بخُطى هادئةٍ وإزار محتشمٍ ملفوفٍ بعناية حول قامته الطويلة، وفور رؤيتهم له وإلقائه السلام عليهم قال أحدهم: ها قد جاء الفرج، فرئيس الأطباء يعرف أسرار مُقوِّيات الباه.. وقال آخر، ممازحًا: يا شيخ علاء الدين، عناءُ العجز يعذبنا، فأدركنا بفضلك وأخبرنا بسرِّ النجاح كي نرتاح. وهو يجلس بالناحية اليمنى من الإيوان، قال لهم العلامة «العلاء» بوجهٍ مبتسم: اليأسُ إحدى الراحتين.. يقصد قول البحتري في قصيدته الدالية: اليأسُ إحدى الراحتين ولن ترى، تعبًا كظنِّ الخائب المكدود.

تعالت ضحكاتهم واتسعت ابتسامة «العلاء» ولما وجدتني أجلس بمواجهته، خجلتُ، والخجل يعصم صاحبه من معظم الزلل. وقمتُ من موضعي إلى ناحيةٍ بعيدة بالحَمَّام، وتواريتُ هناك، مع أنني كنتُ أتمنى التقرب منه والتحدث معه،

لسؤاله عن بعض ما أورده في مؤلفاته التي قمت بنسخها بعد أن استقر مقامي بالقاهرة. كان «العلاء» آنذاك قد تخطَّى الستين من عمره، وكان يقال إنه يعمل في قصر السلطان الظاهر «بيبرس» كطبيبٍ خاصٍّ له، وقد ولَّاه السلطانُ الرئاسة على أطباء مصر والشام، وكثرت تصانيفه ومؤلفاته فذاعت شهرتُه في الآفاق.

وكانت المرة الثالثة الأخيرة، التي رأيت فيها بالصدفة العلَّامة العلاء، حين ذهبت إلى المارستان الناصري لعيادة صديق عمري، الناسخ «يحيى بن خلف» الذي تهيَّج عليه وجعُ القولنج فذهب إلى المارستان والألمُ يعتصر أحشاءه، فاحتجره الأطباء هناك للعلاج والتدبير بالأغذية اللطيفة سهلة الهضم، وأعطوه أقراصًا لتسكين المغص. وأثناء زيارتي له ومعي اثنان من أولاده، تناول «يحيى بن خلف» قرصًا من دوائه وكاد يبلعه بعصير الأترجّ المحلَّى بالعسل، لولا أن دخل علينا العلامة العلاء ومن خلفه الأطباء، فاستوقف «يحيى بن خلف» قائلًا له: لا ينبغي أن تُزلق الدواء بما يغيِّر كيفيته، من حلوٍ أو حامضٍ أو غير ذلك.. سأله: فبأي شيء يا سيدي، فحَلْقي جاف؟.. فأجابه العلامة العلاء وهو يبتسم: بالماء يا ولدي، فقط الماء، دعني أجسُّ نبضك وأرى ما خلف جفنيك.

بعدما فحصه العلامة «العلاء» وأنا واقفٌ بجوار السرير، دعا له بالشفاء، وأخذني من ذراعي برفقٍ حتى ابتعدنا قليلًا وسألني إن كان المريض أخي، فقلت إنه عندي

أكثر من أخٍ. فهزَّ رأسه بأسًى وقال لي: الأعمارُ بيد الله، لكنني أرى أنه لن يعيش طويلًا، فاستوصِ خيرًا بأولاده.

ثم مرت السنون. وكان من عجائب المقدور أنني لم أقابل العلامة «العلاء» مجدَّدًا، أيام كنا ننسخ كتبه في داره الرحيبة، القريبة من حارة «برجوان» ولا يفصلها عن المارستان المنصوري إلا زقاقٌ ضيق. قيل لنا أيامها إن العلامة «العلاء» في رحلةٍ خارج القاهرة، فلم نلتقِ ولا سنحت لي الفرصة لرؤية داره من داخلها، لأننا لم نكن ندخل الدار من بوابتها الكبيرة، ولا من الشارع الكبير المفتوحة عليه. فقد كانوا يُدخلوننا من باب جانبيٍّ يفتح على أحد الأزقة الثلاثة المحتفَّة بالدار، فنجلس للنسخ في حجرةٍ مستطيلةٍ واسعة، جيدة التهوية مشرقة بضوء النهار من نوافذ كبيرة. وكان هناك خادمٌ مكلَّف بالمكوث معنا طيلة الوقت، لتلبية ما نحتاجه من لوازم الكتابة، ولتقديم الأطعمة وأنواع الحلوى. وهو رجلٌ أسمرُ اللون لطيفُ الهيئة، والاسم «سعيد بن عيد».. كانت أوقاتًا طيبة، أتممنا فيها ما طُلب منا، وأجزل لنا «السديد الدمياطي» الأجرة فور الانتهاء، وكان يمرُّ علينا أثناء عملنا ويلقي التحية، وأحيانًا يجالسنا ويراجع ما عملناه. وفي آخر أيامنا هناك، أفاض أثناء تناوله الغداء معنا واسترسل في الكلام عن فضائل أستاذه العلاء، مع أن «السديد» معروف بقلَّة كلامه وميله إلى الصمت الطويل.

حكى لنا في ذاك اليوم وقائع طريفة جرت معِ أستاذه «العلاء» وكان من أطرفها ما قصَّه علينا متفاخرًا، وعيناه تلمعان. قال ذات ليلةٍ، اجتمع أستاذنا الفاضل الحكيم «علاء الدين» بمضيفة هذه الدار، مع القاضي جمال الدين بن واصل الحموي، صاحب كتّاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» وغيره من المؤلفات، وكنتُ في تلك الليلة معهما. فلما فرغا من صلاة العشاء الآخرة، شرعا في البحث وانتقلا من علمٍ إلى علم، والشيخ علاء الدين في كل ذلك يبحث برياضةٍ وبلا انزعاجٍ، وأما القاضي «جمال الدين» فإنه ينزعج ويعلو صوته وتحمر عيناه وتنتفخ عروق رقبته، ولم يزالا كذلك إلى أن أسفر الصبحُ، فلما انفصل الحال قال القاضي جمال الدين: يا شيخ علاء الدين، قد وجب الاعتراف بأن ما عندنا هو مسائل ونُكت وقواعد معرفة، أما أنت فعندك خزائن علوم.

وأخبرنا السديدُ الدمياطي، بأنه كان يومًا مع أستاذه في الحمَّام القريب من دار العلاء، يقصد حمَّام الساباط الذي رأيته فيه سابقًا. قال: كان أستاذي «العلاء» أثناء جلوسه بالمئزر، مستغرق الفكر تمامًا، وشاردًا بعقله عمن حوله. ثم قام فجأةً وخرج إلى مسلخ الحمَّام حيث يترك الناس ملابسهم، واستدعى من المارستان بدواةٍ وقلمٍ وورق، وأخذ من فوره في تأليف رسالته المبهرة للأذهان «مقالة في النبض» وكان يكتب من خاطره، ومن دون مراجعة، وظل يكتب ووجهه مولى نحو الحائط، حتى أنهى المقالة

ثم عاد ودخل الحمام وأكمل تغسيله. يومها، ترك معي المقالة لأقرأها استجابةً لطلبي، فأذهلني نصوعُ فكرتها وقوةُ مفرداتها وفرادتها في العلم. وفي طريق عودتنا إلى داره من الحمَّام، امتدحت المقالة وقلت إنها ستبقى مفيدةً للأطباء والمتعلمين لألف سنةٍ قادمة. فابتسم برفقٍ وقال ممازحًا وملاطفًا: يا سديد، لو لم أعلم أن تصانيفي ستبقى بعدي عشرة آلاف سنة، ما كتبتها.

* * *

في أيسر وقتٍ أوصلتني الأتانُ والخادمُ المهرول إلى جوارها، إلى بوابة دار السديد الدمياطي، وحين وجدتُ هناك هواء النهار قد اعتدل إلى أفضل أحواله أيام الشتاء، شعرتُ بارتياحٍ سَرَى في صدري، فاستبشرتُ خيرًا وغمرتني الطمأنينة.. بقيتُ راكبًا أمام بوابة الدار، ودلف منها الخادم ليُخبر بوصولي، فما هي إلا هنيهةٌ حتى خرج «السديد» بقامته الفارهة وطيلسانه الفاخر.

نزلت عن ظهر الأتان بسرعة وسلَّمت عليه، فابتسم بهدوء وهو يقول تلافيًا لفقدان الوقت: مرحبًا بك يا سفير، قد شغلتني الشواغلُ فلم أخبرك سابقًا بأن أستاذنا الفاضل «علاء الدين» كان قد أعجبه دقة قلمك وجودة نَسْخك لمصنفاته، كما أعجبه أنك تجيد قراءة خطه. وقد أخبرته بأن بقية النُّسَّاخ كانوا يلجئون إليك، حين يعجزون عن قراءة خط أستاذنا، فزاده ذلك إعجابًا بك. وصباح أمس تذكَّرك، وذكر لي أنه يريدك في أمر.

ـ أنا بخدمتك، وخدمة الرئيس علاء الدين. فماذا يريد؟

ـ هو لم يخبرني وأنا لم أسأله تأدُّبًا، وسوف نذهب إلى داره الآن، ونعرف. هيا، اركبْ.

ـ المكان قريب لا يحتاج ركوبًا.

ـ اركبْ يا سفير.

اعتلى السديد بغلةً مرتفعةَ الظهر عالية البردعة، وعدتُ إلى ظهر الأتان، وسرنا متجاورين. الناسُ يفسحون لنا

الطريق، وكثيرٌ منهم يسلّمون على «السديد» أو يحيّونه بالابتسام، فيرد عليهم بوقاره المعتاد. أشعرني قربي منه بالزهو. ونحن نجوز من الصاغة والجمالية، التفت نحوي وقال إنه عثر عليَّ بعد جهد، فقد أخبروا الخادم الذي أرسله لاستدعائي، بأنني تركت داري القريبة من جامع ابن طولون وسكنتُ بباب اللوق، خارج السور، فذهب الخادم إلى هناك مساء أمس، لكنه لم يجدني. فظل يستخبر، حتى عرف بسكناي الحالية بحارة زويلة. قلت متجاوبًا معه ومُجيبًا عليه: للأسف، تنقَّلتُ بين المنازل عدة مرات في السنوات السابقة، ولم تناسبني الإقامة عند باب اللوق بسبب صخب التتر الساكنين هناك، وكثرة صياحهم في الليل والنهار، فكانوا يشوِّشون عليَّ، فلا أستطيع نسخ الكتب وتسفيرها بالدقة المرجوَّة. وهذا باب رزقي الوحيد، فانتقلتُ من جوارهم.

- عجيب، ألا يزالون يسكنون هناك. كنتُ أظن أنهم ترحَّلوا عن أرض اللوق، وسكنوا بعدة أماكن.

- ترحَّل منهم كثيرون، ولكن بقي كثيرون.

..قبل خمسة عشر عامًا، تقاطر جند التتر إلى قلب القاهرة بالمئات، ومعهم عائلاتهم، وسكنوا أرض اللوق التي كانت سابقًا مخاضة. وقد تزايد عددهم تباعًا، مع ردم وتجفيف اللوق، حتى بلغ هناك عدة ألوف، وكان الملك الظاهر «بيبرس» يهتم بهم ويزورهم بانتظام، ترضيةً لحاكمهم «بركة خان» المتحالف معه، ولأن بيبرس في

الأصل منهم، فعمر موضعهم. ولما تكاثروا وطاب لهم المقام بالقاهرة، أعطى «بيبرس» للبعض منهم وظائف عسكرية عالية ومناصب ديوانية، خصوصًا لمن أسلموا منهم أو كانوا في الأصل من أمراء العسكر. ثم ترحَّل عن أرض اللوق كبراؤهم وأولو المناصب منهم، وسكنوا النواحي المتفرقة، وبقي مستقرًا هناك عددٌ كبيرٌ منهم، بزوجاتهم وأسرهم. وجرى بينهم وبين مماليك مصر تزاوج، لميل الجنسية إلى الجنسية، فالتترُ والمماليكُ كلاهما من التُّرك. كما جرى التزاوج بين التتر وعموم الناس من أهل مصر، ولهذا تزايد عددهم مؤخرًا. وخلال السنوات الأخيرة، جرى مزيدٌ من التزاوج بين فقرائهم والحرافيش الذين استعان بهم «بيبرس» في حروبه لحسُنت أحوالُهم، فأنجبوا أطفالًا يشبهون في صخبهم مردة الجن والعفاريت.. أعادني «السديدُ» إلى الحديث معه، عندما استفقتُ من جولان أفكاري على قوله: لا بأس، يحتاج الناس وقتًا حتى يترقّوا ويصلحوا لسُكنى المدن، وإذا استمر مقام هؤلاء بالقاهرة فسيكون في بعض أهل مصر مستقبلًا، ملامحُ تترية. ها قد وصلنا.

مررنا من أمام بوابة المارستان المجاورة لبوابة دار العلامة العلاء، وقد اقتربت شمسُ النهار من ميقات الصلاة الجامعة، وازداد ازدحام الناس في الطرقات. ومن عند البوابة الكبيرة التي يجتمع أمامها المرضى والعُوَّاد، ملنا يمينًا ونحن راكبين، فتخافت الضجيجُ رويدًا، ثم انعدم عندما

عرجنا يسارًا، ونزلنا أمام بوابة دار العلامة العلاء. ويا لها من دار.

عندما ترددتُ سابقًا على هذه الدار مع بقية النُّساخ، لم تسنح لي الفرصة لإدراك رحابتها وحُسن مبانيها. لأن المضيفة التي كنا نعمرها، لها بابٌ جانبيٌّ ونوافذها مفتوحةٌ على الزقاق، ولا مطلَّ لها على بقية أنحاء الدار وإيوانها الخارجي.. دخلتُ خلف «السديد» فوجدتُ أرضية الدار مكسوةً كلها بالرخام، حتى إيوانها والرحبة والفناء الخلفي، وهذا عجيبٌ ومسرفٌ في الفخامة. وقد أخبرني العلامة العلاء بعد يومين، بأنه قصد ذلك وأنفق عليه المال الوفير، لأنه سوف يهب هذه الدار عقب وفاته للمارستان المنصوري لتوسعته، وأنسب الأرضيات للمارستانات هي المرخَّمة.

* * *

عندما دخلنا من البوابة المفتوح مصراعها الأيمن على جهة الشرق، رأيتُ بحذاء سور الدار أشجارَ الثمار والورود، وقد تُرك لجذورها شريطٌ من الطين بعرض ذراعٍ، يدور من الداخل مع السور. لا بد أنهم يعتنون جيدًا بهذه الزروع اليانعة، التي ذكَّرتني بجودة النبات وخصب التربة في «قليوب» حيث عشت زمن صباي البريء من هموم الأيام الحاضرة.

الهواء في الدار رطبٌ يطيبُ له القلب، ومُطيَّب بالعبق

الفوَّاح من مبخرةٍ كبيرة بصحن الدار. أظنُّ أن بيوت الجنَّة تشبه هذا المكان. ولج بي «السديد» إلى مقصورةٍ على يمين الداخل من البوابة، سقفها الخشبي معلَّقٌ على أعمدةٍ خشبية رشيقة، فرأيتُ «العلاء» وقد زادته السنونُ مهابةً، يتصدر ببهائه الهادئ المجلس، ويجلس عن يساره ويمينه رجلان من نوابغ الأطباء، كنتُ قد سمعت عنهما وأعرف أنهما من مشاهير تلاميذ العلاء، هما الرئيس الحالي لأطباء المارستان المنصوري «بدر الدين حسن» والطبيب النابغة المعروف «أبو الفرج بن صُغيِّر».

متكئًا على قائم كرسيه قام العلامة العلاء لاستقبالنا، فهمَّ السديدُ الدمياطي إليه وانحنى على يده فقبَّلها، وسلَّمتُ عليه يدًا بيدٍ من دون انحناء ولا تقبيل، فلم يكترث ولم تتغير ابتسامته الهادئة وهو يقول بوقارٍ: مرحبًا، مرحبًا.

هو شيخٌ طويل القامة، نحيل البدن، واسع العينين، أسيل الخدين، دقيق الأصابع. يرتدي ثوبًا من الكتّان الفاخر، وعلى رأسه عمامةٌ خفيفة. بعدما رحَّب بنا، دعانا للجلوس، واتسعت ابتسامته وهو يقول لي ملاطفًا: أنت سفير، الخبيرُ بقراءة خطي؟

- خادمك يا سيدي.

- كلنا يا ولدي خُدَّام العلم، ولكن ما هذا الاسم الغريب.. سفير؟

قطع كلامه دخول رجلٍ فاخر الملابس عظيم العمامة،

يرفل في الطيلسان الموشى بأطرافٍ مُفضَّضة الخيوط. في يده مسبحةٌ، وفي وجهه إشراق. أخبرني عنه «العلاء» كأنني شخصٌ ذو شأنٍ، بقوله: هذا أخونا «إسحاق» ابن عم «أبي الفرج ابن القف الكَرَكي» الطبيب النابه، رحمه الله، وهو مثله طبيبٌ نابه.. فردَّ عليه «إسحاق» من فوره، وهو يضحك: بل تلميذك وخادمك يا كبير العلماء، ولو كنتُ نابهًا، ما كنت لأشكو من أوجاع «ديابيطس» الذي يدفعني كل حينٍ للإسراع إلى الخلاء.

ردَّ عليه بدر الدين حسن، الرئيس، قائلًا بهدوء: بل تشكو يا إسحاق، من شغفك بالفطائر والحلوى وخبز الحواري المطيَّب بالسُّكَّر.. قطع «إسحاقُ بن القف» كلام «البدر حسن» ببيتٍ شعري أنشده، فظهرت على وجه أستاذهم «العلاء» بعضُ علامات الانزعاج والضيق. قال:

فلم يشف ما ناله بالشفاء

ولم ينجُ من موته بالنجاة

كنتُ أسمع سابقًا بالطبيب أمين الدولة أبي الفرج يعقوب، المعروف بلقب «ابن القف» وقبل سنواتٍ نسختُ من مؤلفاته كتابين مهمَّينِ، هما: الشافي، وجامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض. وأعرف أنه رحمه الله برحمة النصارى، تتلمذ على يد العلامة العلاء. لكنني لم أسمع بابن عمه هذا، الذي عرفتُ لاحقًا أنه تتلمذ أيضًا على يد «العلاء» وعاش حينًا بمصر، ثم صار يزورها

بانتظام.. ولم أدرك سبب انزعاج «العلاء» من البيت الشعري الذي أنشده هذا الرجل الضحوك، حتى أوضح لي السديد الدمياطي الأمر عندما سألته عنه بعد يومين، فأجابني بإيجازٍ أنه أحد بيتين من الشعر في هجاء «ابن سينا» قالهما شاعرٌ ركيك، والعلامةُ علاء الدين لا يحب أن يهجو أحدٌ أمامه، شخصًا عبقريًّا مثل الشيخ الرئيس ابن سينا. قلتُ له:

ـ ولكن العلامة العلاء، عارض رأي ابن سينا الوارد في رسالته القصصية «حي بن يقظان» وخالف تمامًا، في رسالةٍ نسختُ منها بيدي عدة نسخ، وكان عنوانها: فاضل بن ناطق.

ـ صحيح، اختلف معه في الفلسفة الأولى والحكمة الإلهية. أما في الطب فالأمر بخلاف ذلك، بل على العكس منه تمامًا.

لم تدم علاماتُ الضيق على وجه «العلاء» بعد سماعه البيت الشعري القادح في ابن سينا، وسرعان ما عاد وجهه إلى إشراقه ونظر مجددًا نحوي وهو يسألني إن كنت مشغولًا هذه الأيام، أم يمكنه تكليفي ببعض الأعمال؟ فأجبتُ من فوري: لن يشغلني أيُّ شاغلٍ عما ستطلبه مني يا سيدي.

دخل خادمان يحمل أحدهما إبريقين فيهما عصيرُ حَبِّ الرمان، وماءُ الليمون الممزوج بالعسل، ويحمل الآخر

أكوابًا. صَبًّا لكل جالسٍ ما اختاره، فانشغل المجلس بذلك برهةً كنتُ خلالها أتطلّع خلسة إلى وجوه الجالسين، فأجد في مجلسهم صفوًا ومهابةً لا تكون إلا في المجالس السلطانية. أنا لم أحضر مجلسًا سلطانيًّا قط، لكنني نسختُ كتبًا فيها وصف جلوس السلاطين مع نجباء العلماء، فتخيَّلتُ بهاءها. حسدتُ نفسي على وجودي في حضرةٍ كهذه. كلهم مؤلفون ممن ينسخ أمثالي كتبهم، بل هم أهم مؤلِّفي الدنيا في الطب، وفي غيره من العلوم. أعمارهم تتفاوت ما بين الخمسين سنة والستين، وأسنُّهم أستاذهم «العلاء» الذي يبدو أنه بلغ من العمر الثمانين، ومع ذلك لم يضف إليه المشيبُ إلا رواء مَنْ يشيبُ.. أين قرأتُ هذه العبارة؟.. وأنا أسترقُ النظر إلى بهاء هيئتهم، خطرت لي فكرة عنهم، وسهوًا مني ابتسمتُ. لمح العلامة العلاء شبح ابتسامتي الخاطفة، وسألني بلطفٍ عن سرها، فقلتُ متلعثمًا إنها خاطرة عابرة و أتحرَّج من التصريح بها..

ـ لا حرج يا سفير، ولا تثريب عليك. قل يا ولدي ما جال في رأسك، واصدقني القول.

ـ في الحقيقة، أقصد لو سمحت يا سيدي. والعفو منك، ومن صحبتك الأجلاء الأفاضل. لقد شرَّفني المولى بالجلوس معكم، ولوهلة مرَّتْ ببالي هذه الخاطرة العابرة: هؤلاء الأجلاء تتلمذوا كلهم على يديك، مع أن بينهم اختلافًا كبيرًا.

ـ أيُّ اختلاف تقصد يا سفير؟

متحرجًا، بل ومرتبكًا من فرط الخجل، قلت بأخفض نبرةٍ وأخجل صوتٍ ما دعا العلاء لمزيدٍ من التبسُّم: يا سيدي، هذه النخبة من الحكماء النجباء، جمعهم العلمُ حولكَ من كلِ بلدٍ ومن كل ملة، فالرئيس «بدر الدين» مصريٌّ ومسلمٌ وأجداده مسلمون. والحكيم النابه أمين الدولة يعقوب بن القف، وابن عمه الفاضل هذا، كلاهما مسيحيٌ، ومن بادية الشام. والفاضل الأجلّ «سديد الدين» يهوديٌ وأصله تركيٌّ. والنابغة المشهور «أبو الفرج بن صغيّر» تركيُّ الأصل، ومسلمُ الديانة..

ضحكوا جميعًا، عدا السديد، وعقَّب العلامة العلاء على كلامي بقوله: نعم، قد أكرمني بهم المولى عز وجل، ويعلم الله أنني ما انتبهت يومًا إلى غير نباهتهم وحرصهم على الاشتغال بالعلم، ولم يشغلني قط هذا التفاوت في أصولهم أو ديانتهم. لكنك على كل حالٍ لمَّاح، ومهذَّب العبارة.

ـ أدام الله فضلك ورفعتك يا سيدي.

فور قولي ذلك، شاكرًا، وصلنا من وراء أسوار الدار صوتُ الأذان الأول لصلاة ظهر الجمعة. وعندئذٍ نهض البدرُ حسن الرئيس واستأذن متعجلًا، لاضطراره إلى المرور على المارستان قبل الإسراع إلى الصلاة الجامعة. قام معه الباقون لشئونهم، وتقدَّمهم العلامة العلاء بخطى بطيئة، وعند مدخل المقصورة قال لي بصوتٍ خفيض ونبرةٍ مستسلمة، إن قواه لم تعد تعينه على تأدية الصلوات خارج

الدار، وسوف ينتظرني هنا بعد أدائي الصلاة. تنهَّد ثم أضاف: نتغدّى معًا، ثم أخبرك بما أريده منك، والله يوفقنا لما فيه الخير.

ذهب عنا «العلاء» إلى داخل داره، يتبعه الخادمان، وخرجتُ مع النخبة الخارجين. عند البوابة ركبوا مطيَّهم، وهمس لي «السديد» بأن أحتفظ بالركوبة، لحين انتهائي من المهمة التي سوف يكلِّفني بها أستاذه. قال: مهما استغرق ذلك من أيام، أو أسابيع.

شكرته وأكَّدت له أنني سأعيدها إلى داره في المساء، لأن الطريق من هنا إلى منزلي لا يستغرق سوى دقائق قليلة، ثم زدتُ وأنا أبتسم: ولا مكان عندي لمبيت الدواب.. هزَّ عمامته وهو يمضي راضيًا وخرجتُ على ظهر الأتان إلى الشارع الرئيس بالقاهرة القديمة، وأنا أهامس نفسي بسؤالها عما سأفعل تلك السويعة، حتى تنتهي صلاة الجمعة.

منذ طلَّقتُ «شهد» وفقدت داري وأدركتُ عبث المسعى، ومخادعة المأمول الدنيوي والأخروي، لم أعد أؤدي الفروض. أين أذهب الآن لتمضية الوقت، دون لفت الأنظار لعقوقي. أين؟..طفرت فجأةً برأسي فكرةً وفدت إليَّ من وادي عبقر، فأسرعتُ بالأتان حتى وصلت إلى آخر الشارع، وعبرت من كُبرى بوابتَي زويلة، ثم ملتُ يسارًا نحو منزلي التعيس. أدخلتُ الأتان إلى الردهة الفاصلة بين حجرتَي المنزل، وأسرعتُ إلى الأوراق

المفككة والمكبس وخيط التسفير، وانتهيتُ بسرعة من تجليد كتّاب «الزمردة» ثم وضعته بحرصٍ وعناية في مخلاة، وعدتُ للركوب وقد انقضى وقت الصلاة في معظم المساجد والجوامع. نخستُ البغلة طيلة طريقي إلى بيت «صفيِّ الدين النصراني» بحارة العطارين، حيث تحتشد الروائح النفّاذة وتصطخب في الأنوف. فأعطيته متعجلًا كتابه المُقلق وأوصيته بألا يفتحه قبل مرور يوم، حتى يجف لزاق الغلاف. فرح به، ونقدني الدينارين ففرحتُ بهما وبانتهاء القلق المؤرِّق، وأسرعتُ مرتاحًا صوب دار العلاء.

عند البوابة أخبرني الخادم «سعيد بن عيد» بأن سيده ينتظرني في المقصورة ذاتها. دخلتُ، فوجدته جالسًا على الكرسيِّ ذاته وأمامه طاولة، أمامها كرسيٌّ لجلوسي. لم ألمح في وجهه أي ضيقٍ بسبب تأخري ولم يسألني أين صلّيتُ، فاسترحتُ، وقبل أن نتكلم في شيء، جاء خدمٌ بطعام الغداء. وضعوا أمامه طبقًا فيه شريحتان نحيلتان من لحم الماعز المسلوق في سويق، وإلى جواره ملعقة خشبية منقوش قائمها ومحلًّى بقطع من العاج والصدف. ووضعوا أمامي طبق ثريدٍ فوقه لحم ضأنٍ، مضجَّنًا، يفتن الجوعان ويحيِّر شهية الشبعان. وازدحمت فوق الخوان أطباقٌ أخرى صغار، فيها وريقات المقدونس والجرجير، ومشهيات الطعام، وقطعٌ من خبز الدقيق الحواري ودقيق الخشكار. قلتُ مجاملًا إن هذا الطعام الشهي، مطبوخٌ لا

محالة بالدار. أقصد أنه أنخر مما يأتي به الناس من المطاعم العمومية. فابتسم «العلاء» على هونٍ وهو يشير إليَّ بالبدء في تناول الطعام، ومشيرًا إلى اختلاف ما في الطبقين الكبيرين لاطفني بقوله: لكلٍّ منا ما يناسبه من المأكول.

بعد أن تناول متباطئًا بعض عيدان الخضراوات، أمسك العلاءُ بالملعقة ليحسو بها من سويقه، فاهتزت بها أصابعه المرتعشة. أعاد الملعقة لموضعها دون أن يُبدي أيَّ انفعالٍ، فعرضتُ عليه بأدبٍ أن أناوله الطعام بالملعقة، فأنف من ذلك ورفضه بلطف. وحين رآني مُحرجًا، ابتسم وهو يقول إن بإمكاني وضع شريحة لحم في هذا الخبز الطري، ففعلت، فأخذها مني وراح يقضم منها برفقٍ بعد أن قال: لا بأس، سوف تذهب الرعشةُ عن يدي بعد قليل، أو تهدأ.

قلتُ في سرِّي: لو بقي أبي حيًّا لكان الآن في مثل عمره، ولربما ناولته طعامه بيدي. لو بقيٍ. ولكن، لا أحد يختار أباه. ولا أب يختار ذريته. القَدَرُ يختار للجميع بغير نظامٍ، وبلا اكتراثٍ، فبعضهم يهنأ بالمقدور وبعضهم الآخر يتحسَّر بسببه ولا يجد العزاء.

بدأتُ في تناول ما أمامي، وحين لاحظت أن العلاء يبطئ في مضغ طعامه، حدستُ أنه يتمَّهل متعمدًا ليتيح لي الوقت لأشبع. فأسرعت، وعندما انتهيتُ أشار العلاء لخادميه الجالسين على عتبة المقصورة، فرفعا الأطباق عن الطاولة. وبعد برهةٍ جاء أحدهما بمطويةٍ من الجلد بداخلها

أوراق، فوضع العلاءُ يمناه عليها وقبل أن يفتحها سألني: كيف كنت يا سفير تقرأ خطِّي أثناء عملك مع الوراقين في نسخ مصنفاتي، وهو صعبُ القراءة؟

أجبته متمهلًا بأنني منذ صباي شغوفٌ بقراءة الخطوط مهما كانت صعبة الرسم أو رديئة الخط، وخطك يا سيدي ليس رديئًا، لكنك تكتب بسرعة وتميل بالحروف من أسفل إلى جهة اليسار، والحبر الذي كنت تكتب به مفرط السيولة، والأقلام غير مدبَّبةٍ، فكانت قطرات دقيقة تتناثر على الورق وتبدو كأنها نقط الحروف، وهي ليس كذلك، فيلتبس الكلام على مَنْ يقرأ خطك أو ينسخ منه.

- تقديرك صحيح. فقد كنت إذا جلستُ للتأليف، توضع لي الأقلام مبريةً، وأكتبُ بسرعة. فإذا كَلَّ القلم أو حفي تركته وتناولتُ غيره، حتى لا يضيع مني الوقت في بري القلم.

- من وفرة علمك يا سيدي، يفيض ويتدفق.

مال العلاءُ بعينيه إلى جهة اليمين، وبدا لي أن خاطراً ورد عليه أو أنه يتذكر شيئًا، ثم عاد بنظره إليَّ وقال: حين رأيتُ ما قمتَ بنَسْخه، لاحظتُ أنك ختمت كل النُّسَخ بالعبارة نفسها «كتبه أحقر الورى سفير في خفه».

متحمسًا من دون سبب، إلا اضطرابي، قطعتُ كلام العلاء وبادرت إلى مجاوبته قبل أن يُكمل كلامه، بقولي: هذا يا سيدي حساب الجُمل، حيث يساوي مجموع حروف

كلمة «خفه» رقم أربعة وسبعين وستمائة وهي سنة النسخ، مثلما تعادل حروف كلمة «خزف» رقم سبعة وثمانين وستمائة، يعني عامنا هذا.

- أعرف ذلك يا ولدي، أعرف. وسؤالي لو كنت صبرت، هو: هل اسم «سفير» هو أيضًا استتارٌ بحساب الجُمل؟

- إنه.. هو يا سيدي.. عفوك، هل يمكن أن تُعفيني بفضلك من الإجابة على ذلك.. هل يمكن؟

- يمكن طبعًا، لا عليك. ولكن لي استفهامٌ أخير، فقد لاحظت عند نظري في النسخ التي كتبتها، أنك إلى جانب جودة خطك ودقة نقّلك، كنت تضبط المفردات الطبية والمصطلحات ضبطًا تامًّا بالنقط والحركات، فكيف استطعت ذلك؟ هل درست الطب؟

- لا يا سيدي، ولكن تلميذك الحكيم الجرائحي «ابن البرهان» كان يمرُّ علينا كل يومين، فكنت أسأله عن طريقة نطق الألفاظ الاصطلاحية، وأرسمها بالحركات كما نطقها لي حتى لا تلتبس مستقبلًا على الطلاب والمتعلمين.

- جميل. ولكن من الغريب أن يجتمع ابن البرهان في موضع واحد مع السديد الدمياطي؟ فهما غير متوافقينِ، ودومًا متنافران.

- لم يجتمعا يا سيدي في وقت واحد، فقد كان الحكيم «ابن البرهان» يأتي مبكرًا، فيقضي ساعةً أو ساعتين يطمئن

فيها على عملنا، ويرحل. والعلامة «السديد» كان يأتي إلينا ظهرًا أو عصرًا.. فعلا، هما لم يجتمعا قط، وأنا لم أنتبه إلى ذلك وقتها.

«أرجو من الله أن يُصلح ما بينهما».. قال العلاء ذلك، ثم فتح جلد المطوية متمهلًا، ووضع أصابعه الطوال على الأوراق والكراسات المفككة، وبهدوءٍ قال وعلى وجهه طيفُ ابتسامةٍ واهنة: هذا آخر ما كتبته بيدي، ولهذا فهو الأردأ خطًّا، فهل بإمكانك قراءته تمهيدًا لنسخه؟

قرَّبتُ إلى الطاولة الكرسي الذي أجلس عليه، وقرَّبت مني الأوراق برفقٍ، ورحتُ أتأمل فيها برهةً قبل القراءة.. مكتوبٌ بخط سميك القلم على وجه الورقة الأولى تحت البسملة: «قال الفقير إلى الله تعالى، علي بن أبي الحرم القرشي المتطبب، هذا كتاب شرح معاني القانون».

وما تحت ذلك من سطور، عَسِرُ القراءة إلى حدّ ما. ونهايات الأحرف ملتفة من أسفل، ومتلاحقة، وكثيرٌ من قطرات الحبر متناثرة بين السطور.. رحتُ أحدِّق في هيئة الحروف والكلمات كثيرة التكرار، لأضبط بها في ذهني طريقة رسم للكلمات. فاستطعتُ، بعد برهةٍ، ظل العلاءُ خلالها يتأملني صامتًا، قراءة خطه المائلة حروفه من أسفل إلى جهة اليسار، وملتحمة بما بعدها من الكلمات.. وبعد لحظات وبصوتٍ واضحٍ، قرأتُ عليه من كتابه: «بعد حمد رب العالمين، والصلاة على عباده الصالحين من ملائكته المقربين وأنبيائه أجمعين، فإن قصدنا في هذا الكتاب الذي

نرجو أن يُمهلنا الأجلُ إلى ختمه..».

مسَّتْ قلبي العبارةُ الأخيرة مسًّا مؤلمًا، فتوقفتُ عن القراءة لحظةً بلعتُ فيها ريقي ونظرت لمحًا إلى العلاء، ثم استكملتُ القراءة وهو منصتٌ ومُسبلُ جفنيه. كان المكتوب بعد ما سبق: «ويصحبنا التوفيقُ في تأليفه ونظمه، أن نشرحٍ معاني كتاب القانون للشيخ الرئيس أبي عليّ بن سينا، قدَّس الله روحه. شرحًا يجمع إلى الإيجاز، الإيضاح، وإلى الاختصار الاتضاح. مُستقصين جميع مباحثه، وحالّين ما انعقد على غيرنا من غَوَامضه ومُشْكله، غير مُطوِّلين بمباحث عن صناعتنا هذه، ولا مكترثين بالتفاريع البعيدة وإن كانت طبيَّة. وأن نوضِّح كل مطلب ونبيِّن كل مذهب، إلا الشارد، ونرتِّب حُجج المُباحثين، ونتكلَّم عليها بحسب النظر المحقَّق، ثم ننصر الحق ونُعلي مناره، ونخذل الباطل ونعفي آثاره. إلا ما الإعلانُ فيه بالحقِّ، يحتاج إلى مباحث نراها غير لائقة بهذا الكتاب، فإنَّا حينئذٍ نعتمد فيها على كُتبنا المبسَّطة. وربما أوجب استقصاؤنا النظر، عدولًا عن المشهور والمتعارف. فمن قَرَعَ سمعه خلافُ ما عهده، فلا يبادرنا بالإنكار، فذلك طيشٌ. فرُبَّ شَنِع حقٌّ، ومألوفٍ محمودٍ كاذبٌ. والحقُّ حقٌّ في نفسه، لا لقول الناس له، ولنذكر قولهم: إذا تساوت الأذهانُ والهممُ، فمتأخر كل صناعةٍ خيرٌ من متقدِّمها. وقد رتَّبناه على ترتيب كتاب القانون، إلا في فنيّ».

انتهت الصفحة، فتوقفتُ عن القراءة وتطلّعتُ نحو العلاء فرأيت على وجهه علامات الرضا والارتياح، وأومأ موافقًا ثم قال: جميل، يمكنك إذن أن تنسخ من هذا الكتّاب نسختين، لنودع إحداهما إن شاء الله في مكتبة البيمارستان، والأخرى عند الوراقين. كم من الوقت ستحتاج؟

ـ الكتّاب يا سيدي ليس كبيرًا، ولن تستغرق النسخة الواحدة أكثر من بضعة أيامٍ للنسخ، ويومًا للمراجعة، وآخر للتسفير وعمل الغلاف.

ـ جميل. هذا هو العمل الأول المهم، الذي أريده منك. والعمل الآخر الأهم، هو أنني..

قطع حديث العلاء دخول واحدٍ من أطباء المارستان المنصوري، حسبما يدل على ذلك ملبسه وعمامته والطيلسان. ودخل خلفه خادمٌ يحمل مجلدًا كبيرًا، تدل هيئته على أنه من الكتب العتيقة. ألقى الطبيبُ السلام من عند عتبة المقصورة، ثم أسرع بخطاه نحو العلاء فصافحه وقبّل يمينه، ثم صافحني وجلس عند طرف الطاولة. قال العلاءُ ليعرِّفني إليه، ويعرِّفه بي: هذا أخي الحكيم أبو الفرج السكندري، نائب رئيس الأطباء. وهذا سفير الورّاق، أستعينُ به في بعض الأعمال.

شعر الضيفُ الوافدُ أنه جاء في توقيتٍ غير مناسب، وقطع موصولًا، فأشار إلى الخادم الذي كان خلفه ليضع

الكتّاب القديم بين يدي العلاء، ومتعجلًا قال: هذا يا أستاذنا الجليل كتابُ «السرخسي» الذي كنا نبحث عنه، وهي نسخةٌ نفيسةٌ منقولة من خط المؤلف.

- بارك الله فيك يا سكندري، أسعدتني، فقد كدتُ أيأس من العثور عليه. كيف وجدته؟

- جلبه لك يا سيدي من العراق، ابن الوحيد الكاتب. لكنه يطلب فيه سبعين دينارًا، فهل أواكسه؟

- لا، لا بأس. سأرسلها الليلة إليه كاملة.

- الأمر لك يا أستاذنا، والآن اسمح لي بالانصراف فعندي عملٌ كثير بالبيمارستان.

- في أمان الله يا أبا الفرج، ولك الشكر.

قام أبو الفرج السكندري مفارقًا، وأقبل العلاء على الكتّاب مبتهجًا به، وبحرصٍ وتؤدة راح يقلب أوراقه، فتلمع عيناه كمن عثر على كنز. وكنتُ خلال ذلك أفكر في الرجل الذي أتى بالكتّاب من العراق، أعني «شرف الدين محمد بن شريف» المعروف بابن الوحيد الكاتب، الخطاط. فقد عرفته عن قرب لأنه كان صديقًا لربِّ عملي، وصهري، السابق «فلّتة بن زكريا الورّاق» وكان يجالسه كثيرًا. وكلاهما كان ميالًا إلى المرح والمفاكهة، وإلى الدعابات الكُفرية والزندقة. ولكن إلحاد «ابن الوحيد» أفحش وأجرأ، بينما كان «فلتة» أحرص حالًا في البوح الإلحادي، وأخفى، إلا حين يسكر في أواخر

الأمسيات فيهرف، ويمزح، ويصرِّح أمامي بما كان يقشعر جلدي لسماعه. ولم يكن «ابن الوحيد» يحب الخمر كصاحبه «فلتة» ويفضِّل عليها الحشيشة، وله أشعارٌ مشهورة عند معظم الناس، في تفضيل الحشيشة الخضراء على الخمر الحمراء. وقد أخبرني «فلتة» ذات مرة بأن صاحبه «ابن الوحيد» تقاضى مرةً من أحد الأمراء ألف دينار، مقابل نسخة نفيسة من المصحف كتبها له بخط بديع، بماء الذهب. وأكَّد لي كثيرون هذا الخبر الذي اشتهر، واشتهر عن «ابن الوحيد» أنه يجيد الكتابة بالأقلام السبعة، ويتقن عدة لغات.. جالسته مراتٍ قليلة عندما كان يأتي لزيارة «فلتة» ويسهران للتسامر على سطح الوكالة، وكان كلاهما مغرمًا بنكات القول ومضحكات الحكايات، ورأيته مرة يثقب قلب تفاحة ويضع فيه الحشيشة، ويتركها قرب جَمْر التدفئة حتى تلين ويذوب فيها ما وضعه بباطنها، ثم يأكل منها وهي دافئة وبعد أن تبرد. ورأيتُ غيره يفعل ذلك، أقصد ممن يتناولون الحشيشة، ومنهم الشيخ الظريف «صفي الدين بن شكر» المعروف بابن الصاحب، تمييزًا له عن صفيِّ الدين بن شكر الوزير، الشهير. وكان أيضًا لا يشرب الخمر مع «فلتة» لأنها حسبما يرى محرَّمة، ومع ذلك يحب الحشيشة! ويستغرب تحريم بعض الفقهاء لها، وينشد في ذلك بيتين من طريف الشعر:

في خمار الحشيش معنى مرامي

يا أهيل العقول والأفهام

حرَّموها من غير عقلٍ ونقلٍ

وحرامٌ تحريمُ غير الحرام

أخرجني من جوَلان أفكاري والذكريات، قول العلامة العلاء لي وهو يقرِّب مني كتّاب «الموسيقى الكبير» للسرخسي: أظنك يا سفير، تستطيع قراءة هذا الخط القديم.

- نعم يا سيدي. وهو ليس قديمًا جدًّا، فهو مكتوب بقلم نسخيٍّ، موافقٍ لخطوط القرن الخامس. وحالُ الورق يدل أيضًا على أن عمر هذا الكتّاب، قرابة مائتي عام.

قَلَّب العلاء المجلدة، ونظر في الورقة الأخير وابتسم مبتهجًا وهو يقول: كلامك صحيح، مذكورٌ هنا أنه كُتب ببغداد سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة، جميل، إذن ستقرؤه لي الأيام القادمة فإن عيني لم تعد قادرة على فك الاشتباك بين الحروف.. قلتُ له ملاطفًا: يسعدني أن أقرأه لك، وألف سلامة لعينيك يا سيدي، مع أنه لا يبدو لمن في حضرتك، أن عينك تعاني من شيء.

- هاه، كُلُّ ما فيَّ يعاني من بلوغي الثمانين، الحمد لله. المهم، ستكون ابتداءً من اليوم ناسخًا في الطب، وقارئًا في الموسيقى.

كأنه أراد بكلامه هذا أن يلاطفني ويخفِّف من وَجَلي منه، فسايرته بسؤاله وأنا أُظهر الاندهاش: وهل تهتم يا سيدي بالموسيقى؟ فأجابني من فوره: طبعًا، هذا اهتمامٌ

قديم عندي، فقد كانت الموسيقى من أسباب نجاتي من الموت، وسوف تعرف بذلك عما قريب. وقد سبق لي التأليف في علم الموسيقى، ومن مصنفاتي المبكرة، عدةُ رسائلَ وكتب موسيقية.

لم أدرك مقصده من إشارته إلى أنني سأعرف سبب شغفه بالموسيقى، عما قريب. ولم أكن أعلم أن له مؤلفات في الموسيقى، لكنني وجدته مرتاحًا للحديث معي، فطاب لي ذلك وأردتُ إطالته. سألته مستفهمًا إن كان من المعتاد أن يهتم كبار الأطباء بالموسيقى؟ وأردفتُ أنني لا أعرف من مشاهير الأطباء، أحدًا ألَّف في الموسيقى.

أعجبه سؤالي فعاد بكتفيه إلى الخلف، وبارتياح تحدَّث بطريقة أستاذٍ يهوى التفهيم، فقال: لابد للطبيب من معرفة صناعة الموسيقى وإيقاعات الألحان، لارتباطها بالنبض الدال على حال البدن، وقد كتب الشيخُ الرئيس ابن سينا في الجزء الأول من «القانون»: وينبغي أن يُعلم أن في النبض طبيعةً موسيقاوية موجودة، فكما أن صناعة الموسيقى تتمُّ بتأليف النغم على نسبةٍ بينها، في الحدَّة والثِّقل، وبأدوار إيقاع بمقدار الأزمنة التي تتخلل فقراتها. كذلك حال النبض، فإن نسبة أزمنتها في السرعة والتواتر، إيقاعية. ونسبة أحوالها في القوة والضعف وفي المقدار، نسبةٌ كالتأليفية. وكما أن أزمنة الإيقاع ومقادير النغم، قد تكون متفقة وقد تكون غير متفقة، كذلك الاختلافات في النبض قد تكون منتظمة، وقد تكون غير منتظمة. هذا

كلامه رحمه الله، وكلام الفاضل جالينوس من قبله. فهل هو مفهومٌ لك؟ فإني أرى عينيك تتسعان دهشةً.

- نعم يا سيدي، الكلام مفهوم. لكنني مندهشٌ من قدرتك على استعادة كلام ابن سينا بنصِه، ما شاء الله عليك يا سيدي.

- سلَّمك الله يا ولدي. وأيضًا، هناك أسبابٌ أخرى تدعو الطبيب لمعرفة صناعة الموسيقى. منها طبيعة تكوين الحنجرة، وطريقة التصويت..

- تصويت!

- نعم. أي إصدار الأصوات عند مرور الهواء من الصدر، إلى الحنجرة والفم، مع عمل اللسان والأسنان.

- فهمتُ يا سيدي، فهمتُ.

اقتربت الشمس من مستقر مغيبها وبدأت برودة الأمسيات، وحين لمحتُ أصابع العلاء تتشبَّث بالمقبض الخشبي لكرسيه، حدستُ من ذلك أنه مجهدٌ ويعاني من الإعياء، ومع ذلك فهو حريصٌ على التفهيم والشرح لشخص مثلي، هين الشأن. فتماوج تجاهه بداخلي إحساسان، قلّما يجتمعان، هما التعظيم والإشفاق. وبقصد إراحته قلتُ له بصوت خفيض وأنا أنظر نحو مجلدة كتاب «الموسيقى الكبير» لابن الطيب السرخسي، الموضوعة بيننا على الطاولة: لكن هذا الكتاب يا سيدي، كبير، وقد يحتاج النظر في محتواه جهدًا كبيرًا منك. ضحك العلاءُ

بوقار، ثم أومأ برأسه مرتين قبل أن يردَّ على كلامي بقصةٍ لم أكن أعرفها. قال إن الفقيه عليّ بن عيسى الوَلْوَالجي، كان جارًا للعلامة أبي الرَّيْحان البِيروني، رحمه الله: هل تعرف «البيروني» يا سفير؟

ـ طبعًا يا سيدي، الجميعُ يعرفونه. فهو المصنِّف الشهير صاحب المؤلفات العظيمة: الآثار الباقية، وكتاب الهند، والجماهر في معرفة الجواهر والتفهيم، وغيرها. لكنني لا أعرف هذا الفقيه «الولوالجي» ولم أسمع به.

ابتسم العلاء بوهنٍ، ومرَّ بأطراف أصابعه اليمنى على جانب وجهه قبل أن يخبرني بأن أبا الحسن «الوَلْوَالجي» كان فقيهًا بارعًا من أهل «بلخ» وكان له في علم الحساب باع. فوضع مسائل على هيئة جداول رياضية، لاستخراج المواريث وتحديد مقدارها بدقة، ومن بينها جدول دقيق لحساب ميراث الجدَّات من جهة الأم. تنهَّد العلاءُ كأنه يتحسَّر على السنين السابقة وأهلها، ثم أضاف: ولما مرض الفاضلُ «البيروني» بعلَّة وفاته، رحمه الله، وكان قد وهن العظمُ منه لبلوغه من العمر الثمانين، مثلي اليوم، ذهب إليه «الولوالجي» يعوده فوجده طريح الفراش من فرط المعاناة لوهن المرض، لكنه حين دخل عليه، تهلَّل البيروني وقال له: يا أبا الحسن، قد غابت عن ذهني تلك المسألة التي قمت بوضعها لحساب ميراث الجدَّات، فأرجوك أن تذكِّرني بها.. ردَّ عليه «الولوالجي» بأن هذه المسألة فيها جداول حسابية وتفاصيل دقيقة، وشرحها يطول. يقصد من دون إفصاح،

أن حال البيروني لا يسمح بالاستماع إلى شرحها، وهو على مشارف الموت. لكن البيروني أصرَّ، وقال له: أن أموت عالمًا بهذه المسألة، خيرٌ لي من أن أموت وأنا جاهلٌ بها.. قال الوَلْوَالجي: فأعدتُ عليه المسألة وهو ينصت بإمعانٍ كأنه نسي أوجاعه، ولما انتهيت من بيانها شكرني فودَّعته وخرجت من داره، فما كدتُ أبتعد خطوات قليلة حتى سمعتُ صراخ أهل الدار، يعلن موت العلامة البيروني.

تهتُ هنيهةً وتفرَّقت أفكاري في تلك الحكاية المليئة بالإشارات، وفَوْر انتباهي تنهَّدتُ قائلًا: رحمه الله.. ثم سكتُّ لحظة قبل أن أستوضح: إذن يا سيدي، تريد مني نَسْخ كتابك «شرح معاني القانون» مرتين، وقراءة كتاب الموسيقى للسرخسي. يشرِّفني ذلك، وسأكون عند حسن ظنك بإذن الله.

- بارك الله فيك، وعندي مطلبٌ آخر مهم.

- في خدمتك يا سيدي.

لم يخبرني العلاء بمطلبه الثالث الموصوف بالمهم، مباشرةً. وإنما مهَّد له بإخباري بأنه عند إعداد خزانة كتبه الخاصة لإهدائها للمارستان، استبقى في داره من العشرة آلاف كتاب التي كانت عنده، قرابة عشرين. كان منها سيرة الإمام أبي حامد الغزالي، المعنونة بالمنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال. ولما أعاد قراءتها للمرة الثانية، بعد أربعين سنة من قراءته الأولى لها، عنَّ له أن يكتب

أيضًا سيرته في كتاب، ربما يكون مفيدًا لمن يأتون من بعده.. رأيته مستريحًا للاسترسال والتوطئة فأردتُ أن أجاريه وأؤنسه، فشاركته فيما يحكي، بقولي إن «المنقذ من الضلال» ليس كتابًا فريدًا في بابه، فقد كتب «الحكيم الترمذي» على المنوال ذاته، رسالةً حكى فيها حياته ورحلته الصوفية، وجعلها بعنوان «بدو الشأن» كما كتب ابن سينا وريقات عن سيرته والمراحل المهمة في حياته، لكنه لم يجعل لها عنوانًا.

ـ صحيح، وقد أكمل «أبو عبيد الجوزجاني» تلميذ الشيخ الرئيس، سيرة أستاذه في وريقات. وقد بدا لي أن أحذو خطو هؤلاء الأجلاء، لكن أصابعي ما عادت تُتقن الإمساك بالقلم.

ـ يُمكن أن تملي عليَّ يا سيدي ما تريد.

ـ هذا هو مطلوبي الثالث، المهم.

أبديتُ للعلامة العلاء موافقتي مقرونةً بابتهاجي بأن أكون في خدمته، فشكرني وعقَّب على كلامي بقوله: على بركة الله، نبدأ عصر غدٍ، فأخونا الفاضل «حسام الدين طرنطاي» سوف يعودني ظهرًا، وهو يأتي عادةً ومعه عديدٌ من الأمراء وعددٌ كبير من الحراس، ولسوف أستبقيهم إلى وقت الغداء، فليكن لقاؤنا غدًا ساعة أذان العصر، إن شاء الله.

«طرنطاي» هذا الذي ذكره العلاء كأنه واحدٌ من عموم

الناس، هو من خواص الخواص ومن أرفع أمراء مصر والشام شأنًا، فهو خليل الخليفة العباسي المحدودة حركته بقلعة الجبل، ومحصورٌ هناك من دون إعلان حبسٍ، فهو خليفة لا يحكم، ويحكم باسمه سلاطين المماليك. وقد كان «طرنطاي» سابقًا «أستادار» السلطان قلاوون، ثم صار اليوم ينوب عنه عند سفره، يتولّى تسيير شئون مصر. وقد ذكر العلاء اسمه على هونٍ ومن دون تبجيل، لأنهما أصدقاء دامت بينهما صحبةٌ طويلة. ومعروفٌ بين الورّاقين أن الأمير طرنطاي، هو الوحيد الذي أهدى إليه العلامة العلاء واحدًا من كتبه. هو «رسالة الأعضاء» وذكر ألقاب «طرنطاي» بالتفصيل في ديباجة الكتاب. وهذا عند عارفيه عجيب، فالعلاء ليس من عادته إهداء كتبه للمعاصرين مثلما يفعل كثير من العلماء، وهو لم يهدِ واحدًا من مؤلفاته الكثيرة للظاهر بيبرس أو المنصور قلاوون، وكلاهما سلطان لمصر والشام على التعاقب، وكان العلاء على صلةٍ بهما وصحبهما لسنوات. ولطالما تساءل النُّسَّاخ عن سبب ذلك، فكنت أقول لهم عبارتي المعتادة: ما لنا صالح.

تهيَّأتُ للقيام ومفارقة العلاء ليرتاح، لولا دخول خادمٍ يحمل طبقين أحدهما كبيرٌ فيه فواكه الشتاء، والآخر صغيرٌ وضعه أمام العلاء. فيه قطعٌ صغار من الجوافة، وأنصافُ فصوص البرتقال، وشيءٌ من حبِّ الرمان. قال العلاء ببشاشةٍ: هذا عشاؤنا. وصمت لحظة ثم أضاف ليدفع عني الحرج: صُحبتك يا ولدي مؤنسة، فإن لم يكن لديك الآن

شاغلٌ، فابقَ قليلًا معي.

- لا شواغل عندي يا سيدي، لكنني لا أحب الفاكهة.

- لا يصح ذلك، ففي الفواكه فوائد كثيرة لك. وهي تُذهب عنك، ما يبدو عليك من اليرقان.

- يرقان!

- نعم يا ولدي، هو مرضٌ يصيب النبات فتصفرُّ أوراقه. والأطباء يستعملون اسمه مجازًا في الإنسان، لوصف الهزال وافتقاد نضارة الوجه، وامتقاع لونه.

- لكنني لا أشكو من شيء يا سيدي.

- الحمد لله. ولكن لا يصح أن تهمل المهم، إلى أن تشكو. كُلْ معي، فهذا ضروري لصحة بدنك.

قلتُ وأنا أتناول بخجلٍ إحدى ثمار الجوافة، لأنها لا تحتاج التقشير كالبرتقال والرمان: لا أشكو يا سيدي ولا يزعجني، إلا اضطراب نومي وخشيتي من هجوم الجواثم أثناء نعاسي، ولذلك أخطف سويعات الوسن وأنا جالس على سطح داري.. اهتم العلاء بما قلته وسألني عن هيئة منزلي، وبعدما وصفت له حاله وبؤس بنيانه، قال إن الحجرة التي بها سريري رديئة التهوية. والعطنُ يُضيِّق أنفاس النائم ويُقلق نُعاسه، ولهذا أميل إلى خلسات الهجوع جالسًا فوق السطح. ونصحني بأن أنقل سريري إلى السطح، وأسقف فوقه بالجريد اتقاءً لبرودة الليل.

راق لي اهتمامه بأمري فابتسمتُ شاكرًا، وكدتُ أتناول برتقالة براقة القشرة، لولا أن أبطأني سؤاله عما إذا كانت الجواثم التي تزعج نعاسي، لها صلة بذكرياتي؟ فأجبتُ بجموح لا يليق بالمقام، أو بالأحرى انفلت مني قولي: وهل لديَّ يا سيدي، إلا الذكريات..

ـ لديك يا سفير، كثير. مهارتك في النسخ، وبراعتك في قراءة الخطوط. ولديك بيتٌ تسكنه، وصحة جيدة ستكون أجود إذا تناولت الفاكهة الطازجة وأوراق الخضراوات. ولديك أيضًا مقبل الأيام، فأنت في مقتبل العمر.

ـ نعم يا سيدي ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

ـ هذا جوابٌ مهذبٌ للترضية، فإن شئت أن تخبرني بحقيقة الحال فسوف أنصت لك، وقد تجد في الإفصاح راحة.

ـ الإفصاحُ ترفٌ حرمني منه الحذر. وحياتي الحالية يا سيدي خواء، فلا عائلة حولي ولا ولد. ولا امرأة معي، ولا مال يعتد به. والمنفردُ، صيدٌ سهلٌ..

قال العلاء مواسيًا، بصوتٍ هادئ يريح السامع: هوِّن عليك يا سفير، واعلم أن العائلة والأولاد فيهم عونٌ لك، وفيهم أيضًا عبءٌ عليك، ووجودهم حولك ليس من شروط البقاء. وقد عشتُ بالقاهرة خمسين سنة، ولا عائلة لي أو ولد. وسأحكي عن ذلك وتسمعه الأيام المقبلة، ما دام في العمر بقية. ولكن لماذا ينقص المال بين يديك،

وأنت ناسخ ماهر ومسفِّر، وسوق الوراقة اليوم رائجة في القاهرة؟

- ما عدتُ أقوم من الأعمال إلا بمقدار ما أتقوَّت بأجره، فقد فقدتُ يا سيدي الشغف بكل شيء. وما عدت مغرمًا بالكتب، من كثرة التذبذب بين موضوعاتها التي لا صلة بينها. أنسخُ كتابًا في تشريح العين، وبعده كتابًا فيما يُراعى عند شراء العبيد والإماء والجواري، وبعده رسائل في الفلك، ثم أشعارًا في التغزل بغلمان الحمَّام، ثم مختارات من كلام الزهاد والفلاسفة. وتلك فوضى مريعة، تعصف بدماغي.

- مهلًا يا ولدي، مهلًا، فأنت تُجانب الصواب. وعليك بإعادة النظر. فمن المعلوم أن المعارف كلها، وبكل ما فيها من علوم وفنون وأدب، هي كالشجرة الواحدة التي يتفرَّع منها غصونٌ، متفرِّع عنها غصون أدق. وقد كتبتُ كثيرًا في مقدمات مؤلفاتي، وكَتَبَ غيري كثيرون في تصنيف العلوم والمعارف وأقسامها. وأعتقد أن ذلك مَرَّ عليك، لكنك ربما لم تنتبه إلى أن التفريع والتقسيم، لا يكون إلا فيما له أصلٌ واحد.

.. كلامه صحيح، العلوم والمعارف والفنون تجمعها كلها صلةٌ، جليةٌ أو خفية. لكنني لاحظتُ أنه لم يتوقف عند ما يتعلق بالنساء والزواج، فدفعني الفضولُ إلى معرفة رأيه. فلم أتردَّد مع تلطُّفه معي عن سؤاله: وماذا يا سيدي عن المرأة؟ كيف تراها على ضوء حكمتك وخبرتك؟ وهل

صحيحٌ أن وجوه النساء لا حصر لها؟

تركَ العلاء مسبحته فوق الطاولة، وأطرق وهو يضع طرف سبَّابته بين عينيه المغمضتين، كعادته حين يفكر مليًّا. ثم عاد بنظره إليَّ ورفع رأسه وهو يقول: النساء والرجال والأطفال، أطيافُ نوعٍ واحد هو النوع الإنساني. وتمييز المرأة بصفاتٍ، إنما يكون بالقياس على بقية أطياف النوع. وعلى ذلك، فالنساء بالقياس إلى الرجال أرقُّ وأبكى وأحسدُ وأغضبُ وأذكرُ لمحقرات الأمور وأقومُ بالتعهُّد وأكسلُ وأقلُّ حمايةً وألحُّ وأجزعُ وأوقحُ وأكذبُ وأمكرُ وأرخى.

«الله أكبر.. الله أكبر» بينما يتكلم العلاءُ كالشلال الدافق، وصلتنا من المساجد القريبة أصداءُ الأذان لصلاة العشاء، كأن المؤذِّنين يؤمِّنون على ما يقوله، ويؤكدونه. وكأنهم ينبِّهونني إلى أن مقامي في حضرة العلامة العلاء، قد استطال إلى ذاك الوقت المتأخر.. عقب صمتنا الواجب أثناء الأذان، عاد العلاء إلى كلامه فأضاف: وقد ذكرت تلك الصفات في ثنايا كتابي عن أعضاء الإنسان ووظائفها وعلَّة هيئاتها، وأظنك رأيت هذا الكتاب.

ـ نعم يا سيدي، نسخته من قبل مرتين، لكنني لم أتدبَّر محتواه إلا الآن. والآن اسمح لي بالذهاب، وسأكون غدًا بين يديك في الموعد المحدد.

ـ لن تذهب قبل أن تأكل البرتقالة التي بيدك، وهذه

الرمانة أيضًا، أو خذهما معك وتعهَّد بأن تأكلهما قبل نومك.

- شكرًا يا سيدي، سأفعل. ولكنني محتاجٌ إلى نُصحك، بأكثر من احتياجي للفاكهة.

- هاه. يعجبني يا سفير ذكاؤك وأدبك، وعندي لك نصيحة واحدة. اجعلْ لحياتك معنى. ولا تستسلم لظنك بأن الحياة عبث، فذلك قد يؤدي بك إلى عديد من العلل والاختلالات النفسانية. والله لم يخلق الكون عبثًا، وقد قال جلَّ عُلاه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾.. يا سفير، أو مهما كان اسمك، ابحث عن معنى وجودك كي يكون لوجودك معنى. وتجاوز عما فعلته معك ابنة «فلتة الوراق»، فلا يصح أن تضيِّع الآتي من حياتك، بسبب ما ضاع منها في السابق. كن قويًا يا ولدي، وتجاوز عما كان، واغفرْ، فالغفرانُ من شيم الأقوياء.

- ماذا تقصد يا سيدي؟ هل كنت تعرف..

كنا في تلك اللحظة قد وصلنا إلى مدخل المقصورة، استعدادًا لمغادرتي، فاستمهل العلاءُ افتراقنا وصرف الخادمينِ اللذين يسيران من خلفنا.. ثم نظر إلى السماء المعتمة من فوقنا بالسُّحب الخريفية الثقال، وقال بعدما تنهد وجلس على الدِّكَّة التي بمدخل المقصورة: اجلسْ إلى جواري. وبعدما جمع راحتيه على أعلى عصاه، همس

إليَّ بحيث لا يسمعه غيري، بأنه يعلم ما جرى بيني وبين طليقتي «شهد» ويعرف أنني في السنوات الأخيرة تنقَّلتُ بين الفنادق الرخيصة والبيوت المستأجرة. ثم قال: وهذه أمورٌ غير خفية وكثيرون يعرفونها، ولكن لا يصح أن تخجل منها وتتوارى بسببها، فما جرى لم يكن خطأ منك. ولا معنى للخجل، مما لم تقترف.

صدمني كلامه حتى كادت الدموع تنفلت من عينيَّ، فأمسكتها بشقِّ الأنفس، وسكنتُ. ثم همستُ كأنني أحادث نفسي مواسيًا: لا أدري لماذا فعلتْ ذلك بي، وأنا الذي كنتُ أراها ملاذًا لي، وحصنًا، وحبيبة..

- لأنك كنت تنظر إليها يا ولدي، ولكن ترى فقط ما في دماغك. فالرؤية غير النظر. النظر يكون بالعين، والرؤية إنما تتم في الدماغ.

- ماذا؟.. كيف ذلك يا سيدي؟

- العين يا ولدي آلةٌ للنظر، وأما الإدراك بالإبصار فهو فعل الدماغ. ونحن كثيرًا ما ننظر إلى أشياء، ولا نراها، لأننا في حال ذهول أو غفلة. وكثيرًا ما نرى في نومنا أشياء، وعيوننا مغلقة. وقد شرحت ذلك في كتابي «المهذب في الكحل المجرب» ألم تطَّلع عليه؟

- لا يا سيدي، لا بد أن ناسخًا آخر قام بنقل هذا الكتاب، فلم أعرف به.

- لا بأس. إذا وجدتَ الفرصة في أي وقتٍ فاقرأه، فهو

مفيد.

- سأفعل يا سيدي.

شعرتُ بأنني أطلتُ المكوث، فتأسَّفتُ منه واعتذرت بصدق المتحرِّجين، ثم قلت وأنا أقوم من جواره: لقد أربكني جدًّا يا سيدي، أنك تعرف ما جرى من زوجتي السابقة.. رَبَتَ العلاءُ على كتفي برفق، ثم ختم حديثه معي بقوله وهو يبتسم: لا عليك يا ولدي، ولا داعي للارتباك، وإلا فماذا لو أخبرتك بأنني أعرف أيضًا ما تخفيه عن الجميع من أخبار أبيك، الشريف، الفارس. رحمه الله.

- كيف يا سيدي؟.. أنا يا سيدي..

- لا تقل شيئًا، واسمعني، فعندي لك مقترحٌ. وعليك التفكير فيه إلى أن نلتقي غدًا، فتخبرني إن كان يناسبك أم لا.

كان مقترح «العلاء» الذي لم أتوقعه، أكثر إدهاشًا لي من اكتشافي أنه يعرف سر استتاري، وإخفائي لحقيقة أبي طيلة السنوات الطوال.. فقد اقترح عليَّ أن أنتقل للسكنى بالحجرتين الملاصقتين لداره من جهة الشمال، أعني الناحية البحرية المقابلة للناحية الملاصقة للمارستان، فأجعل من إحدى الحجرتين محل معيشتي، ومن الأخرى مقرًّا لعملي ورَّاقًا. قال إنه سوف يوقف داره وملحقاتها على المارستان، وقد أوقف عليه سابقًا خزانة كتبه. ومستقبلًا، سوف يحتاج طلاب الطب الذين يدرسون بالمارستان

نسخًا من الكتب الطبية والرسائل. فيمكنهم إذا وافقتُ على ما يقترحه، الحصول على ما يحتاجونه من الكتب، بأثمان أرخص مما يجدونها في سوق الوراقين. على أن يتولّى رئيس المارستان توفير الورق والأحبار ومعدات التسفير، فيمكنني بذلك عمل النسخ بالثمن المناسب للطلاب.. وقال: فكِّر في ذلك الليلة، وأخبرني غدًا بما تستريح إليه.

ـ واللهِ يا سيدي، هذا كرمٌ عميم. ولا يحتاج أي تفكير، أنا موافق يا سيدي..

ـ أنا لستُ سيدك يا ولدي، وأنت لستَ من العبيد حتى يكون لك سيدٌ غير نفسك.

ـ نعم.. ربما.. ولكن بماذا أدعوك؟

ـ ادعُني بما شئت، فأنت مثل ولدي، وسوف تكون جاري. نلتقي على خير غدًا، اذهب يا ولدي في أمان الله ورعايته، ولا تقلق من أيّ شيء.

# يومُ ما مضى

قبل خروجي من بوابة دار «العلاء» مساءً، أخبرني الخادم الذي جاء إليَّ بالأتان، بأنه وضع أمامها العليق والماء حتى شبعت وارتوت. فلم أجد داعيًا لإعادتها إلى دار السديد الدمياطي، في وقتٍ متأخر كهذا. في الصباح رباح، وارتياح. عدتُ إلى مأواي على ظهر الأتان، ورأسي المزدحم بالأفكار منعزلٌ بما يصطخب فيه، عما حولي من ضجيج. كانت القاهرة قد انتقلت من هدير نهارها إلى صخب الليل، وامتلأت الميادين بأسمطة المطاعم التي تزاحمت فيها أضواء القناديل وأبخرة الشواء وأواني الطبخ، وازدحم أمامها وبداخلها الطابخون والآكلون. سكان القاهرة أعلى الناس أصواتًا، وأكثرهم صخبًا. أين مني الآن سكينة الأمسيات في «قليوب» وسكون سكانها مبكرًا. وصفو الأمسيات. أين؟

سلكتُ الأزقة المتتالية، أفعوانية المسالك، وأسرعت بدابتي غير آبهٍ لبرودة الهواء اللاسع لوجهي ومنبت عنقي، كأنني أهرب مما لا أعرفه. كيف عرف العلاء بأخبار أبي، وبأنني أعيش في القاهرة مختبئًا خلف ستار؟ أكان كل هذا الاستتار والتخفِّي والإيهام، وَهْمًا ركنتُ إليه، وهنأتُ به، وأنا في حقيقة الحال مكشوف. وهل ذاع بين الناس خبري مع طليقتي «شهد» حتى عرفه الجميع، وعلم به العلاء؟ ربما يكون استخبر عني، فعرف ما لا يعرفه عموم الناس. الناس عبءٌ ثقيل. ومع ذلك يزعمون فيما بينهم

أن الجنة بغير الناس، لا تستحق أن تُداس! في قولهم هذا، زندقةٌ مستترةٌ خلف العبارات العامية المأثورة والأمثال المشهورة. ما لنا صالح. لماذا عرض عليَّ العلاء الإقامة بداره؟ أتراه أشفق عليَّ مما أعانيه، أم هو فعلًا يريد الخير للمارستان وطلاب الطب حتى بعد وفاته؟ وما معنى قوله لي: ابحث عن معنى وجودك، كي يكون لوجودك معنى.. أين سأجد ذاك المعنى؟

شطَّ فكري وشطح، فبدا لي أن ألوي عناق الأتان وأذهب للمبيت في «قليوب» فأقضي ليلتي هناك، وأعود ظهر غدٍ. هناك قد يصفو ذهني وقد تنجلي أمامي الأمور، وقد أجد هناك على هَدْي الهدوء هُدى.. قليوب ليست بعيدة، ولن يستغرق الوصول إليها إلا ساعة سيرٍ أو أكثر قليلًا.. لا.. قمعتُ نفسي لتستفيق من شططها وشطحها، بقولي لها من دون صوت: لم يعد في قليوب مَنْ تذهب إليه، وليس فيها اليوم مَنْ يستقبلك.

وصلتُ ذاهلًا إلى مستقري البائس، فأنزلتُ البردعة عن ظهر الأتان وقيَّدت رقبتها إلى الجدار بحبلٍ رحيم، وتركتها لتبيت في حجرة نومي. فالحجرة تليق بمبيت الحمير. وبعدما فككتُ عن رأسي العمامة، أغلقتُ بابَي المنزل والحجرة اتقاءً لمكر السرَّاقين، وصعدتُ إلى سطح الدار، وفوق خشب الدكَّة استلقيت وفوقي اسودادُ السماء، بلا وسادة تحت رأسي ولا متكأً. بعد حينٍ، تخافت بداخلي الصخبُ، وتناقصت الأصواتُ والأصداءُ الواصلة إليَّ من

الزقاق والبيوت المحيطة، فتسارع داخل دماغي جريان الذكريات وتدفَّقت كالشلالات، متابعةً.

ذكرياتي المبكرة ملتبسة البدايات، ومبهمةٌ كلها، كأنها رؤى سرابية يحوطها الضباب. أولُ ما أجده في سجل حياتي غير المكتوب، مشاهدُ تلوح من بين غيوم المحو والنسيان. فأراني طفلًا في الثالثة من عمره، أو الرابعة، ألعب عقب الغروب بين يدي أبي. وبيدي عصا قصيرة أشهرها في وجهه، وأدعوه لمبارزتي بسيفه الطويل المتدلي من حزامه، فيضحك بصوتٍ خفيض ويهمس في أذني بكلامٍ لم أفهمه آنذاك، ولا أتذكره الآن. أصداءُ صوته الهامس، العميق، تملؤني. وحين أرفع عينيَّ نحوه وهو يغرقني في حضنه، أراه هائل الجسم، كأنه من العماليق. أمي قالت لي أيام صباي إن تلك الذكرى، وهمٌ من صنع خيالي. وخالي «حميد بن قيس» أخبرني أيام مراهقتي، أن هذا الذي أجده مدفونًا في سراديب النسيان، حقٌّ. وقد حدث فعلًا، لكن أمي لا تعرف به.

وبحسب ما علمتُ من أمي وخالي، أيام شبابي، وأوصياني بكتمانه. فقد كان أبي فارسًا رفيع المكانة، وواحدًا من خواص المقربين لدى الثائر المغدور به «حصن الدين ثعلب» وقد كَبرا معًا بناحية «منفلوط» إحدى كُور أسيوط، وكانا أبناء عمومة ينتميان إلى قبيلة الجعافرة. وهم أحفاد «جعفر بن أبي طالب» المستقرين بصعيد مصر منذ مئات السنين. كما كانا رفقاء

فروسيةٍ وفنونِ قتال، وقاتلا معًا ضد الفرنج في المنصورة وفارسكور. فلما أعلن الأمير «ثعلب» بالصعيد دعوته للعصيان وعدم الاستسلام لحُكم المماليك، أحاط المصيرُ المشئوم بكليهما.

قبل شهورٍ من مولدي ببداية العام الثامن بعد الأربعين وستمائة للهجرة، جاء إلى ديار مصر من البحر، الغزاةُ ذوو العيون الزُّرق، المعروفون إجمالًا بلفظ الفرنج. والبعض يسميهم مغول الفرنج، على اعتبار أن كل غشومٍ متغوِّلٍ هو مغول، والبعض يخصِّص، على اعتبار أن المغول هم طائفة من التتر، يُعرفون بالعنف والهمجية.. وكانت بلاد مصر والشام آنذاك بيد ملوك بني أيوب، ولعساكرهم المعروفين بالمماليك سطوةٌ لا يستهان بها في سائر الأنحاء. وكانت للجعافرة هيبةٌ في عموم مصر، ولهم هيمنة على قلب الصعيد. جاء الغزاةُ «الغالُ» وهم من مغول الفرنج الذين يرفعون راية الصليب، بقيادة ملكٍ متوَّج عليهم اسمه «لويس» ورعاياه من الفرنسيس يلقِّبونه بالقدِّيس. أي الوليّ الرباني. وشاركته في تلك الغزوة جيوشٌ من الدول المجاورة لبلاد الغال، وجاءت معهم جماعةُ المقاتلة المشهورين في بلاد الشمال باسم «الداوية» أو فرسان المعبد. اجتمعوا كلهم على الباطل، وبسيوفهم الطويلة استولوا على ثغر دمياط، ولم يقبلوا بالخروج من هناك صلحًا مهما كان الثمن، إذ خيَّل لهم الطمعُ أن بمقدورهم امتلاك الأنحاء المصرية بكاملها بما فيها القاهرة، ودفعهم الطيشُ إلى الزحف نحوها.

وحين أحدق الخطرُ بقلب مصر، أُطلق في عموم النواحي النفيرُ العام بالجهاد، للدفاع عن الأرض والعِرض والدين. فاستجاب الناس واجتمع مع الجيش الأيوبي بقيادة فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، جيشُ المماليك البحرية بقيادة أقطاي وبيبرس، وجيش القبائل بقيادة الأمير «حصن الدين ثعلب» وفرسانه الكبار. الذين كان أبي واحدًا منهم.. وكانت أمي في ذاك الوقت، في غياهب الصعيد، حُبلى بي.

تصادمت الجيوش. وبعد كرٍّ وفرٍّ ومناورةٍ واستدراجٍ للغزاة، قاتلت الجيوش المصرية المسلمة جيشَ الغزاة النصارى، عند بُليدةٍ تسمى «أشموم طناح» بالقرب منها استراحة ملكية اسمها المنصورة، تقع قبالة بلدة «طلخا» على الضفة الأخرى من فرع النيل. انتصر المسلمون هناك، ثم انتصروا ثانيةً بناحية بلدة «فارسكور» وهناك أسروا القديس «لويس» وحبسوه مع اثنين من إخوته في بيت القاضي «إبراهيم بن لقمان» بناحية المنصورة، فذاق ذاك الملك هناك من بعد العزَّة الذل، وأدرك الجميع أنه ليس بقديسٍ سماوي، ولا فاتحٍ أرضي. وظل محبوسًا حتى افتدى نفسه بمالٍ كثير، وأقسم بأغلظ الأَيْمان النصرانية، على عدم عودته إلى مصر والرحيل عنها بفلوله فور إطلاق سراحه. كانت مقدارُ الفدية المتفق عليها أربعمائة ألف دينارٍ بندقيٍّ، دفع الغزاة نصفها لتحرير ملكهم، وتعهد هو بدفع النصف الآخر عند بلوغه عاصمة مُلكه ببلاد الغال.

وأقسم على ذلك. لكن لويس «القديس» لَمَّا بلغ مأمنه، نكث بعهده ونكص عما وعد به، فلم يدفع ما عليه وأصمَّ أذنيه عن المطالبة به، بلا خجل.. ولله في خَلْقه شئون ذات شجون.

وأثناء جريان المعارك، جرت أمورٌ جسام. أخطرها إعلان وفاة السلطان الأيوبي الملقَّب بالملك الصالح، وتنازُل زوجته «شجر الدر» عن حكمها لمصر، لصالح ابنه الأهوج «توران شاه» حفيد الملك العادل الأيوبي، الأخ الأصغر للناصر صلاح الدين.. وبعدما خمدت نيران الحربُ، وبَرَد أُوَارُها، جرت أمورٌ أخرى جسامٌ، أفدحُ أثرًا. منها أنني وُلدتُ. وليتني لم أُولد، أو كنتُ شاةً فذبحها بعد حَوْلٍ جائعون، فشبعوا واسترحت. ومنها أن «توران شاه» راح يضيق الخناق على «شجر الدر» ويطالبها بالمال الذي نالته سابقًا من أبيه المتوفى، كما أخذ بحُمْقه يبوح بكراهيته للمماليك البحرية، ويتوعَّدهم علنًا عندما يسكر كل ليلة. فلم يصبر عليه البحرية، وهم المماليك الترك الذين أسكنهم «الملك الصالح» بجزيرة الروضة المحيط بها ماء النيل. والقاهريون يسمون نهر النيل البحر. وعقدوا العزم على الغدر بالملك الشاب «توران شاه» قبل أن يغدر بهم، وقتلوه شرَّ قتلة. وبمقتله، قامت دولةُ المماليك وراثةً غير شرعيةٍ لدولة حُكم الأيوبيين، التي كانت بدورها وراثة غير شرعيةٍ لدولة الخلفاء الفاطميين.. ومن الأمور الجسام التي جرت بعد الحرب، أن ابن عم أبي، الأمير الشريف

«حصن الدين ثعلب» عاد إلى الصعيد مزهوًّا برجاله البواسل، يحوط بهم الفخر بما أسهموا به من بطولات صنعت النصر في «فارسكور»، وفي ناحية «أشموم طناح» التي غلب عليها من وقتها اسم «المنصورة» احتفاءً بالنصر، وغدت خلال سنواتٍ قليلة مدينةً آهلةً عامرة.

أُعلنت دولةُ المماليك واستعلن حُكم «أيبك» للبلاد، وكانت تستتر خلف ستائره «شجر الدر» التي تزوجته كي تتوارى في ظلاله، وتحكم. لكنه أراد أن يتزوج بغيرها، فثارت غيرتها واحتدَّت نقمتها عليه، وكان بينهما ما كان من التآمر والهول والويلات. وآنذاك أعلن «ثعلب» العصيان وعدم الانصياع لحكم المماليك، ومنع جباية الجزية والخراج والمكوس لهم، وأطلق أمام رجال قبيلته «الجعافرة» وبقية تابعيه من القبائل العربية في الصعيد، مقولته التي اشتهرت وصارت كالشعار: نحن أصحاب البلد، ولن نكون عبيدًا لعبيدٍ مملوكين.

اندلعت ثورة «ثعلب» سنة إحدى وخمسين وستمائة للهجرة، أيام كنتُ في الثالثة من عمري. وكان انطلاقها من موطن مولدي، أعني بلدة «دَوْرُوط» القريبة من ناحية «أسيوط» بوسط صعيد مصر. وبعضهم ينطق اسمها «ديروط» ويُلحقها بأمير الأشراف «ثعلب» فيجعل اسمها، ديروط الشريف.

بجرأةٍ بالغة وعنفوانٍ جارف، استعلنت الثورة، فكان لابد من وقوع الصدام والقتال المرير بين المماليك بزعامة

«أبيك» والجعافرة وبقية القبائل العربية بالصعيد والبحيرة بزعامة «ثعلب».. عسكر جندُ المماليك بناحية «بلبيس» الواقعة شرقيّ بلدة قليوب، واحتشد أنصار الثورة في الصعيد. وحين لاحت راياتُ الحرب في الأفق، جاء خالي «حميد» من بلدة قليوب التي كان قد استقر بها قبل سنوات واشتغل هناك بنسخ الكتب وتسفير المجلدات. جاء في وقتٍ عصيب إلى الصعيد ليطمئن على أفراد عائلته، وعلى أمه التي أقعدتها علّةٌ موتها. قال له أبي: لقد أخطأت يا حميد بزيارتك هذه، في هذا الوقت، وما كان يصح منك أن تترك عيالك وامرأتك في قليوب، ولسوف يطل الهول قريبًا فأسرعْ بالعودة لتكون مع أسرتك، وخذ معك ابني «نصري» وأمه كي يكونا بأمانٍ من الحرب.

- متى ستقع تلك الحرب، وكيف ستكون عاقبتها؟

- لا أدري متى يا حميد. لكن الأمر حتميٌّ، ولا يعلم عاقبته إلا الله. ولستُ على وفاقٍ في الرأي مع الأمير حصن الدين، فهو لم يعد يأخذ بمشورتي ولا بأي مشورة، ولا أدري إلى أي مصير سيذهب بنا.

كان أبي ينصح «حصن الدين ثعلب» ويُلحُّ عليه، بأن يؤجل إعلان الثورة إلى حين الاستعداد الجيد لها، والتجهيز اللازم لمواجهة جند المماليك وقوادهم المهرة في فنون القتال، لكنه لم يجد صدى لنصحه وإلحاحه. فقد كان «ثعلب» يرد عليه بالآية القرآنية الواردة في سورة البقرة ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

ويردف متفاخرًا: ونحن أوفر عددًا وعُدة من هؤلاء العبيد المملوكين، والحق معنا والاستحقاق لنا، ولن نكون أبدًا عبيدًا للعبيد، نحن أصحاب البلاد.. قال له أبي: الحرب خدعة يا أمير.

- لا مخادعة ولا مناورة، والنصر لنا.

- وكيف سيأتي النصر؟

- بالرجال، وعندنا منهم ما يسدّ عين الشمس ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

كان «ثعلب» قد اغترّ بنفسه حين تقاطر عنده رجال القبائل، الذين يسمون في كلام القاهريين «العُربان» وبايعه معظم كبارهم زعيمًا لهم وحلفوا له بالطاعة، فصار يتصرَّف كأنه ملكٌ متوَّج، وكأن بلدته «ديروط» هي عاصمة مصر.

بعد أيام من ارتحالي أنا وأمي مع خالي «حميد» إلى قليوب، تزحَّف جندُ المماليك من بلبيس إلى الصعيد، وعلى رأسهم المملوك «أقطاي» وكانوا خمسة آلاف مقاتل، معهم عُدة الحرب وعتادها الكامل. وكان عددُ الثائرين الذين اجتمعوا تحت إمرة الأمير «ثعلب» من رجال القبائل الساكنة بالصعيد والبحيرة والشرقية، وبقية النواحي المصرية، يصل عددهم إلى اثني عشر ألفًا من الرجال.. حينها، اقترح أبي أن يتقهقر «ثعلب» بجنوده إلى جوف الصعيد، ويدور ويناور المماليك في أرضٍ لا يعرفونها

جيدًا، ويتحصَّن خلال ذلك بالجبال المحتفَّة بوادي النيل، شرقًا وغربًا. وبذلك يُنهك المماليك، ثم ينقض عليهم وقتما وأينما يجد الفرصة مواتية. بيد أن «ثعلب» رفض ذلك. قال له أبي إن تلك الحيلة الحربية، هي التي ضمنت الفوز على جحافل الفرنج بالمنصورة وفارسكور، وأفهمه أن الأرض تحارب مع ساكنيها ضد الغزاة، وأن الظهير المصري في القرى والنجوع والبلدات، سيكون عونًا للثائرين وقَذًى في أعين المماليك. لكن «ثعلب» رفض الأخذ برأي أبي.

مغاضبًا، تركه أبي وذهب إلى الجهة الشرقية من النيل، واحتمى بمغارات الجبال هناك، ولحق به نفرٌ من أقاربه المقربين الذين اعتزلوا الحرب. وحين انقدح شرارُ القتال والتقى الجمعان عند «ديروط» وقع ثعلب من فوق حصانه، فَزادَ عنه جماعةٌ حتى استنقذوه من رماحِ ونبال المماليك، ومن سيوفهم، لكن الصفوف اختلَّت خلال ذلك وتفرَّقت صفوفُ المقاتلة من رجال القبائل، فأثخن فيهم المماليك بسيوفهم، وقتلوا منهم المئات خلال ساعات قليلة.

اضطر «ثعلب» والذين معه إلى التفرُّق والفرار، فاشتعلت شهوةُ الفتك في نفوس المماليك، وأسرفوا بعد تقتيل الثائرين في تفجيع وترويع المسالمين من أهل القرى الآمنين. وأسكرتهم نشوةُ النصر السريع فتجبَّروا، وبالغوا في النهب والسبي وتحريق البيوت وإهلاك الزرع والضرع،

فكانت أفعالهم في بلاد الصعيد ومن بعدها نواحي البحيرة والشرقية والمنوفية، أشنع من أفعال الغزاة من مغول التتر ومغول الفرنج. وحسبما دلَّت عليه تجاربُ الأمم ومآلات الويلات، فلا عبرة هنا بأن الغالبين مسلمون أو غير مسلمين، فالمحاربون والساعون إلى السلطة لا يعرفون أي دين، ودَيْدنهم الدائم هو الفتكُ والسفك والغدرُ.

أقرَّ «ثعلب» بانهزامه، والتمس الصلح. فكر به «أيبك» والذين معه من كبار العبيد الترك المماليك، كأقطاي وبيبرس، وأظهروا له الموافقة وقبول ما يريده من الوفاق، بل ووعدوه بالإمارة والسيادة على قلب الصعيد، فانخدع. دعوه إلى معسكرهم لعقد الصلح، فدعا من تبقَّى معه من رجال القبائل للذهاب معه إلى بلبيس، واعتذر لأبي عن عدم تقديره سابقًا لمشورته. فقبل أبي منه الاعتذار وأوجد الأعذار، بسبب القرابة وسابق الصحبة والمودة، ووافق على الذهاب معه لمقابلة «أيبك» في بلبيس.

كنت آنذاك طفلًا في أواخر السنة الثالثة من عمري أو بداية الرابعة، وكان أبي قد اشتاق إليَّ، فعرج سرًّا في طريقه إلى بلبيس على «قليوب» ليراني. وعندما علم من خالي «حميد» أنه يتخفَّى ويُخفي أصولنا الصعيدية عن جيرانه، وأنه لا يخالطهم كثيرًا، وينعزل بنا في داره النائية عن بيوت البلدة. اطمأن أبي إلى هذا التدبير الحكيم، وطلب من خالي أن يحضرني في الليل خفيةً، ولا يخبر أمي بما يجري، حتى يحسم أمر الصلح المرجو. المرتقب

بقلق. فأخذني خالي حميد إليه تحت ستور الليل، والتقينا عند النخلات التي في منتصف الفدادين السبعة التي يملكها خالي خلف داره، وهناك جرى لقائي الوحيد مع أبي.. اللقاء الذي كنتُ دومًا متأكدًا من أنه ذكرى، وكانت أمي تقول لي إنه وهمٌ صنعه خيالُ طفولتي.

وصبيحة يوم لقائي بأبي، انضم إلى «ثعلب» ورجاله الذاهبين إلى بلبيس. بلا عودة. كان عددهم ألفَي فارس وستمائة راجلٍ، إذ ظن ثعلب أن دخوله على «أيبك» بهذه الهيئة، وتلك الهيبة، سيكون له الأثر القوي حين يلتقيان، ويتعاتبان، ثم يتراضيان. لكنهما لم يلتقيا.

فور وصول الساعين مع «ثعلب» إلى الصلح ونزولهم عن ظهور خيولهم، أخذهم المماليك إلى دهليزٍ يوهم بأنه يؤدي إلى خيمة كبيرهم «أيبك» لكنه في الحقيقة يؤدي بهم إلى حتفهم. فقد كان رماة المماليك قد كمنوا لهم على جانبي الدهليز، وحين تمكّنوا منهم أمطروهم بسهام الغدر، ثم أثخنوهم بالرماح وبالسيوف. وكثرت الأقوال من بعد ذلك، وتضاربت الأخبار. قيل إن المماليك قتلوهم يومها عن بكرة أبيهم، وقيل بل قُتل معظمهم وفرَّ أفرادٌ قلائل منهم، وقيل إن ثعلب قضى نحبه يومها، وقيل بل اقتاده بيبرس إلى الإسكندرية وحبسه هناك سنواتٍ، ثم نقله إلى قلعة الجبل المشرفة على القاهرة وقتله هناك.. ولا أحد يرجّح واحدًا من تلك الأقاويل الكثيرة، ولكن الجميع، والأخبار كلها والأقوال والوقائع، شهدت بأن هذا

الغدر أعقبه من المماليك مزيدٌ من الفتك والنهب والسبي في عموم القرى والبلدات. ومُنع «العربان» وعموم أهل الصعيد، من ركوب الخيل ومن اقتناء السلاح. وانتزعت من أهل القبائل منازلهم وأراضيهم، وتم العبث بنسائهم وبناتهم لإذلالهم. ومَنْ نجا منهم من القتل، والمجروحون والمعوَّقون والضعفاء والمساكين، نزحوا زَرافاتٍ ووُحْدانًا من نواحي الصعيد وأنحاء الدلتا، إلى القاهرة. وعاشوا هناك مقهورين.. مشرَّدين.. يشحذون. بل يسألون الناس إلحافًا، ويتخطفون من المزابل بقايا الأرغفة، فأطلق عليهم القاهريون للإزراء بهم اسم «الحرافيش» واسم «الذُّعر» الذي ينطقه بعضهم، الزُّعران. وكانت الغالبية من الناس تزدريهم وتجفو عنهم، ولكن بقي البعض يعطف عليهم ويرأف بهم من باب الرحمة والميل نحو الإحسان، مثابةً وزُلفى إلى رب العالمين. وهكذا انتهى الحالُ مرةً أخرى، إلى أن صار «أصحاب البلد» هم المشرَّدين، وأمسى الذين كانوا مملوكين هم المالكين. أو حسبما قيل سابقًا: الحرُّ مستعبدٌ والعبدُ معبود.

نعم، صار الحرُّ مستعبدًا والعبدُ معبودًا.. قبل ثلاثة قرون من الزمان، زار مصر شاعرٌ بليغ اسمه «أبو الطيب أحمد بن الحسين» والذين يقرءون كثيرًا أو يحبون القصائد، يعرفونه بلقب المتنبي. عاش الرجل هنا قبل بناء القاهرة، وهرب منها بعد حينٍ بعدما هجاها بجملةٍ وفيرة من الأبيات الشعرية، انتقامًا من حاكمها المملوك «كافور» كان منها

قوله الصريح القاسي:

صار الخصي إمامَ الآبقين بها
فالحرُّ مستعبدُ والعبدُ معبودُ

وتعاقب المماليكُ من وقتذاك على حكم البلاد، بالوراثة، أو بالانتزاع السلميِّ إن أمكن، والقسريِّ إن لزم. ولأنهم ذوو أسماء مفردة، وأصول مفقودة، لا يُعرف الواحد منهم بحسب المعتاد من الأسماء، فيُقال «فلان بن فلان بن فلان» ولا تأتي بعد أسمائهم المفردة ألقابٌ عائلية. ولذلك صاروا يحشدون قبل اسم الحاكم منهم، صفات يختارها كل واحدٍ منهم بحسب ما يهوى، فيقال: الملك المظفر سيف الدين قطز، الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، الملك المنصور سيف الدين قلاوون.. وهؤلاء الثلاثة حكموا البلاد تباعًا، وقد أشيع عن أولهم قبل أن يقتله ثانيهم ويجلس مكانه، أنه «قطز بن عبد الله» ثم أُشيع عنه أنه «محمود بن ممدود» وأن «قطز» لقبه. كما أُشيع عنه أنه في صباه المبكر، رأى النبيَّ في منامٍ فأخبره بأنه حين يكبر سوف يملك البلاد ويقهر التتر.. وهذه تُرَّهَات وكلام مُشاعٌ لا يصدقه إلا الأغبياء، ولا أجد له أصلًا أيَّ معنى.

أين المعنى؟

.. استطال سهادي على الدكة السطوحية، حتى انتصف الليل واشتد عليَّ البرد. فألقيتُ فوقي العباءة القديمة المتهرِّئة، واستسلمتُ مجددًا لجَرَيان الذكريات وجَوَلان

البحث، عن معنى فيما مضى.. وفجأة، أضحكني أنني سألتُ نفسي: تُرى، هل نامت الآن الأتان بحجرتي التحتانية، أم تمنعها أيضًا عن النوم ذكرياتُها؟ وجاوبتُ من دون صوت: لا أظن أن الحمير تتذكر شيئًا، إلا الدروب التي تعتاد على السير فيها. ولكن مَنْ يدري؟ ربما كانت الكائنات كلها تتذكَّر، لكنها لا تحكي ما كان لأنها عجماء بكماء.. هل كانت المعزات والنعجات تدرك في بيت خالي بقليوب، ومن بعد تتذكر، ما كان يفعله فيها ابنا خالي أيام راهقا البلوغ؟.. ما هذا الذي أفكِّر فيه.. ما هذا الفراغ المغرق المحيط بي، وما كل هذا الاسوداد البهيم؟ سأنزل كي أطمئن على الأتان، وبعد ذلك أستخرج الدنانير القليلة التي خبَّأتها في الشقوق المختفية تحت الدرج، خلف الجدار الوهمي. لا داعي للعجلة. سوف أؤجِّل استخراجها من مَكْمنها الآمن أيامًا، حتى يستقر مُقامي بجوار دار العلامة العلاء، وأطمئن إلى سُكناي هناك. أتراني سأطمئن يوما لأيِّ مكان؟

ببطء مكلومٍ يتألم أزحتُ عني غطائي، والكسل الموجع، ونزلتُ عن الدكة فأوقدتُ قنديلي هزيل الضوء، وهبطت به إلى حجرتي التحتانية للاطمئنان على الأتان. حين فتحت عليها الباب ألفيتها واقفة بوسط الحجرة، تحوطها الرائحة العطنة. هل تشمُّ الحمير؟ حرَّكتْ أذنيها الطويلتين كأنها تخبرني بأنها مثلي، مسهَّدة، أو هي تستغرب المكان فلا تستطيع النوم. تحدثتُ إليها بصوتٍ خفيضٍ، وأنا أمرُّ

براحتي اليمنى على أعلى رقبتها كي تستأمن: ليش سهرانة، عندك أفكار؟ بكرة الصبح ترجعي لبيتك وصاحبك وأحبابك. احمدي ربنا، حالك أحسن من حالي، أنا لا لي بيت ولا صاحب ولا أحباب أرجع إليهم.

جاوبتني الأتان بنظراتٍ لا معنى لها، فتركتها في أمانٍ وعرجتُ مجددًا إلى السطح وقد صار أبرد وأندى، وأوجع للعظام، وعلى مهلٍ عدتُ لاستلقائي السابق والتحفتُ بمزيد من الأغطية. يجب أن أنام لأستريح مني، ولكن كيف؟ النومُ عصيٌّ عليَّ والفجر بعيدٌ موعده والراحة حلمٌ مستحيل. لا بأس، هذا حال الحياة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ عجيب. ما الداعي لتعذيب الخَلْق بالمكابدة في الدنيا، ثم تعذيب معظمهم بالنار في الآخرة؟ لا أعرف داعيًا لذلك ولا سببًا مقنعًا. لكن حياة الإنسان ليست كلها كَبَدًا، وكثيرٌ من الناس لم يكابدوا ولم يعانوا، لأنهم ولدوا وماتوا أغنياء وأعزاء، بينما عاش آخرون في العذاب المقيم وماتوا فيه. كأن الحظوظ خبط عشواءٍ لا ضابط لها، ولا حكمة تكمن خلفها ولا حتى تدبير. لا، هذا الكلام خطير. ولا يجب أن يسمع به أحدٌ، وإلا حل الويل من أهل الإدانة بالدين، ومَنْ يتبعهم من المتعصّبين المعصوبة أعينهم.

حياتي لم تكن كلها في كبد، فقد عرفت السعادة حين منحتني «شهد» الإمتاع والبهجة والسلوان، ودام ذلك أيامًا ثم تبدّل الحال وساء المآل. لا بأس. يكفي أنني عرفت السعادة التي عزّت عن كثيرين، ممن عاشوا وماتوا

محرومين. تُرى، هل سعدتْ أمي أيام تزوجتْ أبي، وهو الغنيُّ الفتيُّ شريفُ النسب وهي الفقيرة الكادحة. كيف لي أن أعرف؟

لا أعرف أحدًا عانى في الدنيا مثل أمي، وقد يعذبها الله مجددًا في الآخرة، لأنها لم تكن تصلي. وقد سألتها في صباي عن السبب فلم تجب، وسألت خالي بعد وفاتها فقال لأنها عانت كثيرًا، فما عادت تُعنى من بعد المعاناة بالعبادات. ثم دعا لها بالمغفرة. أمي وخالي كان أبوهما من فقراء الناس بأسيوط، وليست له قبيلة أو عائلة معروفة يُعتزُّ بها أو يعتد. والفقراء يتزاوجون في الغالب مع أمثالهم، وقد تزوج جدي لأمي فتاةً فقيرة تناسبه، من الجيزة، وأنجب منها أمي ثم خالي «حميد» الأصغر بعامين أو ثلاثة. ولسوء حظه وُلد خالي ضعيف البدن متقوس الساقين، لكنه ليس كسيحًا، فحزنت عليه أمه وجفَّ صدرها وكفَّ عن الرضاع. وعقب فطام وليدها المعطوب، لحق بها الذبول قبل الموعد وأقعدها الهزالُ. ثم ما لبثت أن ابتُليت بالرعشة وسَلَس البول، فعافها زوجها وتزوج بغيرها، وأهملها، فكانت أمي منذ طفولتها تعتني بأمها وتعمل على النول بدلًا منها. عاشت في كبد. وحين رآها أبي وهي في السابعة عشرة من عمرها، وأعجبته لأنها كانت مليحةً وحزينة، تزوجها من غير مشورة أهله. أو هو لم يأخذ بمشورتهم. فلم يتقبَّلوها ولم يقبلوا بها بينهم، لأنها ليست جعفرية وشريفة النسب مثلهم. أسكنها أبي بعيدًا

عن عائلته، بدارٍ صغيرة في ناحية نائية عنهم. كان مهرها حسبما أخبرني خالي، بعض الحُلِيّ وأَمَةً عجوزًا تقوم بدلًا عنها برعاية أمها، فقبل أبوها بهذا المهر وتقبَّلت أمي الأمر. وحين حَبلت بي، خطر لها أن الحياة قد تصير مبهجة ومحتملة، ولكن أطل عليها الخطر مع غزو الفرنج لدمياط وما أعقب ذلك من ثورة ثعلب، ثم فتّك المماليك بالعباد والبلاد، واختفاء أبي. فانكسر خاطرها ولم تجبره الأيام.

وكان خالي «حميد» قد رحل بعد زواجها إلى القاهرة ليشتغل بنسخ الكتب، وعمل شهورًا بوكالة «فلتة الوراق» ثم نزح عن القاهرة إلى «قليوب» وتزوَّج هناك وأنجب. وعندما أعانه أبي ببعض المال، وطلب منه أن يأخذني أنا وأمي بعيدًا عن الخطر المحدق بالصعيد، رحل بنا وأسكننا معه بأطراف قليوب حيث اشترى دارًا وبضعة أفدنة. الأطيانُ الزراعية بقليوب أرخص من مثيلتها بالصعيد، مع أنها أكثر غلةً، لأن الأرض الخصبة أوسع، والناس الذين يزرعون أقل.

ظل خالي يقوم من منزله بنسخ الكتب والتسفير، ويرسل ما يعمله إلى «فلتة» بالقاهرة، مع تجار الخضر والفاكهة الذين يذهبون ببضاعتهم إلى قلب القاهرة فجرًا، ويرجعون منها عصرًا. وفي «قليوب» أخفى خالي عن الناس أصله الأسيوطي، ونسب نفسه إلى أخواله بالجيزة. وهم لفقرهم وقلة عددهم، غير معروفين. ثم نسبني إليهم عقب هزيمة «ثعلب» وتنكيل المماليك بمن والاه، خشية

أن تُعرف أصولي الجعفرية، فيلحق بنا الأذى.. وبدلًا من اسمي «نصري بن قاسم بن عبد المجيد الجعفري الشريف» جعلني عند الناس باسم: عبد الله بن محمد بن عبد الله. عجيبٌ حالُ الزمان. كان نسبي الشريف عزوةً، فصار عورةً لابد من سترها عن الأعين.

وإمعانًا في التخفي، وبعدما تعلَّمتُ من خالي فنون الخط والكتابة والوراقة، وبدأتُ في نسخ الكتب والتوقيع على صفحتها الأخيرة، بالغتُ من جانبي في الاستتار فاخترت لنفسي اسم «سفير» لأن مجموع ما تعطيه حروف هذا الاسم بحساب الجُمَّل، هو العدد نفسه الذي تعطيه حروف اسم «نصري» والاسم الذي كانت أمي قبل نومها تهمس به خفيةً، كأنها تسبّح «نصير». فالأسماء الثلاثة، مجموعُ حروف كل اسمٍ منها خمسون وثلاثمائة.

وفجأةً بعد هذا التخفي الذي دام أربعين سنة، أعرفُ من كلام «العلاء» أنني كنتُ طيلة عمري مكشوفًا. كيف عرف؟ ومَنْ سواه يعرف حقيقة أمري؟ وعمومًا، لا داعي للقلق. فلم يعد الحال اليوم مثلما كان قبل عشرين عامًا، ولم يعد الخطر محدقًا بمن اعترضوا قديمًا على حكم المماليك، فقد فنوا، واستقر الحكم بيد المماليك وخنع الناس لسلطانهم وخضعوا، فصار من النادر أن يعترض معترضٌ على حكمهم.. ولكن السؤال يبقى عالقًا بعُنقي وناشبًا مخالبه في رأسي: كيف عرف العلاء بأمري؟.. وهل غيره يعرف، ولماذا غضَّ الطرف عني الذين عرفوا؟

الأمر مُحير، أرحت نفسي بقولي لها: لا بأس، حين تَسنح الفرصة المناسبة، سوف أسأل «العلاء» عن ذلك كله، ولا أظنه سوف يبخل بالإجابات.. وقد عرفت منه الإجابة لاحقًا، من دون أن أسأله.

«ابحث عن معنى وجودك، كي يكون لوجودك معنى» لا أجد عندي أي نتيجة أو صدى، لنصيحة «العلاء» هذه. وهأنذا منذ ساعات أفتِّش عن المعنى فيما جرى من قبل مولدي، فلا أجد إلا اضطراب المصائر وانعدام البصائر. أين المعنى الكامن، وأين الحكمة من وراء ما مرَّ؟.. لعلني نظرت في حيوات الآخرين، أمي وأبي وخالي، بحسب ما عرفته من مجملاتها، وبلا اعتبار للتفاصيل. ولعل المعنى يكمن في تفاصيل حياتي، أو يختفي خلف الوقائع التي عاينتها وغفلتُ عن معناها. وعلى أيِّ حالٍ، حياتي ليس فيها الكثير، ولا المثير للتفكير.

بدأت مسيرة عمري، العادية جدًّا، في دار خالي «حميد» بأطراف بلدة قليوب الطيبة، المستلقية وسط البساتين. في تلك الدار سكنتُ مع أمي بالحجرة المجاورة للزاوية التي تبيت فيها الأغنامُ والماعزُ، وزعيمُ الحظيرة. كنتُ في طفولتي موقنًا بأن الحمار الذي يركبه خالي بلا بردعة، هو زعيم حيوانات الحظيرة وقائدهم الأعلى، لأنه أكبرهم حجمًا. ولأنهم يحترمونه ويهابون منه، ولا يضايقونه. خالي وأسرته الصغيرة يسكنون بالجهة البحرية من الدار، وبين الجهتين باحةٌ تمرح فيها الدواجن، حتى يحين موعد ذبحها.

زوجة خالي امرأةٌ طيبةُ القلب، من قرية صغيرة قريبة من قليوب. أهلها من بسطاء المزارعين الذين يسميهم أهل الصعيد الفلاحين، مع أن أولئك وهؤلاء يفلحون الأرض ليزرعوا. وكانت في طفولتي المبكرة رشيقةً وقادرةً على الحركة، لكنها تضعضعتْ بعدما أنجبت ابنة خالي الحسناء «سلمى» الأسنّ مني بخمسة أعوام، وابنه الأكبر «سليم» الذي يكبرني بثلاثة أعوام، والأصغر «سليمان» الأكبر مني بسنةٍ واحدة. لم تعد «زبيدة» زوجة خالي بعدما أنجبت الثلاثة تختال في باحة الدار كالغزلان، إذ أخذت تترهل وتزداد بدانةً مع مرور الأيام، حتى بلغت عند بلوغي العاشرة من عمري حدًّا من السِّمنة المفرطة أقعدها الحركة. وخصوصًا بعدما تزوَّجَت ابنتها الفاتنة، الهيفاء، الساحرة. سلمى. تحسَّرتُ حين تزوَّجتْ لأنني كنتُ أتمناها لنفسي بخيال صبيّ، ثم بصبوة مراهقٍ يحلم بنوالها فيحتلم.. بعد زواجها تدهورت أحوال أمها حتى لزمت الفراش مع تشقُّق قدميها المتورِّمتين بسبب داء السُّكَّرِيِّ، وعندما أقعدها المرضُ بالحجرة التحتانية، صار خالي يقيم بشكلٍ دائم في الغرفة التي فوق السطح، حيث يكتب ويسفِّر. وصارت الخادمة المليحة «حَنَّة» هي التي تقوم في دار خالي بالأعمال المنزلية، وغير المنزلية.

قبل بلوغي الحادية عشرة من عمري حفظتُ في الكُتَّاب معظم سور القرآن، من دون أن أفهم معظم معانيها. كنتُ في طفولتي أسأل الشيخ «معيط» المحفِّظ عن معاني

الآيات، فيهزُّ رأسه النحيل وكأنه أحكم حكماء الزمان، ويقول لي: احفظ وعندما تكبر ستفهم.. كبرتُ ولم أفهم، وعندما نسخت في شبابي المبكر كتب التفسير قبلتُ أقوال المفسرين، مقنعةً كانت أو غير مقنعة، وبقيتُ على ذلك زمنًا حتى سكنتُ بالقاهرة، وسمعت ما كان يقوله فلتة الوراق وصاحبه ابن الوحيد. عندئذٍ أعدتُ النظر، فتشككتُ فيما قبلتُ سابقًا، وتسللتْ إلى نفسي الأسئلة التي لا إجابة عليها. وبعدما جرى ما كان من مُطلَّقتي «شهد» أدركتُ أن أمور الحياة تسير على غير هُدى ولا ضابط ولا سبيل مستقيم، وطرحتُ عني المعتقدات الإيمانية بالكلية، بل وتوقفتُ عن التفكير فيها، فاسترحتُ إلى قاعدة «ما لنا صالح».

ابنا خالي، سليم وسليمان، استراحا مبكرًا من تلك الأفكار أو هما لم ينشغلا أصلًا بشيء منها. ففي زمن الطفولة كانا يغافلان محفِّظ القرآن، ويتسللان من جوانب الكُتَّاب غير المسوَّر، ويذهبان إلى ضفاف الترع وحواف خليج سردوس. فيلعبانِ ويمرحانِ هناك مع الأقران، ويصطادان الأسماك الأصغر من أن تؤكل. لم يُلاما على عدم حفظهما القرآن، ولم يرغبا قط في التعلم وتحصيل المعارف، فعاشا هانئينِ بالحياة كالحيوانات. حتى حين عمَّ البلاد القلق من قدوم الغزاة من مغول التتر، سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة، كانا يتضاحكان ويلتهيان عن الخطر المخيف المحدق، بالمرح وتحصيل النصيب الأكبر من متع

الحياة. وعندما انكشفت الغمَّةُ عن الأمة بانتصار المماليك على شرذمة التتر في سهل «عين جالوت» بالغا في اللهو إلى حدِّ النزق، وصارا يحتسيان الخمر خفيةً وعلانية، وهما دون الخامسة عشرة من العمر، وكانا يتبجَّحان حين يسكران غير مكترثين بنقمة أبيهما عليهما.

خالي حميد كان يُحسن معاملتي، وهو الذي علَّمني فنون الوراقة وشجَّعني منذ الصغر على نسخ الكتب والرسائل. وكنتُ أحب ذلك وأجتهد فيه، لأنه يشعرني بالأمان ويسبغ عليَّ رضا أمي وتقدير خالي. وفي حدود الخامسة عشرة من عمري، بعث خالي ما قمتُ بنسخه إلى «فلتة الوراق» فأعجبه عملي، وصار يكلِّفني بأعمالٍ نظير أجرةٍ كانت تقلُّ بقدر ضئيل عما يدفعه إلى خالي، فافتخرتْ أمي بي من دون أن تُظهر سعادتها اتقاءً للحسد. في ذاك الوقت، لم يكن «فلتة» قد رآني بعد، ولا كان يعرف أنني في الخامسة عشرة. وقد اندهش من صغر سني حين التقيت به أول مرة، وفرح بي وأوصاني بالمواصلة. وعندما طُلب مني كتابة آيات من القرآن على حوائط مسجدٍ صغير بقريةٍ قريبة من «قليوب» أخذتُ مشورته، فقال لي إن ذلك عمل الخطَّاطين لا الورَّاقين، ونصحني بلطف بأن كرَّر عليَّ القول المتواتر: الذي يخرج من كاره يقلّ مقداره.

قابلت «فلتة» أول مرة حين كنتُ في حدود السادسة عشرة من العمر، عندما بدأتُ في الذهاب إليه من قليوب

إلى القاهرة لتسليم ما نَسَخْته أنا وخالي. كنت أذهب بها فجرًا مع تُجار الخضر والفاكهة، وأعود معهم عصرًا إلى «قليوب» ومعي الأجرة التي نقدني إياها «فلتة» من دون مواكسة ولا تأخير. ومع رحلاتي الأسبوعية هذه، تزحزح السكونُ عن حياتي وصارت الأوقات مليئة بالمشاهدات، والفرح بالحرية، مع بعض الإحساس بالتوجُّس. وصارت لي ذكريات. قبل رحلاتي تلك إلى القاهرة، ثم سُكناي فيها من بعد، لم يكن في حياتي إلا القليل والمتكرر: صمتُ أمي الدائم وحزنها الثقيل، ثِقَلُ زوجة خالي واستسلامها للخمود، المللُ أحيانًا من نسخ النصوص في صمت قبالة خالي الصموت، تسللُ ولديه «سليم وسليمان» ليلًا إلى حظيرة الماشية لوطء النعجات والمعزات، عبقُ الطبيخ الشهي الذي تعده لنا الخادمة «حنة» كل يومين، وصعودها بين الأيام باسمةً إلى السطح للكنس وتنظيف غرفة خالي..

كان خالي كلما صعدت إليه «حنة» يصرفني عن سطح الدار بدعوى أنني تعبت من النسخ، ويجب أن أتناول الغداء مع أمي في حجرتها، إذ لا يصح للابن البار ترك أمه تأكل وحدها. لم يكن يهتم بهذا البر بالأم، ولا بتعبي من النسخ، إلا حين تصعد «حَنَّة» عصرًا. ولمَّا تكرر منه ذلك مرتين أو ثلاثًا، حرَّضني الشغفُ فأظهرتُ له البله، وبعد نزولي من عنده تسلَّقت شجرة الجميز الواقفة وراء سور الدار، ومن خلف فروعها الوارفة رأيته يداعب حنايا «حنة» فتتمايل باسمةً بين يديه كالغصن الطري، ثم يدخل بها إلى غرفته ويغلق الباب عليهما. راقبته من فوق

الشجرة مرتين، فرأيته يفعل ذلك مع «حنة» في المرتين، ولما همستُ لأمي بما رأيتُ، أشاحتْ عني غاضبةً وغمغمتْ محذِّرةً: ما لنا صالح. تقصد أن ذلك لا يعنينا. ووعيتُ الدرس، فلم أعد من يومها أحدِّثُ أحدًا عن شيءٍ رأيته بقصد، أو من دون قصد، وصارت قاعدة «ما لنا صالح» شرعةً لي ومنهاجًا.

القاهرة مبهجةٌ، ومقلقة، ويقال إنها أكثر مدن الدنيا ازدحامًا. في ابتداء ذهابي إليها، ومع بهجتي بالخروج من الأفق القليوبي الضيق، كنتُ أقلق ممن معي من التجار الذاهبين إليها بخيرات الأرض، لأنهم أكبر سنًّا وأكثر خبرة. وعند وصولي، ومع بهجتي عند كراء حمارٍ لأركبه إلى «خان الوراقين» حيث وكالة فلتة، كنت أقلق من ازدحام الطرقات ومن نظرات الشحاذين والشُّطَّار والعَيَّارين، والعَسَس. وعند عودتي، ومع ابتهاجي بالأجرة التي نقدني إياها فلتة، كنت أقلق على ما معي من المال، وأخشى عدم اللحاق بالجماعة العائدة إلى قليوب. وقد فاتني الركبُ يومًا، فاحترتُ حينًا ثم رجعتُ ماشيًا إلى فلتة الوراق، فهوَّن عليَّ الأمر وسمح لي بالمبيت ليلتها في الوكالة، ودعاني مساءً للعشاء معه. فعل ذلك برحابة صدرٍ أثلجت صدري. لم أنم تلك الليلة ولم تنم أمي، واستبد الخوف بقلب خالي «حميد» حتى عدت إلى قليوب مع العائدين، قبل مغيب شمس اليوم التالي.

وكالة فلتة تقع بآخر خان الوراقين، وهي عبارة

عن إيوانات صغيرة غير مسقوفة يجلس فيها النُّسّاخ والمسفِّرون، مفتوحة على ممرّ يُفضي إلى حجرتين فوقهما غرفتان، يتخذهما «فلتة» لنفسه منزلًا ومخزنًا للكاغد وأدوات الكتابة وقناني الحبر. وفي مدخل الوكالة حجرة صغيرة تصلح للمبيت، لكنها لا تناسب السُّكنى الدائمة. قيل لي إن أرض الوكالة كانت في الأصل زقاقًا خلفيًا لعدة بيوت، فأغلقه أحدُ العتاة وبنى فيه، ثم باعه واشتراه «فلتة» ممن اشتراه، وجعله وكالةً لحرفته. وعبثًا حاول أصحاب الدور إعادة الزقاق إلى حاله الأول، فمنعهم عن ذلك المستولي عليه ثم المشترون، وأبقوه على ما هو عليه بالبذل والبرطلة. وقيل لي إن «فلتة» عنده، أو كان عنده، دارٌ فسيحة تطل على العرصة المعروفة بعطفة السبيل، لأن بها سبيلَ ماءٍ موقوفًا على المارين وعابري السبيل. وبتلك الدار الفسيحة، تسكن طليقته «وعد» وابنتهما التي صارت لاحقًا زوجةً لي «شهد».

على أعتاب التاسعة عشرة من عمري، يعني في مطلع السنة السادسة والستين وستمائة، راح الناسُ يتندّرون على اقتران الرقم «ستة» في تلك السنة، ويستطلعون كيف ستكون أيامها والشهور. اعتقد بعضُ الناس وفقًا لمزاعم مدَّعي معرفة الطالع، أنها ستكون سنة خيرٍ عميم. والبعضُ الآخر من الناس توجَّس من ذاك العام، اعتمادًا على تنبؤاتٍ أخرى وأكَّدوا أن «يوم القيامة» سيكون خلاله، على اعتبار أن ما وقع من الزلازل العتية سنة ستين

وسبعمائة، وتكرَّر وقوعه بعد ذلك بعامين، هو مقدمة للزلزلة الكبرى الختامية التي ستقع خلال ذاك العام، أو بالأدق في أواخره. وبهذا الفريق من الناس، وذاك، تفرَّقت السُّبل وتعارضت المساعي. إذ عمرت بالفريق المتَّقى المساجدُ والكنائسُ بأكثر من المعتاد، وقنط هناك المتقون، والآخرون من المستبشرين عمرت بهم الحمامات والمتنزهات وأماكن اللهو، واهتبلوا ما سنح لهم من مُتع.

انقضت السنة التي كانت مرتقبة، ولم يقع في العموم شيءٌ ذو شأنٍ، شرًّا كان أو خيرًا. وأما فيما يخصني، فقد كانت تلك السنة الحزينة، هي عام الموت السائر بخطوٍ هوجاء، وشهية مفجوع. كانت دار خالي قد خيَّم فيها الخمودُ بعدما خلت من صخب ولديه، سليم وسليمان، اللذين تزوَّجا تباعًا في العامين السابقين، وسكنا عند حافة الخليج حيث يعملان في صنع المراكب. كما خوت الدار وصار قلب خالي خاويًا، مع انقطاع «حنة» عن الدار فجأةً بعد سريان التهامس بأنها حبلت وملصت، وهي التي بلا زوج. ما لنا صالح. وقد استهلت تلك السنة بوفاة امرأة خالي بعد معاناةٍ مريرة، في منتصف شهر المحرم، وبعدها بقرابة شهرين مرضت أمي أيامًا ولم تعانِ طويلًا، إذ أسرع إليها الموت فتوفيت في بداية شهر ربيع الآخر. قبل وفاتها بأيام، وفي هدأةٍ من نوبات الوجع، أخبرتني همسًا بسرٍّ دفين. في هذا الحائط المجاور لدكَّة نومها، جداران، بينهما من أعلى فراغٌ فيه سبعمائة دينار محفوظة في علبةٍ من

خشب الأبنوس، والعلبة ملفوفة لحمايتها، بقماشٍ سميك مشبع بالدُّهن. هي ميراثٌ لي تركه أبي معها، وأوصاها بأن تحفظه حتى أبلغ الرشد ويصل عمري إلى سنّ العشرين فأُحسن التصرف فيه.. وبعدما أسالت دموعًا غزيرة، قالت: انقب برفق هذا الحائط، خلف الدرع الصدئ المعلَّق، تجد المال.

- ما علينا الآن من ذلك يا أمي، المهم عندي أن تستردي عافيتكِ بإذن الله.

- يا وليدي، الموت علينا حق. والحمد لله إني عشت لحد ما شفتك راجل.

بعد مرور أيام يعتصرها الألم، ماتت أمي عصرًا وهي موقنةٌ بأن مرضها كان رحمة من الله، لغفران الذنوب. أي ذنوبٍ تلك التي اقترفتها وهي التي كانت تحيا كالميتين، ولم أرها يومًا مبتهجةً أو هانئة. أظنها ظنَّت ذلك، لأنها لم تكن تصلّي، مع أنها كانت تصوم شهر رمضان من كل عام. فاعتقدتْ أنها أذنبت، وأن الله كان يحتاج صلواتها، وقد يعاقبها على تركها أو يغفر ذلك لها. أوهام. يوم وفاتها جمُدت بعيني الدموع، لكن خالي حميد بكى عليها بحرقةٍ لم أعهدها فيه، حتى يوم توفيت زوجته. واستفاق قليلًا في المساء فسألني هامسًا إن كانت المرحومة قد أخبرتني بأمر المال المخبوء لي، وعندما أومأت بالإيجاب، عاد إلى النشيج والبكاء المرير.

الدنانير مبهجةُ الشكل، وذهبها البرَّاق شديدُ اللمعان. كأنها ضُربت قبل يومين، لا عشرين عامًا، وهي من العملة المحررة التي سكَّتها «شجر الدر» خلال الثمانين يومًا التي حكمت فيها البلاد. ومكتوبٌ على وجهيها داخل دائرتين: المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل، أمير المؤمنين.. قال لي خالي حميد إن هذه الدنانير ذات قيمة عالية، ويتهافت عليها الصيارفة بسبب دقة وزنها وانضباط عيارها. ووجدتُ مع الدنانير ورقةً مكتوبةً بقلم الرقعة المعتاد، فيها رسالةٌ من أبي يقول لي فيها: ابني الحبيب «نصري» هذا المال لك لتستعين به على صروف زمانك، فلستُ أضمن أن أعينك وأرعاك بنفسي بعدما أطل علينا هذا الهول، والأعمار بيد الله، فترحَّم عليَّ واطلب لي من الله المغفرة. يا ولدي، كم أتمنى أن تهدأ الأحوال وتعود أنت وأمك من قليوب سالمًا. يا ولدي، قلبي ينفطر حزنًا بسبب افتراقك عني، لكنها الضرورة التي لا بد منها. أنت فرحتي الوحيدة في هذه الدنيا، وما عداك هو هموم وأحزان. سلمت يا ولدي من كل سوء. سلمت يا ولدي. سلمت يا ولدي.

بعد دفن أمي واستخراجي الدنانير، لم أستأمن دسَّها حيثما كانت، ولا الحفر لها تحت سريري. لأنني كرهت النوم بالحجرة وتجافيتُ عنها، فصرتُ أنام في الحظيرة التي خلت من مواشيها، بعد خلوِّ الدار من معظم آهليها. أخبرتُ خالي بفرط حيرتي فيما يتعلق بحفظ المال،

وأودعته معه ليحفظه مع الأربعين ومائة دينار التي ادَّخرتها من أجرة النسخ والتسفير، في السنوات السابقة.. وبعدما مات حماره الهزيل الذي كان يؤنس نومي بالحظيرة، دعاني خالي إلى الإقامة في الغرفة السطوحية المجاورة لغرفته، فأمضيتُ هناك فترةً مديدةً. مُملة. ليس فيها إلا الصمت ونسخ الكتب، وسيلان الذكريات. كان خالي إذا كلَّت يده وأنهكه العمل، يميل بظهره إلى الوراء ويستحضِر من ماضيه الذكريات، على عادة كبار السِّنِّ الذين يحبُّون عند اقتراب النهايات، استدعاء البدايات. حكى لي كثيرًا عن طفولته، وعن العزِّ والعزَّة والمكانة المرموقة التي كانت لأبي وعائلته بالصعيد، قبل جريان المقادير والمآسي.

كانت تؤنسني حكاياته وتنقل خيالي إلى ناحيةٍ مريحة للروح، حينًا، حتى تعود بي إلى البؤس المعاصر، عبارات مثل: ثم احترقت تلك البيوت.. ومات هؤلاء أو تشرَّدوا في الأرض وانقطع خبرهم.. رحم الله الجميع. وكان كثيرًا ما يختتم كلامه عن الذكريات القديمة، بقول أبي تمَّام المشهور: ثم انطوت تلك السنون وأهلها، فكأنها وكأنهم أحلام.

وفيما عدا تلك الأوقات المؤنسة بالحكايات، كنت إذا مللتُ من نسخ الكتب، أقضي الساعات عند سور السطح محدِّقًا في الفراغ من فوق في أنحاء الدار الخاوية، والحوش الخالي إلا من بعض الدجاجات. صرتُ أيامها أميلُ إلى

الكسل والخمود، وأنزعج من زيارات ابنَي خالي، ومن الصخب المصاحب لهما، والبلاهة. ولم أعد أحب زياراتي إلى القاهرة، مثلما كان حالي سابقًا، إذ ليس مع التكرار ما يدعو إلى الدهشة أو الشغف أو السلوان. النسمةُ الوحيدة التي كانت تمرُّ عليَّ في هجير تلك الفترة الفاترة، معدومة الطعم، هي زيارات ابنة خالي «سلمى» التي ظلت تزداد مع مرور الأيام جمالًا ومع امتلاء جسمها حُسنًا وسحرًا، وفتنةً آسرة.

ومع توالي الشهور والأعوام، خمد خالي «حميد» وازداد نحوله وصمته، وعطبت ساقه، فلم يعد قادرًا على الحركة إلا بمعونتي. واقتضى الحال وجود خادم في الدار، فجلب لنا زوجُ «سلمى» من ناحيةٍ قريبة شابًّا أبله، حاله معكوس اسمه «نجيب»، فكان هذا المسكين يجتهد في تأدية الأعمال، بمقدار ما يسمح له فَهْمه الشحيح، ويسهر طيلة الليل على سطح الدار ليُعين خالي، وقتما يحتاج إليه لقضاء الحاجة أو غير ذلك. مسكين. كان راضيًا بحياته وأحواله بحيادٍ تامّ، فلا يفرحه شيء ولا يشكو من أي شيء، ولا يُحادث أحدًا لم يتحدث إليه. وفي كلامه تأتأةٌ وثأثأة. لماذا يخلق الله أمثاله من المساكين والمعوَّقين، والمولودين بعيوبٍ خلْقية؟ وهو ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾.. أين الحُسن في ذلك.. وأين الحكمة؟

دامت تلك الفترة ثلاثة أعوام وبضعة شهور، ثم لاحت

إلى خالي في الأفق أمور، فنصحني بالإقامة في القاهرة وشراء منزل هناك. كأنه أحسَّ باقتراب أجله. أخبرني بأنه كتب إلى «فلتة» رسائل، يسأله فيها معاونتي في الاستقرار بالقاهرة، فأبدى الرجلُ الطيب ترحيبه بذلك، وطمأن خالي مؤكِّدًا له أنه يحبني كما لو كنت ولده. كنت أحمل بينهما تلك الرسائل، من دون أن أدري بما فيها.

بعدما انعقد العزم، تأخر ذهابي للإقامة في القاهرة بسبب الوباء الذي فسد معه الهواء سنة اثنتين وسبعين وستمائة، فأنشب الموتُ مخالبه في عدد كبير من الناس هناك. وكان أغلب ضحايا تلك الجائحة من النساء والأطفال، وقد بلغت ضراوتها إلى الدرجة المفرطة التي عسُر معها دفن الجثث، لكثرتها وقلة الأصحاء وفرط خوفهم. ثم رفع الله البلاء عن البلاد والعباد، بعدما ذاقوا الويل. فلم يسأل أحدٌ، ولم يُعرف، لماذا أرسل الله الوباء؟ ولماذا رفع عن البشر البلاء؟ وما الحكمة في أن يُخلق الأطفال، ثم تحصدهم الجائحة؟.. ليس هناك سببٌ يبرر قتل طفل.. فأين تكمن الحكمة من وراء ذلك، وأين يتوارى المعنى عني؟

ما لنا صالح.

ذهبتُ إلى القاهرة بعد انتظام الأمور مجددًا والتزمتُ بنصيحة خالي حميد، فسترتُ عن الناس أصولي وبقيت عندهم «سفير بن عبد الله القليوبي، الناسخ» وظللتُ دومًا هادئًا ومجاملًا ومهادنًا، ومؤثرًا للانزواء طلبًا للسلامة. وقد برَّ «فلتة» بما وَعَد به من الاهتمام، فأقامني لعدة أشهر

بأصغر الحجرتين اللتين يعيش فوق سطحهما، وأجلسني للنسخ مع ألطف العاملين معه وأكثرهم أدبًا «يحيى بن خلف» فكان لي خيرَ رفيق، وأفضلَ معين. كما كان «فلتة» يشجعني على الخروج بعد الغروب للتجوال في القاهرة، التي لا تهدأ ولا تنام، لأتعرَّف على ما أجهله من جوانب الحياة فيها. فكنت أجوبُ بها ناظرًا بعين المقيم، لا الزائر القروي، فأرى من محاسنها ما يوقع القلوب في شباك سحرها، وميلها للمرح واغتنام مُتع الحياة.

أهل القاهرة أكثر مهارة من سُكان الريف، ونساؤهم أرق من مثيلاتهن بالقرى، وأميلُ منهن إلى الميوعة والممازحة. عيون القاهريات جريئةُ النظرات، وهنَّ لا يتورَّعن عن مشاغبة بواطن الرجال في الأسواق والقيساريات. كنتُ أغضُّ بصري عمن تحادثني منهن، مُظهرًا الأدب المشجِّع لهن على التمادي، وفي هدأة منتصف الليل أجلبهنَّ إلى فراشي بقوة الوهم، فأنال منهنَّ ما أشتهيه ولا أجرؤ عليه جهارًا، فيطيبُ نومي بعد خمود الفوران. وفي الفجر أغتسل.

وأتقنتُ تلك الحيلة مع مرور الوقت، فصرتُ أنتقي ممن أراهنَّ أو أتحدث إليهنَّ، الحسناوات، خليعاتٍ كُنَّ أو متحفِّظات. فإذا جاء الليل استحضرتها إلى سريري بقوة الخيال، فأُخضعها لما أشتهيه.

وهكذا ملكت بقوة الوهم كل النساء، دون أن يدري بي أحدٌ، ودون أن أقترف إثمًا فعليًّا أو أخرق الحد. وبعيدًا

عن تلك المغامرات المستترة، تعلمتُ في القاهرة مهارات لا حصر لها من فنون الوراقة وصناعة الكتب، إذ كان العاملون بالوكالة مهرة وبارعين في عملهم. وفي ابتداء إقامتي بالقاهرة، ربطت الصداقة بيني وبين «يحيى بن خلف» إذ كان أقرب العاملين بالوكالة إليَّ، طبعًا وخُلقًا ومجاورةً على طاولة النسخ. هو هادئ دومًا وميالٌ للصمت، فلا يكاد يتكلَّم مع أحد ابتداءً، لكنه يتجاوب بمودة مع مَنْ يتحدث إليه. وحتى من حيث المظهر، كنّا متشابهين في الاسمرار وطول العنق والقامة، وقوة الكتفين، فكان كثيرون يظنون أننا إخوة أو أولاد عمٍّ، مَن أهل الصعيد. ومن يدري؟ فربما هو من أقاربي، لكنه يستتر هو الآخر ويخفي أصوله، مثلما أفعل.

ومع أن «يحيى بن خلف» خلوقٌ بشوشُ الوجه، ويبتسم بودٍّ حين أحادثه. إلا أنه نادرًا ما يضحك بصوتٍ عالٍ، وإذا فعل ذلك يُخفي فمه بطرف عمامته، كأنه يخجل إذا ضحك. بعد بدء عملنا معًا، بأسبوعين، انفجرنا معًا ضاحكينِ حين دخل علينا الوكالة رجلٌ من المجاذيب، وراح يصيح: يا قوم، أنا المهدي المنتظَر، أنا نبيُّ آخر الزمان.. تحلَّق حوله العاملون بالوكالة وأخذوا يشاغبونه ويتضاحكون منه، حتى انتبه «فلتة» إلى اللغط، فنزل إلى المجذوب وأمسكه من جيب جلبابه، وسأله ساخرًا: من أنت يا رجل؟

- أنا المهدي المنتظَر..

- نحن لا ننتظر أيَّ مهدي، فاذهب من هنا.

تصايح المجذوب بقوله المثير للضحك: أهكذا تُكلِّم آخر الأنبياء؟ فقال له فلتة: أنت نبي، فما دليل نبوَّتك؟ قال الرجل وهو متشنّجٌ وعيناه تطاردان طيورًا لا نراها: أنا أعلم الغيب، وأعرف ما تخفيه في نفسك، وأنت لا تعرف ما أخفيه في نفسي، وأعرف أن اسمك «فلتة الوراق».

- كل الناس تعرف اسمي، فأخبرني بما أخفيه في نفسي.

- في نفسك أني كذاب.

- صحيح. وما الذي تخفيه في نفسك، ولا أعرفه؟

- في نفسي أن تعطيني درهمين، فأشتري طعامًا وأكف عن إزعاجك.

- ولا تعود مجددًا وإلا وجدت العصا.

- لن أعود أبدًا، أعطني الدرهمين، ولو جعلتها ثلاثة فلن أعترض.

* * *

وعندما علمتُ من بعض العاملين معنا بالوكالة، أن «يحيى بن خلف» متزوج من امرأتين، ويسكن معهما في منزل واحد. سألته عن صحة ذلك، فأومأ برأسه مؤكدًا ولم يعقِّب، وبعدها بشهرٍ أخبرني في هدأة الظهيرة، ونحن نتناول طعام الغداء. أنه لم يكن متحمسًا للزواج فلم يُقدم عليه إلا بعد وفاة أمه، وكان آنذاك في الثالثة والعشرين من عمره. هو يكبرني بخمسة أعوام أو ستة. فلما نوى أن يقترن بفتاةٍ من جيرانه، يتيمة، عرف منها أن لها ابنة عمٍّ كبرت معها، كأنها أختها. قالت له: هي مليحة وطيبة، وبلغت من عمرها العشرين دون زواج، ولا مانع عندي إذا أردت أن تتزوَّجها أيضًا، ونعيش في منزل واحد.. قلتُ له وقد اعتراني الاندهاش:

- هذا مطلب غريب، وبخلاف المعهود من النساء.

- نعم، ولكنها الضرورة والاضطرار، كانت كلتاهما بلا حيلة وبلا عائلٍ، بخلاف المعهود، المؤدي إلى خلاف المعهود.

- وهل طاب لك العيش مع زوجتين؟

- لا بأس به، ولكن حمله ثقيل.

ألهمني الاقتران بامرأتين بتوهُّماتٍ ليلية هنية، وأعطاني التوهُّمُ ألذ اللحظات، ونشط خيالي مع مرِّ الليلات.

معاونةً لي وبِرًا بوعده، ظل «فلتة» يستخبر عن الدور المناسبة التي برسم البيع، حتى أوجد لي منزلًا لطيفًا من

طابقين يقف على ناصية حارة النحاسين. فاشتريته بما فيه من متاعٍ وأثاث، بثمانين وستمائة دينار، وأنفقت خمسين دينارًا على تجديده وتجهيزه للسكنى، لأنه كان خاويًا ومغلقًا منذ عامين. والبيوتُ تأسى، إذا ذهب عنها السُّكان.

راح قلبي يرفُّ فرحًا بالدار التي صارت لي، خصوصًا بعدما أكملتُ إصلاحها. حتى إنني كنتُ أجلس في فنائها قبل الغروب، وبعد الفجر، وأتأمَّل جنباتها على مهلٍ مبتهجًا ومحدِّثًا نفسي بأن البنَّاء الذي أتقن تشييدها، كان عاشقًا وماهرًا في حرفته، لا محالة. فهذه النوافذ الكبيرة والنقوش المؤطرة لها، والأسقف العالية، والمدخل الواسع المقرنص أعلاه. صنعةُ عاشق أو محب. ولابد أن الذين عاشوا من قبلي بهذه الدار كانوا سعداء، فالجدران والدَّرَج الداخلي والشجرة الكبيرة بالفناء الداخلي، كلها تشي بذلك وتدل عليه. كيف طاوعتهم قلوبهم على الانتقال إلى مسكن آخر؟.. ربما كثُر عددهم فضاق عليهم المكان، وربما وجدوا لأنفسهم دارًا أجمل وأرحب. ولكن هذه عندي، هي أجمل وأرحب الدُّور، لأنها داري.

لم يشوِّش عليَّ سعادتي في تلك الأيام، إلا توجُّسي وقلقي من انكشاف أمري، وبطش المماليك بي إذا عرفوا أصولي وصلتي بالأمير «ثعلب» وثورته التي أُخمدت نارها فأمست رمادًا راح مع الرياح. خنع المصريون للمماليك، وأعطوهم الطاعة عن يدٍ وهم صاغرون، مغلوبون على أمرهم. وأنا مثلهم على أمري مغلوب، وفي بحر مخاوفي

غارق.. كل الثورات تنتهي بالأبرياء إلى هاوية الخراب والويلات، ثورة الزَّنج، ثورة الحسين، ثورة المختار الثقفي، ثورة البشموريين. وفي كل مرة يغلب الظالمون الثوار، لأن الأعتى أقوى من الأنقى، ولأنه لا شيء له معنى حتى يستحق الثورة من أجله.

ما لنا صالح.

خلال شهور إقامتي بالوكالة، والشهرين اللذين أعدتُ فيهما الرونق للدار المشتراة. اشتريت بغلةً فتيةً وبردعة، وكنت أواظب على زيارة خالي أيام الجمعة، فأواسيه فيما يعانيه وأحزن عليه ومعه، وهو يذوي رويدًا ويتهيأ للموت. وأثناء تلك الزيارات التي انقطعت بعد موت خالي، قابلتُ ولدَيه سليم وسليمان مرةً واحدة أو مرتين، لأنهما انتقلا للعمل بثغر دمياط وأقاما هناك، وأهملا تمامًا رعاية أبيهما حتى بعدما انقطع «نجيب» الأبله، بلا سبب، عن الخدمة في الدار كأنهما لم يسمعا قط، بشيءٍ اسمه بر الوالدين، ولم يَرَيَا من أبيهما المسكين خيرًا يستوجب ردَّ الجميل. ما لنا صالح.

لكنني كنتُ ألتقي في كل زيارة لقليوب بابنة خالي «سلمى» الحنون، البارّة بأبيها المخلصة في خدمته، فأجدها كل مرةٍ قد غدت أجمل من ذي قبل وأكمل بنيانًا، وأشهى. زوجها كان يأتي معها أحيانًا لكنه لا يطيل البقاء بعد الغداء، فتدور بيننا الأحاديثُ وأحكي لها عن الحياة بالقاهرة. هي تأنس لهذا الحكي وتحبه، لأنها تتمنى

أن تذهب لزيارة القاهرة، لكنها لا تجد إلى ذلك سبيلًا. يؤنسني الحديث معها، وخصوصًا ساعة العصر حين تجلس مستريحة وتترك شعرها مكشوفًا ومرسلًا على سجيته، ولا يكون معنا ثالث. فترقُّ حينذاك نبرةُ صوتها، وتصير بنعومة الحرير. في مرةٍ كنا وحدنا، بحوش الدار نتسامر باسترخاء سكان الجنَّات، وكانت ابتسامتها البيضاء تملأ روحي إشراقًا. وفي غمرة هذا الصفاء الرائق، سألتني عن السبب في إحجامي عن الزواج مع أن عمري بلغ الخامسة والعشرين، واكتملت رجولتي. هكذا قالت. وبلا تدبُّر، اندفعتُ وأجبتها بما جعلها تُطرق لحظةً، ثم تنهض من أمامي مضطربة البال. قلتُ: لأنني لا أشتهي زوجةً غيركِ، ولم أجد يا سلمى مَنْ تُشبهكِ.

صرنا من بعد ذاك اليوم، نتواصل بنظرات العيون ثم بالبسمات الخفيفة، الخفية.. وفي آخر مرةٍ زرتُ فيها «قليوب» سار اليومُ مساره المعتاد، وساعة العصر غلب النعاسُ خالي، وراحت ابنة «سلمى» تلعب في الحوش مع أخيها الأصغر منها، ويطاردان الدجاجات حتى أجهدهما الجري فناما. بقيتُ منفردًا مع «سلمى» بعدما نام الكونُ من حولنا وعمَّ السكون، وبعد نظرةٍ طالت بيننا، كسانا الحرجُ واضطرب قلبانا فشعرنا بالخطر الداعي للابتعاد عن بعضنا البعض. مع أنني أحب البقاء معها، وهي مستريحة بل ميَّالةً لبقائي بقربها. عيناها أفصحت عن ذلك، ولكن ذلك لا يصح، ويبشِّر بخطرٍ وينذر بمتعةٍ محرَّمة.

قمتُ إلى حجرة أمي القديمة لأحزم حاجياتٍ كانت متروكة هناك، للذهاب بها إلى القاهرة. لحقتْ بي «سلمى» وكالشجرة المزهرة المثمرة بمحظور الاشتهاء، وقفتْ بقوامها الخلاب عند باب الحجرة، وراحتْ تنظر في عمق عيني وجوف قلبي، دون أن تنطق بشيء. فما كانت تحتاج إلى أي حديث مسموع، ولا كنت أحتاج، فالوصال بلا كلامٍ منطوقٍ أشهى. تركتُ ما كان بيديّ من ملابس قديمة يسقط على الأرض بين قدميَّ، ووقفت أحدِّق فيها داعيًا إياها باشتهائي المعتَّق، إلى طرح الحذر ومسِّ الخطر.

سكن الكونُ من حولنا تمامًا وتوقف الزمانُ عن الجريان، وفي داخلنا اشتد ثوران البركان. تقدَّمتْ نحوي خطوتين، وقد تزايد خفقانُ صدرها الناهد الناهض بالقُبَّتين، فاهتز بهما رداؤها الأسود البراق، واشتدَّ إشراقُ الشهيِّ المكشوفِ من أعالي صدرها، ومن منبت عُنقها السامق. تقدَّمتُ نحوها خطوةً، فاستدارتْ وغلَّقتْ علينا باب الحجرة. تقاربنا حتى التصقنا وفار التنور. طرحتْ عنها رداءها الأسود فسطعت شموس جسمها السامق، الفاتن، فأخذني ما يشبه الدوار من فرط سحرها، وعنفوان اشتهائي. قال لسانُ حالها «هيت لك» ولم أَرَ برهانَ ربي فلم أستبق الباب، بل أسرعتُ إلى خلع قميصي وكل ما يحول بيننا، وبلا هوادةٍ نهلتُ بشفتيَّ من بحيرات حُسنها الواهب، متحرقًا بقوةِ ما استطال فيَّ من التوق إليها، ومن الحرمان منها. استسلمتْ ثم استجابت، كأنها تعطي بيد الرضا زكاة

جمالها لمحروم. فاتَّقدتْ بيننا النيرانُ واشتعلت الارتعاشاتُ وتوهَّجت مع التماسِّ، فلم يخمد لهيبُ نارنا الهوجاء إلا بعد ولوج الجنة وتمام النوال.

في الحياة لحظاتٌ سحرية لا تُنسى، ولا تتكرر.. فوق ظهر البغلة المسرعة بي على طريق عودتي إلى القاهرة، راح يعربد بصدري وجيبٌ غريبٌ لا عهد لي به، ويمسُّ وجهي نسيمٌ معطرٌ عجيبُ التأثير، يتبعه خدرٌ لذيذ يسري من كتفيَّ إلى جانبَي صدري إلى سطح فخذَيَّ. أبهجني أنني بعد طول مواتٍ وعيشٍ مقنَّع مع الخيالات الليلية والتوهمات، صرتُ في أرض الحقيقة رجلًا. وأدهشني أنني لا أشعر بارتكاب ذنبٍ أو اقتراف إثم، بل وددتُ لو أعود من منتصف الطريق، فأجدها حيث تركتها، وأعيد ما فعلته مراتٍ ومرات.. ماذا جرى لي؟ ما عدتُ الشاب الذي نشأ في طاعة الله، فأستحق البشارة بالجنة، حيث يستظل من بعيد بظلالها، صرتُ الرجل الذي دخل الجنة وعبَّ من نعيمها دفعةً.. ماذا جرى لي؟ كأن عفريتًا غير مفزعٍ، كان ينامُ بأعماقي الغائرة من دون أن أدري بوجوده، وحين انقدح شرار الوصال، ثم اندفق ماءُ النوال. راح يعربد بداخلي، ويريد المزيد.. ماذا جرى لي؟ لا شيء، نلتُ ما تمنيتُ. ولن يعوقني بعد اليوم عن النوال عائقٌ، سأكون مثل غيري من سعداء الناس. لن أتهيَّب، ولن أحرم نفسي من سحر النساء بعد اليوم، ولن أصبر مجددًا على الحرمان. فمن ذاق لذة الوصال، لن يستطيع

الصبر عند عدم النوال.

قبيل وصولي إلى القاهرة محلِّقًا بأحلامي من فوق ظهر بغلتي، رأيت أسرابًا وفرادى من الطيور الملونة بديعة التغريد، المهاجرة إلينا من بلاد الغال والقوط والصقالبة. هي في مثل هذا الوقت من كل عامٍ، لتنعم بالدفء بعيدًا عن صقيع البلاد الشمالية. أشعرني ابتهاجها باحتياجي الجارف إلى الدفء، وأوحت لي بفكرةٍ، فذهبت فور دخولي القاهرة إلى «فلتة الوراق» لأعرض عليه فكرتي المبهجة. ومن حسن الطالع وجدته جالسًا وحده على سطح الوكالة يحسو من كأسه، وعليه من علامات الرضا والارتياح رايات. تهلل مرحبًا بي، فأخبرته من دون تمهيد بأنني أفكر في شراء جارية، أو اثنتين، لأرتاح من تحرُّقي واحتياجي المُلحّ إلى المجامعة. ضحك عاليًا وهو يقول لي: أيش فعلت اليوم بقليوب يا سفير، أيش فعلت؟ صارحني..

متلعثمًا، ومراوغًا، همستُ إليه بأنني أثناء عودتي من هناك مررت بامرأةٍ مليحةٍ أعرفها، وانفردنا فكان الشيطان ثالثنا. ضحك من قلبه بصوتٍ أعلى، ثم شدَّ على صدره جانبَي عباءته وبطرفها مسح عن عينيه دموع القهقهة. وبعدما استعاد هدوءه نصحني بصرف النظر عن جلب الجواري، وبأن أكتفي في رعاية داري بخادمتي العجوز الطيبة. يقصد «فهيمة» التي تعدّ لي الطعام، وتقوم بالأعمال المنزلية. قال برويةٍ إن اقتناء العبيد والإماء سوف

يسبّب لي مشكلات كثيرة، فبلاياهم لا آخر لها، وأنت تعيش بمفردك ولا يمكنك الاطمئنان إليهم، وأراك الآن في سنٍّ مناسبة للزواج والإنجاب، وفيما بعد يمكنك التسرّي وقتما تملُّ من مجامعة زوجتك.. وختم حديثه إليَّ بقوله: لا تتعجل فتندم.

تضايقتُ من كلامه المعقول المخالف لهواي ولم أشأ الإياب مبكرًا إلى داري الخاوية، فمررتُ من أمام منزل صاحبي الوحيد «يحيى بن خلف» وفرحتُ حين وجدته جالسًا عند الباب مع ولديه، كأنه كان ينتظرني. رحّب بي، وبعد أن أدخل صغيريه إلى المنزل سألني إن كنت جائعًا فيحضر لي شيئًا لآكله، فقلتُ بلا خجلٍ إنني شبعان من الطعام، ولكن بي جوع إلى النساء. ضحك وهزَّ رأسه مرتين قبل أن يورد على مسامعي الحديث المشهور: «مَنْ استطاع منكم الباءة فليتزوج».. قلتُ له: أريد الزواج باثنتين، فلن تكفيني واحدة.

ـ ما بك اليوم يا سفير؟ يا أخي، تزوَّج أولًا بواحدة، ثم انظر إن كنت ستحتاج لأخرى أم لا.

ـ ولماذا لا أفعل مثلك؟ فأنت سعيدٌ مع الزوجتين.

ـ سعيد! مَنْ أوهمك بأنني سعيد؟

ـ هدوؤك، ورضاك..

ـ هي ظنونك وتوهماتك يا سفير. والرجل إذا أراد الزواج، فعليه أن يقنع من النساء بواحدةٍ. اكتفاءً بأهون

الشرور، حسبما يقول النصارى.

كلامه المتحفِّظ المخالف لهواي، حيَّرني وأيقظني من وَسَن الأمنيات المبهجة. فعدتُ من عنده إلى داري متجهِّمًا مشغول البال، فأرقتُ ثُلثي الليل ولما غفوت في الثلث الأخير، صحا عفريتُ المتعة مجدَّدًا وراح يعربد بداخلي بلا أدب. ولما أخذتني مني وَسْناتُ الكرى، رأيتني أغوص بلا عائق في حضن «سلمى» العميم، ثم رأيتني أجامع امرأةً شقراء لمحتها قبل يومين في السوق، ورأيتني أتسلل ليلًا إلى الحظيرة القديمة مع ولدَي خالي ونقضي الوطر في صبايا متحرِّقات. ورأيت نفسي في جنةٍ، تحوطني الحور العين، عاريات.. هوس.. لما انتبهتُ من غفوتي فجرًا وجدتني قد احتلمتُ، فأسرعتُ إلى ماء الغُسل غير آبهٍ ببرد البواكير، وقبل ذهابي إلى عملي بالوكالة جاءت خادمتي «فهيمة» وسألتني فور رؤيتها لي، عن سبب احمرار عينيَّ وامتقاع لوني. أخبرتها بأنني أرقت طيلة ليلتي، ثم تحدثتُ إليها فيما يشغلني، لثقتي في أنها امرأةٌ حكيمةٌ بحكم سنِّها القريبة من الستين، ومخلصةٌ بحكم ما رأيته منها خلال الأشهر الثلاثة السابقة. قالت لي برفق الأمهات إن الزواج واجب عليَّ، ولا معنى لتأجيله أكثر من ذلك. واقترحت عليَّ خطبة «محفوظة» ابنة جارنا بالجنب، الفقيه «عبد الله بن إسماعيل» الملقَّب بين الناس بالفارض، لأنه مختص بكتابة فروض النساء على الرجال عند الزواج. وهو أيضًا معلم صبيان، وإمام زاوية قريبة من سوق النحاسين،

ومعروف بين الناس بالفضل. «فهيمة» قالت إن الرجل أحسن تربية ابنته، فصارت تحفظ القرآن، ولا تفوِّت صلواتها عن ميقاتها. فهي تقيةٌ نقية، وهادئةُ الطباع، وسنها مناسبة للزواج.

ـ لكنها نحيلة..

ـ البنتُ يا سيدي تسمن بعد الزواج، وتصير أجمل.

ـ سأفكر في الأمر. المهم الآن، ماذا ستطبخين اليوم؟ ليته يكون طجين اللحم بالبصل، فإني أشتهيه.

أعرفُ جارنا «عبد الله الفارض» وزوجتيه الكبرى المريضة والصغرى المليحة. وابنته «محفوظة» رأيتها عدة مرات، وتحدثت إليها مرةً حين دعاني قبل أسبوعين مع الجيران إلى عقيقة وليده من زوجته الصغرى، الأجمل من ابنته النحيلة «محفوظة» البالغة من عمرها قرابة خمسة عشر عامًا. عندما تكلَّمتُ معها لاحظتُ أنها نجولٌ حيية، وما عدا ذلك لم أجد فيها ما يميزها عن عموم البنات، أو يثير الشغف بها.. مَرَّ عليَّ اليومُ بالوكالة هادئًا، ولكن ذهني كان مشغولًا ومتحيرًا، وباطني مهتاجٌ بالاشتهاءات والمشاعر الغامضة، وأثر العربدات المنامية. ساعة العصر شعرتُ برغبةٍ لحوحٍ في النعاس، فعدتُ إلى داري قبل الموعد المعتاد، وبعد الغداء نمتُ وطال نومي. وخلا من الأحلام.

صحوتُ صباحًا على غصةٍ في صدري، وجفافٍ، كأن

ببطني أحجارًا. وفي رأسي دوارٌ مؤلم. شردتُ على سريري ساعةً، تسرَّب خلالها إلى نفسي الأسف والإحساس بفداحة ما اقترفته. ما هذا الذي فعلته مع «سلمى» وكيف فرحتُ به؟ كأنني كنت سكرانًا مسلوب العقل. خنتُ خالي الذي ربَّاني، وخنتُ حُبِّي البريء لابنته، المتزوجة، وخنتُ أسرتي كلها في لحظة تحرُّقٍ محموم.

الهمُّ غلبني فنمت مجددًا لأهرب مني، وبقيت طيلة يومي حبيس الدار غارقًا في الهم والندم. وبعد يومين، وقبل انصرافي عصرًا من العمل استدعاني «فلتة» إلى شرفته المطلة على إيوانات الوكالة، وكان عنده صاحبه «ابن الوحيد» وعلى مسمعٍ منه طلب مني «فلتة» وهو يضع في كيسٍ من قماش الكتّان أربعين دينارًا، عدَّها علانيةً، أن أمرَّ في طريق عودتي إلى داري، بمنزل طليقته «وعد» وابنته «شهد» وأترك لهما هذا المال برسم النفقة.

وافقتُ مع استغرابي من طلبه هذا، وأخذت منه الكيس، وفي طريقي إلى عطفة السبيل سألتُ «يحيى بن خلف» وكان يسير معي عائدًا لمنزله، عن سبب إرسال المال معي وحرص «فلتة» على عدِّه ببطءٍ أمام صاحبه وأمامي. فقال من دون اكتراث: لتكونوا شهودًا له إذا أنكرتْ طليقته أنها حصلت منه على نفقتها هي وابنتها.. وكنت قد سمعت سابقًا من «يحيى بن خلف» ومن غيره أن طليقته «وعد» هذه، امرأةٌ شرسة الطباع وميالة للمنازعات. ما لنا صالح.

وصلت إلى مقصدي واستكمل «خلف» سيره على ظهر حماره الهزيل، رافضًا بلطفٍ أن ينتظرني حتى أنتهي من إيصال الأمانة. قيَّدتُ بغلتي أمام الباب وطرقته مرتين، وحين انفتح أطلَّت شمسٌ حسناء. تُبهر الألباب ابتسامتها، ويسحر الأعين قوامها الملفوف بثوبها المنزلي الملون، المحكم. الأثواب المنزلية فيها سرٌّ يؤجّج ثوران الأنوثة. أخبرتها بأنني من طرف «فلتة الوراق» فأخبرتني بأنها ابنته «شهد» وبأن أمها تعود جارةً لهما، مريضة. أعطيتها ما أرسله أبوها، فاستبقتني لدى الباب لترسل معي لأبيها طبقًا فيه حلوى عيد الفطر، فبقيتُ بموضعي وسارت إلى داخل الدار بخطواتٍ وئيدة، وتمايلٍ خفيفٍ. خفق قلبي مع حركة قبَّتي قوامها، الأملودي، مُتقن التكوين. هي ليست بدينة بالقدر الذي أهواه، وليست نحيلة على النحو الذي أعافه وأتوقَّاه. سبحان الخالق. قبل أن تعود بالحلوى، رجعتْ أمها للمنزل وسألتني عن سبب وقوفي عند بابها المفتوح. وحين أخبرتها، رحَّبت بي بحرارةٍ داعيةً إياي للدخول إلى حجرة الضيوف، حاولتُ الاعتذار فأبتْ قبوله، مؤكِّدة أن وقوفي بالباب لا يصح. فدخلتُ. هي لا تبدو لي شرسةً، حسبما وصفها صاحبي «يحيى بن خلف» وغيره، وأظنهم يظلمونها أو لا يعرفونها، فيهرفون بما لا يعلمون.

حين طرحت عن كتفيها العباءة الخفيفة، في غرفة الضيوف، وأزاحت عن رأسها السِّتر الأسود. بدت مليحةً وسمحةَ القسمات، والبسمات، وليست حادة الطباع ولا

ميالة إلى المنازعة. هي في حدود الأربعين من عمرها، وقوامها ممشوق كالفتيات الحسناوات. تساءلتُ في نفسي مستغربًا ومستنكرًا: ألم يكن «فلتة» محظوظًا بزواجه من امرأةٍ جميلة كهذه، فلماذا طلقها؟ وأجبتُ على ذلك بأن القلوب تتقلَّب، وبأنه لا شأن لي بذاك السؤال ولا هذا الجواب. ما لنا صالح.

بصوتٍ رقيق قالت لتؤنسني إنها سمعتْ سابقًا عني، وكانت تتوق لرؤيتي، فشكرتها. وباسمةً استخبرتْ مني عن أحوال بعض العاملين القدامى بوكالة فلتة، فأجبتها. ثم أشرقت الشمس داخل الحجرة من جديد، وفي يدها طبق الحلوى مغطى بقطعة قماش مطرَّزة الحواف، فتهيَّأتُ لأخذه من «شهد» المشرقة والانصراف به، لولا أن أمها قالت بمودةٍ وكَرَم إن الوقت تأخر على عودتي بالحلوى. فهذا الطبق هديةٌ لي، وصباح غدٍ أمرُّ عليهما في طريقي إلى الوكالة، لآخذ إلى «فلتة» طبقًا آخر. تلعثمتُ خجلانًا وأنا أحاول الاعتذار، فأصرَّت، وكشفتْ غطاء الطبق عن الكعك المطيَّب بالسكر الناعم، وقراطيس الكنافة المحشوة بالزُّبد المخفوق مع الجُبن الحلو، ودعتني بدلالٍ لتذوّق قطعة. ترددتُ لحظةً ثم أخذت القطعة من يدها الممدودة نحوي، وقضمتُ منها. برفقٍ يليق بضيفٍ لطيفٍ، يزور سماءً فيها شمسٌ وقمر يجتمعان. طعم الحلوى شهي. قلتُ ذلك، فقالت إن «شهد» هي التي صنعتها، ومدَّت لي قطعة أخرى فأخذتها بغير تردُّد، وشعرتُ بها في فمي ألذَّ من

السابقة، وأشهى.

نهضَت الأمُّ المليحةُ لتحضر لي كوب ماءٍ، وبقيت البنتُ الحسناء جالسةً قبالتي تنظر إليَّ بعينين تلمعان، وشفتين تبتسمان برقةٍ آسرة. كسرتُ غلالة الصمت بأن سألتها إن كانت تعرف القراءة وتحب الكتب، فقالت بانكسارٍ يُسيل جدران القلب بأنها تحب الكتب لكنها لم تجد مَنْ يعلّمها، وطلبت ذلك من أبيها مرات، فلم يستجب لانشغاله بعمله.. دخلت أمها بالماء وهي تقول ذلك، فعقَّبتْ بما لم أتوقعه: ليتك يا سفير تعلِّم «شهد» القراءة والكتابة، إن كان هذا لا يضايقك..

- بالعكس، هذا يسعدني. وإذا جاءت «شهد» إلى الوكالة، كل يومٍ ساعة، ابتداءً من يوم غدٍ..

- لا، الوكالة مكان مزدحم وغير مناسب، علِّمها هنا أفضل.

- حاضر. غدًا أستأذن من المعلم «فلتة» في ذلك، وإذا وافق فسآتي إليها يوميًّا بعد انتهائي من العمل.

- سيوافق.

صبيحة اليوم التالي وكان يوم أَحَد، صحوتُ مبكرًا وصعدت إلى سطح داري لأفطر في الهواء الطلق، فهذا لطيفٌ في أيام الخريف القاهري. بديع الصفو. وجدت جارتي الصغيرة «محفوظة» بنت الفارض، تنشر الغسيل على سطح دارهم الملاصقة لداري من خلف. البنتُ

نظرتْ نحوي بحبورٍ، وابتسمتْ، لحدستُ من فوري بأن خادمتي «فهيمة» تجاذبت معها أطراف الأحاديث الواعدة. وعندما صعدتْ إليَّ «فهيمة» مستبشرةً، كان بين يديها طبقٌ من الفخار فيه كعكُ الأعياد. وضعته أمامي فوق الطاولة وهي تقول إنه هديةٌ من بيت الفارض، فعرفتُ أن «فهيمة» تكلَّمت مع البنت، ومع أبيها. ابتسمتُ حين رأيت الكعك، وقلت لخادمتي الطيبة أن تدَّخره لوقتٍ آخر، وقلت لنفسي: ها قد جاء زمن الحلوى والحلوات.. وأفطرتُ بكنافة «شهد» اللذيذة.

في الوكالة، أخبرتُ «فلتة» ساعة الظهيرة بما طلبته مني ابنته وأمها، فردَّ بلا تردُّد أو تفكير بكلمةٍ واحدة: لا بأس. لعدَّة أيامٍ تالية، كنتُ بعد انتهاء عملي بالوكالة أعرِّج عصرًا على «شهد» في بيت أمها، لأعلِّمها كيف تقترن الحروف في الكلمات، وتعلِّمني هي كيف تقترن القلوب بالسعادة. هي فتاةٌ خفيفةُ الظلِّ، وذكية، وسريعة الاستيعاب، وتميل بطبعها إلى المزاح والمرح البريء، وغير البريء. كل ما فيها فاتنٌ، يسلب الألباب ويبهج النفس. نظراتها المفعمة بالمعاني، ضحكاتها الرقيقة الحيية أحيانًا، عنقها الناعم، شعرها المنفلت من ستر رأسها، نهدها العبقري الرجراج إذا قامت عني ثم أقبلت عليَّ تحمل كوب عصير. إذا ذهبتُ، تأرجح رِدْفاها بتؤدةٍ خلابة، وإذا عادتْ سطعتْ كالشمس الباكرة. عيناها المشاغبتان وحاجباها ورموشها وضفائرها، بلون الليل، أما كفَّاها والمكشوف من وجهها

وعنقها، فهم لونٌ حليبيٌّ صافٍ. إن كان الظاهر منها باهر الحُسن على هذا النحو، فكيف سيكون إشراق المستور من جسمها؟ لا بد أنه يُذهب العقل.. فقد ذهب عقلي من قبل أن أراه.

في الأيام الأولى للتدريس، سألني «فلتة» مرتين عن سير الأمور بقوله وهو يبتسم: كيف حال تلميذك؟ فأجبته بأنها سريعة التحصيل وتتعلم بسرعة، وحين سمح الحال امتدحتُ أمامه أمها وسألته متلطفًا وبغير مباشرةٍ، عن سبب تطليقه لها وهي امرأة جميلة وفاضلة. فأجابني بأنها كانت شكَّاءة بكَّاءة، وهو لا يطيق نكد الزوجات. ثم استدرك فأضاف أن ابنتهما «شهد» على العكس من أمها، فهي ضحوكٌ مبهجةُ الحضور، وحنون. قلتُ في سري: هي فعلًا مثلما وصفها، وحتى لو كانت كأمها، أو صارت بعد حين مثلها. فلا بأس. إن بكت فسوف أمسح دموعها وأزيل حزنها، وإن اشتكت فسأنصتُ إلى شكواها ثم أربت بعطفٍ على كتفها، وألثمُ خصلات شعرها وخدَّيها. وأصبر عليها حتى ترضى، وتعود إليها ابتسامتها المشرقة.

في اليوم السادس من التدريس، أو السابع، بدأتْ «شهد» في كتابة الكلمات بشكل جيد، وقراءة الخطوط الواضحة. ففرحتُ بها وصرتُ أترك لها صفحات لتنسخها مرتين، ورسائل قصيرة لتقرأها كلما فرغت. وأمرُّ عليها كل يومين ساعةً، أراجعُ فيها ما فعلته. وأشعرني ذلك بأن سبب لقائنا قد ينقطع، وأفقدها، فطلبت من أبيها الزواج

منها. لم يمانع، ولكنه قال بلطفٍ إنه يتعيَّن عليَّ الحصول على موافقة أمها، فهي التي تتولى أمورها منذ سنوات، ولا يصح تجاهلها.. في اليوم التالي، وبرحابة صدرٍ ووجهٍ باسمٍ، جاوبتني أمها بأنها ترحِّب بطلبي. لكنها لا يمكنها الموافقة عليه، إلا بعد أن تزور داري.. كي ترى إن كانت مناسبة لسُكنى العروس، أم تحتاج إصلاحًا. فاتفقنا على زيارتهما لي في اليوم التالي، ظهرًا، وكان ذاك الغد السعيد يوم أَحَد.

أسرعتُ إلى داري، وأخبرتُ خادمتي بالأمر لتقوم مبكرًا بتنظيف أنحاء الدار استعدادًا للزيارة المرتقبة، فتجهَّمت واكفهرَّ وجهها.. أخذتْ تحدِّق في الفراغ دون أن تنطق بشيء، فسألتها عما بها فترددَّتْ في الردِّ لحظةً، وحين ألححتُ عليها همستْ وهي ترتجف بأن الله يعلم أنني عندها، مثل ابنها الوحيد الذي ذهب إلى الشام للتجارة قبل عشرين عامًا، ولم يعد. قالتْ ذلك بأسى لا يطمئن، ثم صدمتني بسؤالٍ ليس من السهل الإجابة عليه: كيف تترك محفوظة بنت الفارض، وتختار شهد بنت وعد؟

- كيف! لا أدري كيف، سؤالك أصلًا غريب. القلب وما يريد يا «فهيمة» ثم إنها شهد بنت فلتة الوراق.

- يمكن. لكنه يا ولدي لم ينجب من المرأتين اللتين تزوجهما قبل «وعد» الخليعة.

- ما لنا صالح. ولا يصح منك رمي المُحصنات هكذا.

- مُحصنات في الحمَّامات!

ـ كفاك يا فهيمة، كفاك. أنا لا أقبل هذا الكلام، ولا أحب أن أراك بعد اليوم في داري.

ترحلت عني باكيةً، وتركتني في ضيقٍ شديد وتعجُّبٍ من جرأتها، ومن هذا الحقد المرير الذي لم ألمحه فيها سابقًا، وظهر على وجهها فجأة. ما الذي جرى لها؟ لا أدري ماذا دهاها، عمومًا، الله أعلم بعباده وله في خلقه شئون. ما لنا صالح.

مبكرًا، كنستُ أرض الدار وأعددتها لإشراق الشمس وطلوع القمر، وقبل أذان الظهر أسرعت إلى شوَّاءٍ قريبٍ، فاشتريتُ من شهي الطعام ما سوف نأكله في الغداء. ما كدتُ ألبس أحسن ثيابي، وأتأنقُ بقدر المستطاع حتى سمعت الطرق الرقيق على بوابة الدار. جاءتا باسمتينِ. شهد، فاتنة جميلة في الرداء الأسود، مثلما هي جميلة وفاتنة في أثوابها المنزلية: أهلًا، أهلًا.

بعد إلقاء النظر العابر على أنحاء الدار، وتناول الغداء في حجرة الضيوف، أبهجتْ «وعد» فؤادي بقولها إن داري، أفضل بكثير مما كانت تظن. وهي جاهزة تمامًا لاستقبال العروس، والعروس شبه جاهزة. ثم ابتسمتْ قبل أن تقول: يعني، على بركة الله، وخير البر عاجله.

ـ طبعًا، خير البر عاجله.

بعد يومين قرأنا الفاتحة على نية الزواج السعيد، ودامت فترة الخطوبة ستة أسابيع، قمتُ خلالها بطلاء حوائط

الدار بالجير الملون. وصنعتُ تعريشةً بحوش الدار لحجب الشمس وقت الظهيرة، وأصلحتُ نجارة البوابة وأبواب الحجرات والغرف. استقدمتُ لذلك أمهر العاملين، وبقيت معهم في الدار فلم أذهب للوكالة إلا مرةً وحيدة أو مرتين خلال الأسابيع الستة. ولم يتضايق «فلتة» من انقطاعي عن العمل، الذي تضايق فأثار استغرابي هو «يحيى بن خلف» فقد مررتُ به أيام الخطوبة وتجهيز الدار للعُرس، وجلستُ قبالته في الإيوان المخصص لنا. كان ينسخ كتاب الأدعية والصلوات النصرانية، المعروف بعنوان «الأجبية» وبكتاب السواعي، لأنهم يردِّدون نصوصه في أوقاتٍ موزعة على مدار الساعات. عجيبٌ حال «يحيى بن خلف» ينسخُ صلوات أهل الكتاب، ويرفض تمامًا نسخ المصاحف والأجزاء القرآنية، ويستدل على صحة حاله العجيب هذا، بما هو أعجب منه. عندما جلستُ قبالته لم يبادرني بالكلام ولا بارك خطبتي وزواجي المرتقب، بل ولم يرفع عينيه عن الورقة التي يكتبها. قلتُ له ممازحًا إن «شهد» ابنة فلتة ستكون لي عما قريب، فغمغم بقوله: ومن بعدها هذه الوكالة. أحرجني ردُّه ودعاني للإسراع إلى مفارقته، خصوصًا أنني كنتُ مدعوًّا إلى الغداء في بيت «وعد» وسعيدٌ مقدمًا بما سأجده هناك من لُطفها وكَرَمها السابغ. الأطعمة عندها شهية، طيبة المذاق، ومجالسة ابنتها «شهد» أشهى وأطيب وأكثر إسعادًا. خصوصًا حين تتركنا أمها منفردين وتذهب لأداء أعمالها المنزلية، فتغمرني «شهد» بالحنو والحب والدلال. وكلما أحضرتُ لها هديةً، ابتهجت

بها وهمَّتْ بالجلوس إلى جواري، لصيقةً، وكادت تضمُّني من فرط الفرح.

بعد أسبوعٍ واحدٍ من الخطوبة، قلَّ قلق «شهد» واطمأنت لي فصارت أكثر مرحًا معي، وأقل تحفظًا. وبعد الأسبوع الثاني استراحت لي أكثر، فكانت تجلس دومًا على مقربة مني، وتترك سِتر رأسها ينسدل، فتسطع عليّ شموسُ حُسنها ويُسكرني الوهج. وفي الأسبوع الثالث اعترفتْ لي بأنها تحبني، وتمنى إسعادي وإرضائي بكافة السُّبل، فأخبرتها بأن حالي مثل حالها. ومناها مناي. بعد مرور شهر، اختلسنا القُبلات فذقتُ طعمًا من الولع والشغف بها، لم أعرف مثيلًا له. إذ كانت في الخلْوات، قصيرة الأوقات تقدح النيران في كياني بشرر أنوثتها الفوارة، فأصبو إلى الاحتراق.. لا شيء يشبه مُتع النوال بعد طول الولع.

مع اقتراب يوم العرس، صارت «شهد» تتزيَّن لي وتُضفي على جمال وجهها رحيق المساحيق، فتزيدها الألوانُ فتنةً. وتشاغبني بلطفٍ، فيزداد شغفي بها. تسألني، لماذا أسموني «سفير» فأراوغ بقولي لها إن الأسماء لا تعلل، وأصرف الكلام إلى وجهةٍ أخرى، بأن أهمس لها ملاطفًا: اسمك أنت أجمل من اسمي.

- هل تعرف لماذا اختاروا لي اسم «شهد»؟

- لأنك صافية وحلوة كالشهد.

ـ صح، وهناك سبب آخر.

ـ لأن عينيك لونهما عسليٌّ.

ـ وهناك سبب آخر.

ـ أخبريني أنت به..

ـ لأنك بعد زواجنا، إذا لمست بشفتيك موضعًا مني فستجد طعم العسل.

* * *

تزوجنا في بداية فصل الشتاء، يوم الخميس. وحضر العُرس أناسٌ كثيرون، أعرف منهم قليلين، ولم يحضر خالي «حميد» لفرط مرضه، وولداه لم أهتدِ إلى مكانهما لأدعوهما للعرس. وكان صاحبي «يحيى بن خلف» حاضرًا. لكنه لم يكن مبتهجًا. لعله كان يشعر بالحرج مني بعد كلامه السابق، السخيف، فأردتُ لسابق الصحبة والمودة التي بيننا. أن أرفع عنه الحرج بإظهار مسامحتي، أو عدم انتباهي لإشارته الجارحة وإلماحه إلى أنني سأتزوج «شهد» طمعًا في وراثة وكالة أبيها. فابتسمتُ في وجهه ورحَّبتُ به واستخبرتُ عن أحوال أولاده، ثم عندما سألته عن سبب التجهُّم البادي عليه، أجابني باقتضاب بأنه يعاني من أوجاع القولنج. وانصرف مبكرًا. وعدا ذلك، سارت الأمور يومها على خير ما أروم وحسبما كنتُ أتمنى. اللهم إلا ما بدا يومها كأنه الإشكال الوحيد، لكنني تجاوزته بسرعة. وذلك أنه عند توقيع عقد الزيجة بحضور القاضي والشهود، قرأ عليَّ جارنا الفقيه «عبد الله الفارض» علنًا، الفروض التي اشترطتها العروس، فرضًا فرضًا: يلتزم الزوج سفير بن عبد الله القليوبي، بألا يسب زوجته شهد بنت فلتة الوراق، ومهما غضب منها لا يضربها ضربًا موجعًا، له أثر. ولا يتزوَّج عليها إلا بموافقتها الصريحة أمام شهود عدول، ومن دون إجبارٍ أو إعضال. ولا يمنعها من الذهاب إلى الحَّمامات وقتما أرادت، ويستدعي لها الطبيب وقتما مرضت. فإن خالف شيئًا من ذلك، حقَّ لها أن تطلِّق نفسها منه. فإذا وقع الطلاق، لا قدَّر الله، لا يحق

له أن يخرجها من الدار، بل يخرج منها هو، وتصير الدار مملوكةً لها، سواءً كانت قد أنجبت منه أو لم تنجب.

استغربتُ الشرط الأخير، وحدستُ أن «الفارض» يتفنَّن في عمل هذه الاشتراطات المجحفة، بسبب غيظه مني لأنني اخترت زوجة غير ابنته النحيلة. لكن حدسي كان خاطئًا. نظرتُ إلى «فلتة» الجالس قبالتي، لأستعين به على حذف ما لا يليق من هذه الفروض، فوجدته مطأطئ الرأس تجنُّبًا للنظر نحوي أو الحديث معي. ذهبت فجلستُ إلى جواره، وهمستُ في أذنه بأنني موافق على الفروض، ولكن الشرط الأخير لا معنى له ويصعب الموافقة عليه. أجابني بنبرةٍ مستكينةٍ لم أسمعها منه سابقًا، قائلًا إن هذه الفروض والشروط، طلبتها أمها، ولا دخل له فيها. وأردف: اذهبْ الآن يا سفير وتحدَّث مع أمِّ العروس، والأمر في خاتمة المطاف بيدك أنت، فافعلْ ما تراه مناسبًا لك ومقبولًا عندك.

صعدتُ سلم داري مسرعًا، وعلى باب الغرفة العلوية القريبة من السلم، استقبلتني «وعد» بثوبٍ ملونٍ مزركش، وفمٍ يبتسم. بادرتني بقولها اللين إنه لا يجوز صعودي الآن إلى الطابق العلوي، فالنسوة يمرحن حول العروس، مكشوفات، ويجتهدن في عمل الزينة لها. وعندما أخبرتها وأنا ألهثُ بما أثار انزعاجي من الفروض، نظرتْ في عيني بدلالٍ ولومٍ لطيف، ولمست بكفِّها كتفي وهي تقول: يا سفير، نحن يا حبيبي نسوةٌ لا سند لنا، ونخاف من الآتي،

وأنت رجل عاقل ويجب عليك أن تبدِّد مخاوف «شهد» فهي الآن على أعتاب التاسعة عشرة من عمرها، وإن كرهتها يومًا وطلقتها، فلن تجد لنفسها زوجًا آخر، وهي تحبك.

- وأنا أيضًا أحبها جدًّا، ولن أطلِّقها أبدًا.

- إذن، لا تقلق من أي شيء، وربنا يسعدك ويسعدها يا سفير.

وقَّعتُ على الفروض بالموافقة، وضمَّها القاضي إلى وثيقة الزواج، فصدحت الزغاريدُ والأهازيج وابتهج جميع الحاضرين، وتهيَّأت لأسعد ليلةٍ في عمري متوهِّمًا أن مِحَن حياتي قد انطوت صفحاتها. وآن أوان الهناء المحلَّى بالشهد المصفَّى. أمضيتُ مع شهد يومين في ملاعبةٍ لا حدود لإمتاعها لي، ولكنها كانت تتوقَّى الإيلاج. ولما سألتها صبيحةَ اليوم الثالث عن السبب، بكت قبل أن تخبرني بالأمر المريب، مؤكدةً أنه سرٌّ لم تُطلع عليه أحدًا، ولا حتى أمها. وخلاصته أنها خائفة مني ومرتبكة، لأنها في ابتداء مراهقتها قبل سنواتٍ كانت تستحم وعبثْتْ بلا روية بنفسها، نخدشتْ بإصبعها من دون قصدِ غشاءها، ونزف منها دمُ عذريتها.. تحيَّرتُ لحظةً، وتردَّدت حينًا، ثم قلتُ لنفسي إنها الآن مرتاعة وملتاعة، ولا يصح مني مع حبي لها، أن أقسو عليها بسبب خطأ قديم. وهي لم تحاول خداعي ولم تُخفِ عني سرها، وإنما اعترفت أمامي به بكل صراحةٍ ووضوح، وهذا يدل على حُسن طويتها وبراءتها

المزوجة بالسذاجة والنقاء. قلتُ ذلك لنفسي، وقلتُ لها: لا بأس عليكِ يا حبيبتي، ولا عليك من هذا الأمر، ولا تشغلي بالك به.

ابتهجتْ، وهمّتْ بي وهي تمسح دموعها عن خديها، فأقبلتُ عليها بكل ما فيَّ من شغفٍ واشتياق. وحين طرحتْ عنها وعني ما نلبسه، بهرني جمال جسمها الأملودي بديع القوام. وملمسه الحريري، وعطره الياسميني. كأنها قُدَّت من رخام رخو، ناصع البياض ومشوب بحمرةٍ خفيفةٍ تظهر عند الاحتدام. فعلنا معًا، كل ما يفعله العاشقان حين ينفسح لهما البراح ويخلو الكون، ويحلو مذاق النهل من الشهد. دام ذاك النعيمُ أيامًا لم أخرج خلالها من الدار، بل لم أخرج من غرفة نومنا، إلا نادرًا.. لكن الأحوال تحوَّلت وتبدَّلت «شهد» بالتدريج، من دون سبب، وبدأ ذلك بلا مقدماتٍ مع انتهاء الأيام الستة الأولى من زواجنا. الأيام المفعمة بالمتعة الممتدة ليلًا ونهارًا، وتذوُّقي زوجتي التي تفنَّنت في إسعادي بسُبلٍ وفنونٍ لا أعرفها، ولم تكن تخطر لي سابقًا على بال.

صبيحة اليوم السابع لزواجنا، استيقظتُ من نومي على حركة «شهد» في الغرفة، فانتبهتُ لأجدها تُسدل عليها خِمارًا من ذاك الذي تلبسه معظم النساء في الأسواق والطرقات. داعبتها بالقول المشهور للشاعر «مسكين الدارمي»: قُل للمليحة في الخمار الأسود، ماذا فعلتِ بناسكٍ متعبد.. فلم تضحك حسبما توقعتُ، ولم تبتسم، فسألتها: إلى أين العزم؟

قالت إنها بحاجة للذهاب إلى الحَمَّام، لعمل ما يلزمها من أمور النظافة الشخصية والزينة. هززتُ رأسي متفهِّمًا وهممتُ بالقيام من مخدعنا، لتوصيلها إلى هناك على ظهر بغلتي، فرفضتْ بحسمٍ قائلةً إنها اكترتْ حمارًا وحَمَّارًا، لذهابها وإيابها. ثم قطعت خيط الحديث معي بأن سألتني: ألا تنوي الرجوع لعملك في الوكالة؟.. فلم أجد عندي في غمرة الارتباك، إجابةً على سؤالها المفاجئ، أو تفسيرًا لهذا التجهُّم البادي على وجهها.

ومنذ ذاك اليوم، بدأت الأمور بيننا تسخُفُ ثم تسوء. فقد عادت «شهد» من الحَمَّام مع غروب الشمس مهمومةً، بعكس المتوقع. قالت إنها مرهقة. فلم أهتم إلا لاحقًا، حين لاحظتُ أنها عند المجامعة صارت تشيح بعينيها بعيدًا عني، وتترك لي بدنها كأنها ميتٌ بين يدي المكفِّن. ضايقني ذلك وحاولت محادثتها فيه، فصدَّتني بقولها إنها مجهدة. ثم صارت في الأيام التالية تتبرَّم بلا مبرِّر وتمتنع عن المجامعة، وتعلِّل الامتناع بأن برودة ليل الشتاء تمنعها عن الاغتسال من الجنابة، وهي لا تستطيع النوم إلا طاهرة. ثم باتتْ تدَّعي أن حيضها يطول لأسبوعين، ونسيتْ أنها أخبرتني قبيل الزواج بأن مدته عندها، لا تزيد في المعتاد عن أربعة أيام. ولمَّا ذكَّرتها بذلك أنكرته بوجهٍ جاحد، وملامح جامدة. وبعد أسابيع سئمْتُ من تسويفها، وتشاغلتُ عنها بنسخ الكتب على سطح داري نهارًا، وعاودتني في الليل الهموم وهلاوس النوم.

وفي تلك الأسابيع الأولى، التي تبدَّلت خلالها أحوال «شهد» وتدهورت. كانت أمها تأتي إلينا بالطعام صبيحة كل يوم، وتجالسها بحجرة الضيوف سويعة تهامسٍ، ثم تسرع بعدها بالانصراف. وجاء أبوها لزيارتنا مرتين، الأولى بعد عدة أيام من العُرس وأتى إلينا بهدايا لطيفة، وكانت الأحوال وقتذاك تجري بيننا لطيفة. والمرة الأخرى كانت بعد شهرٍ ونصف من الزواج، وكان فصل الشتاء قد قارب على الانتهاء، وتأكدتُ من أن «شهد» في واقع الأمر علقم. في تلك الزيارة الصباحية غير المتوقَّعة، وبعد أن جلس «فلتة» لحظاتٍ صامتًا متجهِّما، أخبرني بأن خالي «حميد» توفي إلى رحمة الله قبل أيام، ولم يعلم هو بهذا الخبر إلا مساء أمس، ومن ثمَّ فقد فاته وفاتني واجب العزاء. البقاء لله. وسكت لحظةً قبل أن يزيد من ألمي بقوله إن ولدَي خالي، تعاركا صبيحة موته لاختلافهما على توزيع الميراث، وإصرارهما على حرمان أختهما منه، فتعارك معهما زوجها.. غمٌّ مريرٌ غمرني، فلم أستطع البكاء على الفقيد من فوري، ولم أتناول طعامًا طيلة اليوم، ولم أرغب ليلًا في زوجتي الراغبة عني. في الصباح وبعد ليلةٍ مترعة بالجواثم والكوابيس، أخبرتُ «شهد» بأنني سأذهب للعمل في الوكالة، فلم تعلِّق أو تعقِّب على ذلك، إلا بقولها إنها ستقضي وقت غيابي عن الدار في منزل أمها، وقد تذهب عصرًا إلى «حمَّام العمَّة».. استغربتُ ذهابها لهذا الحمام البعيد، الكائن في مدخل حارة الروم عند سوق الشوائين، لكنني لم أعلِّق على ذلك أو أعقِّب.

في طريقي إلى الوكالة تسارعت أفكاري وتصارعت، وطحن الأسى روحي حزنًا على رحيل الخال الأب، وأسفًا على ما اقترفته مع ابنته سلمى، وحسرةً على فوات الجنازة والتعازي. ولكن بماذا يفيد الأسفُ والتحسّر، وقد فات الأوان ومات المكان مع الإنسان الذي كان، وانعدمت الحيلة. ما جدوى العزاء؟ لا شيء، هو واجبٌ اجتمع عليه الناس للمواساة المؤقتة، وزيادة هيبة الموت لدى الأحياء. ولستُ أرى للموت مهابةً ولا معنى، فهو محض خمودٍ وخواءٍ وانزواءٍ أبدي.. عدتُ وحيدًا في الحياة، مثلما كنتُ دومًا. لم يعد عندي من موطن صباي إلا الذكريات المكسوّة بالأسى، وسرعان ما سوف تبهت. ولن أذهب مجددًا إلى قليوب، فقد انطوت صفحتها من حياتي، وانطوى معها كل ما مضى ولن يعود.

عندما اقتربت من الوكالة استبد برأسي دوارٌ، فصرتُ أرى الناس من حولي في الطرقات كأنهم أشباح كَسْلى، وتصلني أصواتهم الصاخبة كأصداءٍ تأتي من غورٍ سحيق أو سرداب. أنا في سرداب. خامرني النعاسُ بسبب دوار رأسي واهتزازي فوق ظهر البغلة، وعندما وصلتُ إلى باب الوكالة وأنا غائب عما يحيط بي، أوقفني «يحيى بن خلف» بأن أمسك مقود بغلتي، فانتبهتُ من غيابي مع كلامه: ما بك يا سفير، امسح دموعك يا أخي، البقاء لله، لا تدخل الوكالة اليوم وأنت على تلك الحال، عُد إلى دارك.

عدتُ إلى داري، فوجدتها خاوية. أين شهد؟ استلقيتُ

على سريري مستسلمًا مثل عجوزٍ مريضة تنتظر موتها، ففارقني النعاسُ واعتراني وجعٌ جعل النوم عصيًّا. كيف خرجت «شهد» بهذه السرعة عقب خروجي؟ تقلَّبتُ على فراش الآلام مراتٍ، ثم تحاملت على نفسي وخرجتُ قاصدًا دار «وعد» لعلِّي أجد عندها خبرًا أو سلوى. اندهشتْ من زيارتي، وأخبرتني عند الباب بأن «شهد» ليست هنا، وقد ذهبتْ غالبًا إلى إحدى القيساريات للتسوُّق. لا بأس. وددتُ لو تدعوني «وعد» للدخول، لكنها لم تفعل. بل بدا من وقفتها قبالتي عند الباب أنها غير مرحِّبة بي، أو هي مشغولةٌ بشيء، أو كانت على وشك الخروج من منزلها.

لم أجد مكانًا أذهب إليه، فعدتُ إلى داري ثانيةً وجلستُ وحدي تحت شجرة الباحة مثل رَحى تدور، دون أن تطحن شيئًا. غبتُ، فلم أستفق إلا عصرًا عندما عادت «شهد» إلى الدار ومعها مخلاة صغيرة كتلك التي نحمل فيها الكتب، تفوح منها رائحة اللحم المشويّ. لم تكن لديّ شهيةٌ للأكل، ولا لغيره، فصعدتُ مترنحًا إلى غرفة نومي وعدتُ إلى الإغفاء الشبيه بالإغماء. هل ما أراه في منامي هو أضغاثُ أحلام؟ أم انكشف عني الغطاء فعرفت أن الوجود وحياتنا كلها، هي في حقيقة الحال أضغاثُ أحلام. ومنامٌ في غمرة منام. أين ذهب خالي «حميد» وأين كان؟.. رأيته جثمانًا ملفوفًا في قماش حائل اللون، يطفو فوق مياه الفيضان.. وهذا جثمان أمي، يطفو على مسافةٍ

قريبة. وهذا أبي. ما كل هذه الجثامين؟ وما هذا المكان المغمور كله بالماء؟

ورأيتُ أني أعبر من «باب اللوق» وقد انغمر بالماء أسفله، وانسد أعلاه بحطام أحجار نتجت عن زلزال، فلم يعد بالإمكان العبور منه، إلا من فتحةٍ ضيقةٍ بأعلاه. ووجدتُ معي طفلًا واحدًا من توأم أنجبته لي زوجة أخرى غير «شهد» لكنها أخذتْ أحد الولدين، وتركت لي هذا الآخر الذي يكلمني ونحن نصعد على التلة الحجرية التي تسدُّ باب اللوق، راجيًا مني أن أعود به إلى أمه وتوأمه. لم أكن أسمعه بوضوح من شدة ازدحام متسلِّقي التلة المفزوعين من الغمر الذي يعلو، الآملين في النفاذ من الفتحة العلوية الضيقة. وفي غمرة هذا الهرج الجاري، انفلت ابني من يدي وسقط من علٍ، وتدحرج حتى استلقى بين الصخور على وجه الغمر. انخلع قلبي عليه وصرخت، ولا أحد من المحيطين بي يكترث لصرخاتي. قاومت الزحام حتى نزلت إلى اللُّجة، فوجدت قميص طفلي ممزقًا ولم أجده، بكيت وعلا عويلي عندما ملأ أذنيَّ صدى صوتٍ ينوح بقوله: ابنك ضاع..

«سفير. قُم سفير. كفاية نوم».. صحوتُ على صوت «وعد» وهزَّاتها لكتفي، فوجدتها واقفة بجوار سريري تحدِّق فيَّ بعينٍ غاضبة. انتبهتُ مضطربًا مما رأيته، وأراه، وسألتها مستغربًا: خير يا خالة وعد، خير؟ أين شهد؟.. ردَّت بحدَّة وامتعاض: من أين سيأتي الخير وأنت نائم هنا

منذ يومين، وشخيرك يهزّ جدران الدار!

- شخيري.. أين شهد؟

- لملمت ملابسها من هنا، وتنام في حجرة الضيوف معي.

- معك. لماذا؟ وأين هي الآن؟

- راحتْ حمَّام العمَّة.

نهضتُ من السرير وفتحت نوافذ الغرفة مقاومًا شعوري بدوارٍ وميلٍ إلى القيء، وعندما استدرت فلم أجد وعد. لحقتُ بها على الدرج وهي تنزل إلى أسفل، ودخلتُ خلفها حجرة الضيوف التي صارت حجرةً للنوم. الدكك متلاصقة في الزاوية، وبقية الحجرة خاوية وفي حوائطها دقَّت مسامير عُلِّقت عليها ملابسُ نسائيةٌ كثيرة، ولا مكان لجلوس ضيوف. ما هذا؟ سألتها عمن وَضَع الدكك بهذا الشكل، وهي ثقيلة ويحتاج نقلها قوةً وجهدًا؟ قالت: حمدان وعُمر.

- مَنْ هما حمدان وعُمر؟

- ناس من طرفي.

- ولماذا خرجت «شهد» وتركتني مريضًا؟

- ملَّتْ..

أدركتُ بعد فترة، أن ذاك الحديث مع «وعد» كان فاصلًا بين حياتين عشتهما مع شهد. الحياةُ الأولى هنيةً

مفعمةً بالسعادة، ولم تستمر إلا أسبوعًا أو أقل. والحياةُ الأخرى السخيفة المُملة، امتدت أعوامًا ثلاثة، مليئة بالحرمان ومختتمة بالمآسي. فقد أمست زوجتي كالفرس الحرون، وقلَّبت لي ظهر المِجَنّ. وأمها صارت تعيش بدارنا معظم الوقت، فلا تكاد تزور بيتها إلا سويعات معدودات. وحتى في وقت عملي بالوكالة وخروج زوجتي إلى الحمام لأعمال الزينة التي لا أتمتع بها، ولقاء صويحباتها اللواتي لا أعرفهنَّ. كانت أمها تبقى بدارنا على سجيتها، ولا تحتشم مني، بل ترتدي في وجودي الملابس الخفيفة، المكشوفة الشفافة. فتثير مفاتنها الظاهرة خجلي، وتدفعني إلى سوء الظنون، فأتحصَّن معظم الوقت بغرفتي إيثارًا للسلامة.

بعد شهورٍ من احتمالي لأحوالي الحالكة تلك مع زوجتي وأمها، شكوتُ إلى «فلتة» مما أعانيه لعلني أجد عنده عونًا لي أو إصلاحًا لهما، لكنه جاوبني باقتضابٍ بأن ما يجري بين الرجل وزوجته، يجب أن يكون مقصورًا عليهما. ومع ذلك، فسوف ينصح ابنته بالهدوء والتعقل، وسوف يتكلم مع أمها لتعود إلى منزلها ليتسع المجال للصفو وعودة المودة بيني وبين زوجتي. لكن الأيام مرت، ولم يحدث من ذلك شيء. ولما جلستُ بالصدفة في سرادق عزاءٍ بجوار «يحيى بن خلف» الذي تباعد عني من بعد زواجي، سألني عن أحوالي سؤالًا عابرًا. أجبته بأن الشهور الأخيرة مرت عليَّ مريرة، وذكرتُ له طرفًا مما يدور في داري، فنظر

نحوي بإشفاقٍ شجَّعني على سؤاله عن سبب ابتعاده عني في الفترة الأخيرة، فصمت ولم يفصح عما به. بعد خروجنا من سرادق عزاء المرحوم «صَدَقَة الجبَّار» مشينا خطواتٍ متجاورين، وعند مربط الدواب قال لي «يحيى» إنه توقَّع حدوث ما يجري الآن معي، وكان يظن بي الظنون السيئة.

- ظنون سيئة. لماذا يا يحيى؟

- لأنني قدَّرتُ أنك تعرف حقيقة «وعد» وابنتها، ومع ذلك أقدمت على الزواج.

- كلامك مبهم. حقيقة «وعد» وابنتها. ماذا تقصد؟ أفصح أرجوك.

- أفصح أنت يا سفير، لماذا تزوجت بنت «وعد»؟

- تزوجت ابنة «فلتة» الذي أحسن إليَّ، ولم أرَ منه إلا الخير. كنتُ أراها جميلة، فأحببتها وأردتُ العيش معها، والإنجاب منها. فأين المشكل في ذلك؟

- المشكل يا سفير، أنك وافدٌ على أهل القاهرة. المهم الآن، لابد أن تعزل بين «وعد» وابنتها، فهذا أفضل لك.

- وكيف أفعل ذلك يا يحيى؟

- اطرد «وعد» من دارك. وامنع امرأتك من الخروج شهرًا أو شهرين، فربما ينصلح حالها. ولا تنتظر العون من «فلتة» فليس بيده شيء.

غلبني غبائي، فظننتُ أن يحيى بن خلف يكره «وعد» لسببٍ لا أعرفه. ربما تكون سخائم بينهما، أو خلافًا قديمًا جرى ولم أعلم به، لأنني بحسب قوله: وافدٌ على أهل القاهرة.. وما علاقة معاناتي بذلك؟ وهل يختلف أهل القاهرة عن غيرهم من الناس؟ وكيف لي أن أطرد «وعد» من داري، وأمنع «شهد» عن الخروج منها؟.. نصائح «يحيى» كلها في غير محلها، وليس أمامي إلا الصبر على صدود زوجتي، وسُخف أمها، حتى تتحوَّل الأحوال إلى الأحسن ويعود الوقتُ الهنيُّ الذي مرَّ كالبرق.

صبرتُ فترةً طويلةً بلا طائل، فلما باتت داري موحشة وأوقاتي الخاوية بخارجها، صارت أهون عليّ من أوقات معاناتي داخلها. يئست تمامًا من صلاح الأحوال، ورغبتُ عن زوجتي التي رغبتُ فيها، ولففتُ بالليف عفريت شهوتي، واستسلمتُ للمقادير واسترحت من الأمل.

آيستُ منها بعدما دعوتُ الله كثيرًا في صلواتي أن يصلح أمرها ويقوِّم اعوجاجها، وبكيتُ مرارًا وأنا أدعوه ساجدًا. لكنه لم يستجب. ومع مرور الأيام، عادت خفافيش الخوف من المجهول لتعشِّش مجددًا في شجرة وجودي، وعاودني السأمُ القديم والمللُ الأول المقدَّر عليَّ. خطباءُ المنابر الذين يظنون أنهم يعرفون كل شيء، والوعَّاظ المدَّعون الذين مكَّنهم الدين من آذان السامعين، يؤكدون للناس أن كل إنسان يُقدَّر عليه في اللوح المحفوظ لحظة مولده، رزقه وأجله وكونه في حياته شقيًّا أم سعيدًا. دون

بيان للحكمة من ذلك، وعلى أيِّ قاعدةٍ وأساسٍ يكون شقاؤه أو سعادته؟ هم لا يعرفون، ولا أُحد يعرف المعنى المراد من تلك الأقدار التي لا ضابط لها، ولا معيار.

في منتصف السنة السابعة بعد السبعين وسبّمائة، مات «فلتة» فجأة. سقط ليلًا وهو يهبط من سطح الوكالة لقضاء الحاجة، فارتطم رأسه بحجر، ونزف بغزارةٍ حتى توفي. قيل إنه كان سكرانًا، فسقط وهو يترنَّح. وقيل إن خادمتيه المحظيتين ضربتا رأسه بالحجر، ثم رمتاه أسفل السلم، لتسرقا ما كان في خزانته التي وجدت بعد مصرعه خاوية. وهذا القول الأخير هو الأرجح، لاختفاء الخادمتين فجرًا وعدم إبلاغهما ليلًا عن وفاته فور حدوثها.

صبيحة يوم الوفاة انشغلتُ مع العاملين بالوكالة في تغسيل «فلتة» وغسل الدماء عن رأسه، والصلاة على جثمانه بالجامع العتيق، استعدادًا للخروج بجنازته إلى القرافة بعد صلاة الظهر، ثم العودة للوكالة لإعداد المكان للعزاء في المساء. كان يومًا طويلًا وفيه مزعجات عديدة، منها كثرة رجال الشرطة ومجيء «وعد» مع امرأتين وقد اتّشح ثلاثتهنَّ باسوداد الحِداد، وقعودهن عند بوابة الوكالة للعويل والعديد. راحت «وعد» تقبض من الأرض حفنات التراب وتهيل على رأسها، مبالغةً منها في إظهار فجيعتها وفداحة حزنها، لكن أفعالها بسبب الإفراط والمبالغة لم تكن مقنعةً لأحد، فأخذ العاملون بالوكالة يتأففون مما تبهرج به، وقال بعضهم لبعض مستنكرًا: أسكتوا

هذه المدَّعية واصرفوا هاتين المرأتين المستأجرتين للنواح.. وقال لي «يحيى بن خلف» هامسًا: هذه المرأة تثير الغثيان.

ـ لماذا تقسو عليها يا يحيى، لعلها حزينة فعلًا على المرحوم.

ـ حزينة. هل أنت طيبٌ إلى هذا الحد يا سفير، أم تراك تستخف بعقلي؟ وعد حزينة! لا يا سفير، هي تظهر الجزع لتؤكِّد حقها في الميراث، معك.

لم يرث أحدٌ شيئًا من «فلتة» فقد كانت خزانته خاوية. وبعد وفاته بأيام معدودة، تآزر جيران الوكالة وبذلوا الرشا، فهُدمت الوكالة بحُكم القاضي ودعم الشرطة، وعاد موقعها زقاقًا فتح عليه الجيران أبوابًا جانبية لبيوتهم، كيلا يفكر أحدٌ في استغلاله مجددًا.. وقفتُ على ناصية الزقاق الخاوي بعدما أزيلت الوكالة، بأيام، فأحسستُ بالحسرات التي عبَّر عنها الشعراءُ القدامى، بأبيات الوقوف على الأطلال. وانصرفتُ متألما من هناك، ولم أعد من بعدها للعبور من ذاك الموضع المحرِّك للأحزان.

* * *

بعد وفاة أبيها، تزايد نشوز زوجتي ونفورها مني بغير سبب. وازدادتْ أمها استهانةً بي، وشراسةً معي، وتبجُّحًا. وساءت الأحوال من حولي بالدار، وأمستْ «شهد» غضوبًا كالفهد، وانقلبت معي «وعد» إلى وعيد. لم أفهم السبب في البداية، ولكنني في النهاية عرفتُ. ففي ظهيرة يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ذي الحجة من سنة المآسي، يعني بعد وفاة «فلتة» بخمسة أشهر، عدتُ إلى داري أحمل ما أحتاجه من الورق وأحبار النسخ. كان الأوان صيفًا، وقيظ القاهرة شديد. دخلتُ من باب الدار مستكينًا كالمعتاد وكسير النفس، وأثناء إغلاقي له من خلفي سمعت ضحكات غير مهذَّبة، تأتي من الحجرة التي احتلَّتها حماتي واستحوذت فيها على ابنتها. استغربتُ ما سمعته وأسرعتُ إلى موضعه والعرق يتصبَّب مني، فوجدت رجلين يجلسان على الأرض حول أطباق طعام. وأمامهما تجلس زوجتي وأمها بملابس البيت، وبلا ستر للرأس. صحت: مَنْ هذان؟.. ببطءٍ صفيق وخلاعة، أجابتني «وعد» بأنهما: حمدان وعمر.

- وماذا يفعلان هنا؟

- يُصلحان السلم..

- بدون إذني، وبدون علمي.

- يوووه.

قامت زوجتي لتخرج من الحجرة متذمرةً، فأمسكتها

من ساعدها الأيسر، وقبل أن أنطق بشيء هبَّ الرجلان واقفين وصاح فيَّ أقبحهما وجهًا: إياك أن تضربها أو تشتمها. وأردفت «وعد» بميوعةٍ رخيصة تثير الغيظ: إياك يا فلاح، إياك.

أدركتُ على نحوٍ مبهمٍ، أنني مأخوذٌ نحو شَرَكٍ أُعدَّ لي بعنايةٍ وخبث، من هؤلاء الأربعة. واعتراني خوفٌ خفيٌّ ورهبة، فاستدرتُ لجأة وخرجت من الحجرة، ومن الدار، كمن يفرُّ من مجهولٍ مهولٍ يتربَّص به. بعد خطواتٍ مشيتها على غير هدى، وبلا مقصد، انتبهتُ إلى أنني تركت بغلتي بالدار، وكان الأصوب أن أخرج بها. لا مجال الآن للرجوع. مشيتُ كالتائهين ساعةً، حتى ساقتني ساقاي إلى الناحية المزدحمة بالمنازل، خلف جامع ابن طولون الذي كان مسجدًا ثم صار مخزنًا للغلال، فهناك يسكن «يحيى بن خلف» في منزله الصغير، العامرة حجراته الثلاث بأولاده الخمسة وابنته الرضيعة ووزوجتيه. طرقتُ الباب مرةً واحدة، وانتظرتُ بعيدًا حتى خرج لي ومشى إلى جواري صامتًا، حتى جلسنا عند ضفة النيل الذي بلغ غَوْره غاية التحاريق، وغاض ماؤه حتى انكشفت جوانبه وتحجَّر الطينُ.. بعد طول صمتٍ سألني «خَلَف» وكلانا ينظر نحو صفحة الماء العطن، بعينٍ حزينة ووجهٍ متعرِّق: خير يا سفير؟

حكيتُ له ما جرى بداري قبل ساعتين، فأطرق حينًا ثم هزَّ رأسه مرتين قبل أن يصدمني بقوله: طلِّقها يا سفير،

فقد فاحت رائحتها العطنة هي وأمها، طلقها.. شعرتُ بعبارته القصيرة كأنها سكين غاص في صدري، وكدتُ مع علوِّ خفقان قلبي أنفجر وأجهش بالبكاء، لكنني تمالكتُ نفسي حتى ملكتها واستطعتُ التحدُّث إليه: ولكن، لو طلقتها سوف تأخذ الدار وأصيرُ مشرَّدًا، أو تقتسمها معي.. وهذا..

- هذا ثمن لابد لك أن تدفعه. الله غالب. هل تدَّخر في الدار مالًا؟

- نعم، وهو مخبوء. ولا أحد غيري يعرف مكانه، لكنه ليس مبلغًا كبيرًا.

- اسمع يا سفير. عُد الآن وأخرج مالك من الدار، ثم فاوض «وعد» على فروض ابنتها، وطلِّقها غدًا عند القاضي. هل تريد أن أذهب معك؟

- لا، عُد إلى عيالك، سأذهب وحدي.

رجعت مسرعًا إلى داري، فوصلتُ إليها مع أذان المغرب ووجدتُ مدخلها مغلقًا من الخارج بسلسلةٍ، وقفلين، ويجلس عنده شرطي متجهِّم الوجه يتدلى من حزامه سيف. قلت له بحرقةٍ إنها داري، فقال بلا اكتراثٍ إنها مغلقة بأمرٍ من القاضي «أحمد بن المجيب الشافعي» وأنت مطلوب للمثول أمامه غدًا، بدار العدل، عقب صلاة الظهر.. سألته كالملسوع: ليش؟.. فقال متأفِّفًا: لا أعرف، ولا تتأخر عن الموعد.

متحيرًا وقفتُ قبالة الشرطي مسلوب اللب والإرادة، ثم انتبهتُ فابتعدتُ عنه بخطى التائهين، حتى قادتني قدماي إلى المسجد القريب. وبعد صلاة العشاء طلبتُ باستحياءٍ من خادم المسجد أن أبيت ليلتي بالداخل فوافق لأنه كان يعرفني، وأعطاني وسادة لرأسي. استلقيت مغمومًا على الحصير، وبعد صلاة الفجر خرجتُ بقلبٍ كسيرٍ وبدنٍ يسكنه الوهنُ، ومشيتُ مهمومًا نحو سفح القلعة حيث توجد دار العدل الجديدة التي أنشأها الملك الظاهر بيبرس. في الطريق، ومع ابتداء حركة الناس في الطرقات، مررتُ بحافة سوق الكتبيين الكائن بالجانب الشرقي من الجامع العتيق، وعند ناصية زقاق القناديل سمعتُ نداءها: سيدي سفير، سيدي سفير..

نظرتُ فوجدتها خادمتي السابقة «فهيمة» تجلس على حجر مكعب، وأمامه طستٌ مُغطى بقماش خفيف. أخبرتني بعدما وقفتْ أمامي باسمةً، أنها تسكن هنا. وأشارت إلى الناحية المزدحمة المسماة دار عمرو بن العاص. وأنها تخبز كل ليلةٍ هذا الفطير، وتجلس بهذا المكان لتبيعه فطورًا للقادمين إلى السوق من بعيد.. وتلاشت ابتسامتها وهي تسألني عما أتى بي إلى السوق، وما سبب الإعياء البادي عليَّ. أخبرتها أنني خجلان منها، وأنني في طريق إلى دار العدل، فبدا عليها الجزعُ وأصرَّت أن تُجلسني بقربها، وهي تسألني بلهفة الأمهات: ليش خجلان، وأيش لك في دار العدل؟

- خجلان منك لأني ظلمتك وطردتك من داري، وخجلان من نفسي لأني لم أسمع نصيحتك.

- ما فات مات. المهم، أيش قصة دار العدل؟

- استدعاني إلى هناك قاضي الشافعية، أحمد بن المجيب.

- أعوذ بالله، أحمد ابن المرتشي. مالك وماله؟

قصصتُ عليها بإيجازٍ ما جرى، فقالت مستغربة إن القاضي «ابن المجيب» المسمى على سبيل السخرية «ابن المرتشي» رجل فاسد. وهو لا يجلس للقضاء في دار العدل الجديدة، فهي مكان جلوس السلطان «بيبرس» وقاضي القضاة، للنظر في الشكايات والمظالم الكبيرة. أما قضاة الشافعية والأحناف، فيجلسون بالجانب الآخر من الجامع العتيق، ومكانهم قريب جدًّا من هنا، ولا يزال الوقت مبكرًا على انعقاد مجالسهم. تنهّدتْ بحرقة قبل أن تقول بحنوّ: افطر الآن بهذه الفطيرة الدافئة، ثم اذهب إلى هذا الحمام وأصلح من حالك، حتى لا تدخل على القاضي وأنت في صورة غير لائقة.

شكرتها وقمت من جوارها فذهبت إلى حيث أشارتْ، وتأكدتُ من أنه مكان جلوس قاضي الشافعية. كنت سأذهب عند القلعة عبثًا. دخلتُ جامع عمرو بن العاص، العتيق، وأسبغتُ الوضوء كأنني أستحم وصلَّيتُ هناك صلاة الظهر، وكانت تلك هي آخر مرةٍ أتوضأ فيها للصلاة. في الموعد، أدخلني الحاجبُ على القاضي فوجدتُ في

حضرته «وعد» وابنتها «شهد» تلبسان الأسود البراق، مزركش الحواف، وعلى وجهيهما مسحات الزينة التي كنتُ أراها في أيامنا الأولى، وخلفهما يقف الرجلان اللذان رأيتهما أمس يأكلان في داري.

سألني القاضي إن كنت أعرف الرجلين، فنفيتُ. زعق أقبحهما وجهًا قائلًا بحنقٍ هو كذاب يا حضرة القاضي، هو يعرفنا ويعرف أننا من بلدة زوجته المسكينة، ويعرف أيضًا أننا حضرنا حفل عُرسه، وبالأمس كان معنا في داره نتغدى كلنا معًا. بعدما هزَّ عمامته كمن يستغرب، ابتسم القاضي. لا أدري لماذا. وأعاد عليَّ بنظرةٍ تستهزئ سؤاله السابق، فأجبته بأنني رأيت الرجلين في داري بالأمس. ولا أتذكَّر عنهما أي شيء آخر. كأنه يتأسف على كذبي، أومأ القاضي برأسه ثم سألني وهو يحرِّك كفَّه بأوراق مطوية: لماذا تسب زوجتك بأمها وأبيها، وتمنعها من الذهاب للحمَّامات، وتنوي الزواج بغيرها من خلف ظهرها؟

- لم يحدث شيء من ذلك يا حضرة القاضي.

- حدث. وهذان الرجلان، حمدان وعمر، شهدا عليك بذلك وأقسما، كما شهدت عليك أمها.

- هم يكذبون.

- أنت الكذَّاب الأشر، وقد حكمت على نفسك في فروض الزيجة، بأنه يحق لهذه المسكينة الطلاق منك

عند وقوع الإساءة، وبأن تصير ملكية الدار إليها عند الطلاق، كعِوَض عما فعلت وكمُؤخر صداقٍ لها. وقد حكمتُ بتطليقها منك طلاقًا بائنًا بينونةً كبرى، وبأن تصير الدار لها بحُجةٍ شرعيةٍ لا تقبل الطعن عليها. انتهت القضية، انصرفوا. انتظرْ، إذا كان لك بالدار ملابس أو متاع خاص بك، وحدك، تذهب الآن برفقة هذا الشرطي وتأخذ ما هو لك، وإياك أن تأخذ شيئًا يخصها. وقبل المغرب تخرج من الدار ولا تعود إليها أبدًا، وإلا حكمتُ عليك بالجلد والتجريس.

فور خروجي من عند القاضي منكسرًا، وجدتُ «فهيمة» في الرحبة تنتظرني بحزنٍ بالغ. لم تستغرب الحكم الجائر أو تندهش منه، هزت رأسها ومسحت دمعة انفلتت من عينها، وذهبت معي إلى الدار التي كانت لي، والشرطي الضخم يرافقنا ويراقبنا بعينَي سنور. لملمتُ ملابسي واستخرجت معها من بين أخشاب الخزانة، ما كان مخبوءًا من المال المدَّخر. وأخذت من حوش الدار بغلتي وما عليها من الورق والأحبار التي اشتريتها بالأمس. وبعد نظرة وداعٍ للدار وزفرةٍ، خرجتُ أجرُّ أذيال الخيبة والخسران.

مشتْ «فهيمة» إلى جواري مهمومةً وصامتة، ولمّا ابتعدنا عن الدار بمسافةٍ سألتني عن مقصدي، فأجبتها بأنني أعرف فندقًا مناسبًا، وسأبقى فيه حتى أكتري منزلًا أسكنه، وأمارس فيه عملي منفردًا: لن أعمل بدكان أو وكالة، فلا أريد أن أرى الناس بعدما جرى لي.. قلتُ لها

ذلك، فردَّت عليَّ بما لم أتوقعه: يا سيدي سفير، اشكر ربك أنك تخلَّصت من هذه المرأة وابنتها.

سألتها بحنقٍ كظيمٍ عما تقصده، فأجابتني برفقٍ شفيقٍ بأنها ستخبرني بكل شيء، عندما تستقر أحوالي. جوابها زادني حنقًا فأعدت سؤالي عما تقصده، ولماذا لا تصرِّح الآن بما عندها. فقالت إنها سوف تخبرني بكل شيء غدًا، لأن الوقت الآن تأخَّر، وعليها أن تسرع إلى منزلها لتعجن ما سوف تخبزه فجرًا من الفطير. وأضافت بلطفٍ وحزن أنني الآن بحاجةٍ إلى الراحة، فقد كان يومي طويلًا.

كان يومي مريعًا، فعلًا، ومريرًا. غفوتُ ساعتين في ابتداء المساء ثم قضيتُ بقية الليل مسهدًا، ومقهورًا، وبعد خطفاتٍ مبكرةٍ من الوسن على الكرسي بحجرة الفندق الضيقة، ذهبت إلى «فهيمة» قبيل الضحى فأخذتني إلى موضعٍ هادئ، قرب أطلال الحصن القديم، وهناك قصَّت عليَّ القصص. قالت ممهِّدةً إن الشهور التي عملت فيها بداري لم تشعر خلالها بأنها خادمة، إذ كانت تراني كأنني ابنها الذي فقدته قبل ثلاثين سنة، حين ذهب إلى الشام للتجارة ولم يعد. وكان وقتذاك في الثلاثين من عمره، يعني في مثل عمري اليوم. طيب، ثم ماذا؟ قالت إنني عندما طردتها من داري حَزنت، ليس فقط لأنها ستكون بعيدة عني، وإنما أيضًا لأنها كانت تتوجَّس مما قد تفعله بي «وعد» وابنتها. خصوصًا أنني وحيدٌ بالقاهرة، ومقطوعٌ من شجرة. تقصد أنه لا عائلة لي.

- طيب، ثم ماذا يا فهيمة؟ أفصحي.

همستْ بصوتٍ خافتٍ بعدما اقتربت من أذني، بما يشيب له الولدان، وكان مفاد ما قالته إن حكايتي من بدايتها مشينة، وكثيرون كانوا يعرفون ذلك. فالمرأة التي اسمها «وعد» كانت سيرتها سيئة من قبل زواجها بالمسكين «فلتة» ولم تخبره عندما تزوَّجها بأنها حبلى، وأن حملها سفاح، فلما ولدت بعد ستة أشهر وانكشف الأمر، صخبت عليه وخشي من انتشار الفضيحة، فترك داره لها وسكن بالوكالة. ولما كبرت ابنتها «شهد» سارت على خطى أمها، وعرفت بعد بلوغها رجالًا كان آخرهم رجلًا يعمل بائع لحمٍ بسوق الشوائين، وبعد زواجها عرفت رجلًا شوَّاءً، كانت تذهب إليه في داره التي خلف السوق. وقد تعارك الرجلان عليها، فجرح اللحَّامُ الشوَّاءَ بسكينٍ كبير، وقطع إصبعه. وصارت فضيحة ظن معظم الناس أنني علمتُ بها، وغَضَضتُ النظر. وكانت «شهد» تشتري من وكالة سعد الله العطار، أدهانًا تحتمل بها لمنع الإنجاب، وكانت تظن أن الخِمَار الذي كانت تلبسه سوف يستر عن الناس أمرها، فلا يعرفونها، لكن كثيرين كانوا يعرفون ويُكثِرون من الكلام..

- كفى يا فهيمة، كفى.

تذكرتُ ما قاله بالأمس «يحيى بن خلف» حين نصحني بتطليقها لأن رائحتها حسبما قال، فاحت. هو إذن كان يقصد ما حكته فهيمة، لكنني لغبائي لم أدرك مقصده.

يا رب العالمين. ألهذا الحدّ كنتُ غافلًا ومغفلًا، ومضغةً بين أفواه الناس. وفي النهاية خسرتُ سمعتي، وسلبتني بنت الحرام الدار المشتراة بالمال الحلال، الموروث معظمه من أبي. أبي الذي حرمني منه أيبك وأقطاي وبيبرس سعيًا للحكم، فحكموا وحكَّمهم الله في رقاب عباده، لأنهم قتلة يستعلنون بالسيف. وأنا المسكين أستتر وأخفي نسبي الشريف وأتوارى عن الأعين، مع أنني لم أقترف جرمًا ولم أُلحق بأحدٍ أذى. أهذا هو العدل السماوي؟

لم ألتق مجددًا بفهيمة، فقد تجنَّبتُ لقاءها لأنه يثير حرجي وينكأ جراحي. بقيتُ أيامًا معتقلًا نفسي في الفندق، أفكرُ تارة في العودة للعيش بقليوب، وتارةً في الهجرة من مصر إلى الشام أو العراق. فلا أجد سبيلًا لشيء من ذلك. وأحيانًا أحلمُ بالعودة إلى الصعيد، لأقضي بقية عمري هناك. فلا أعرف أحدًا يدلُّني على الطريق. أواسي نفسي بأن جروح روحي سوف تندمل مع مرور الأيام، فأجدها تتجذَّر فيَّ يومًا من بعد يوم، وتورق أغصانها وتشتجر. كيف أفرُّ مني، ومن زماني الرديء، ومن افتضاحي بين الناس. كيف؟

انزويتُ بالفندق أيامًا، يحاصرني شعوري بالعار وخزي الخذلان. وبقيتُ متواريًا عن الأعين حتى استخبر عني «يحيى بن خلف» وعرف مكاني، فوجدته يدق باب حجرتي. حكى لي مواسيًا، وقائع عديدة عن غدر النساء بالرجال الأخيار، وأكَّد أن الخزي والعار يقعان على عاتق

«وعد» وابنتها، وليس عليَّ. وقد انقطعتْ بالطلاق صلتي بهما إلى الأبد. وختم مواساته بقوله: فوِّض أمرك إلى الله يا سفير، وسوف ينتقم لك، فهو سبحانه وتعالى عادلٌ ولا يحب الظلم.

- لا يحب الظلم!

- دعنا من ذلك. وعلينا الآن التفكير فيما يمكن أن نفعله، فليس بمقدورك الإقامة الدائمة بهذا الفندق، وليس بمقدوري التوقف عن العمل، فعندي بالبيت أفواهٌ تريد أن تأكل.

- الحقُّ معك، وأعرف أن حِمْلك ثقيل حقًّا.

بعد يومين من التفكير اتفقنا على أن أقوم باستئجار منزل رخيص في مكان هادئ، شريطة أن يكون له سطح مكشوف أو به فناء داخلي واسع، حتى نتمكن من العمل في ضوء النهار. ويكون ثلث إيجار المنزل عليه، والباقي عليَّ لأنني سأسكن فيه. ونقتسم من بعد المصروف على الورق والحبر ولوازم الوراقة، الأجرة المستحقة لنا عن النسخ والتسفير. «يحيى بن خلف» ناسخٌ ماهر، وخطُّه جميلٌ، ويجيد الزخرفة وعمل الطغراء. ولديه معرفة واسعة وتفننٌ في صنع الأحبار الملونة وبري الأقلام الدقيقة والسميكة. لكنه لا يقبل نَسْخ المصاحف، مع أنه ينسخ كتب النصارى التي يستنكف معظم النُّسَّاخ من كتابتها. وهو لا ينسخ من الخط المغربي، لأن رسم المغاربة للحروف

المفتوحة في أواخر الكلمات، واختلاف تنقيطهم لحرفَي الفاء والقاف، يُربكه ويجعله يخطئ كثيرًا ويشطب. وهذا غير مستحسن في صنعة الوراقة.

أما المصاحف والأجزاء القرآنية، فهي بابٌ واسع للرزق عند أمثالنا لكثرة طلبها توفيةً للنذور، أو استجلابًا للثواب بوقفها على الجوامع والمساجد والزوايا، وخصوصًا قبيل شهر رمضان من كل عام. لاعتكاف الناس في المساجد، وعكوفهم على قراءة القرآن. لكن «يحيى» يرفض نَسْخ المصاحف، لأنه انفرد برأيٍ لا يعلنه على الملأ، ولم يقل به غيره. ولا أدري كيف هداه إليه عقله. فمع أنه شخص تقيٌّ متدينٌ ولا يفوِّت فريضة شرعية، إلا أنه يعتقد اعتقادًا عجيبًا مفاده أن المصاحف التي بأيدي الناس في زماننا، لا يصح تداولها. لأنها مضبوطة بأمر السفاح «الحجاج بن يوسف الثقفي» الذي قصف الكعبة بحجارة المنجنيق، وبالنار، وقتل الناس في الحرم الذي جعله الله مثابةً للناس وأمْنًا. والذي يفعل تلك الشرور، لا يؤمن عمله في ضبط مفردات المصحف بالنَّقْط وحركات الحروف، وبالتالي توجيه معنى المفردات والعبارات إلى ناحيةٍ معينة، ودلالةٍ بعينها. والأنكى من كل ذلك، بحسب ما يعتقد «يحيى» هو ما ذكره السجستاني وابن أبي داود في «كتاب المصاحف» من أن الحجاج بن يوسف، السفاح، نسخ آيات كثيرة وبدَّل كلماتها، فجعلها مثلما أراد. ناهيك عما ذكرته الكتب من صيغ متعددة للمفردات، وتعليل ذلك بأنه اختلاف

القراءات ورسم الكلمات. من قبل «الحجّاج» ومن بعده. ولا عبرة عند «يحيى بن خلف» بأن الفقهاء هم الذين أنجزوا للحجاج طلبه ضبط المصحف، لأن بأس الطالب ينعكس لا محالة على بؤس المطلوب.

وأما ما يروى من أن أبا الأسود «الدؤلي» ضبط المصاحف تلبية لطلب الإمام «عليّ» فهو خبر غير موثوق به، ويدل على أن المصاحف لم تكن مضبوطة قبل الدؤلي. فما الضامن أنها صارت مضبوطة من بعده. خصوصًا وقد علمنا بأن الإمام «عليّ بن أبي طالب» هُزم، وطُمست آثاره وقُتلت ذريته على مر السنين، حسبما حكى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الشهير «مَقَاتل الطالبيين».. والذي يقتل أسباط النبي وصحابته المقرَّبين، ويستبيح حرمة مكة والمدينة، لن يتورع عن تعديل مسار الآيات إلى حيث يريد.

بقيتُ عدة أيامٍ بعدما استأجرنا منزلًا للعمل وسُكناي، أحاور «يحيى» في معتقده الخطير هذا، والمخيف، وحاولتُ أن أثنيه عن رأيه. لكنه كان في كل مرة يقدم لي حُججًا، تستعصي على الرد والنقد والنقض. فمن ذلك، أن الرقاع القرآنية العتيقة، تقبل قراءات لا حصر لها. وأن الأمر ازداد سوءًا بسبب أغاليط النساخ وتداول المصاحف غير المصححة، وانتشارها. وقد ظهرت تلك الأغاليط في رسم كثير من كلمات الآيات المتداولة اليوم. ويرى «يحيى» أن نَسْخها على هذا النحو، ذنبٌ لا يغتفر. ومما يستدل

به على ذلك، أن الآية ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ صوابها فاجنح له، لأن الضمير يعود على السلم، وهو مذكر لا مؤنث. وفي سورة البقرة، تقول الآية عن خيرات مصر: ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ صوابها: فولها وعدسها وبصلها. ولا عبرة هنا بقول المتأولين إن المراد بالفوم هو الحنطة والقمح، لأن ذلك غير معهود في اللغة، ويخالف السياق الجامع بين الفول وما يرتبط به من العدس والبصل. والآية ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ صوابها قسمةُ «ضَيْرٍ» أو قسمةٌ ضَيْرَى، لأنها قسمة غير عادلة تنسب الذكور للكفار والإناث للخالق، وهذا ضير وإضرار. ولا توجد في لغة العرب، كلمة «ضِيزى» هذه. والآية ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ صوابها «سألت» لأنه من غير المعقول أن تُسأل الضحية، والأقرب للصواب أن تشكو هي وتسأل عن الذنب الذي لم ترتكبه، ولكنها قُتلت به. والآية ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ صوابها بتسكين النون في كلمة «جَنْي» وليس بفتحها، حسبما هي عليه الآن. والآية ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ صوابها دهماتان، لأن الاسوداد كنايةً عن شدة الاخضرار، إذا وُصف به المذكر قيل أدهم، ويقال للمؤنث دهماء، وللمثنى المؤنث دهماتان. وهو يرى أنه لا يجوز في تلك السورة، أن تسبق هذه الكلمة الواحدة، ثم تلي، بالآيتين كثيرتَي التكرار ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ دون داعٍ.. وغير ذلك من الأمثلة كثير.

ووفقًا لمعتقده العجيب هذا، كتب «يحيى» لنفسه

مصحفًا ليس فيه التصحيف الذي يظنه، وعرض مصحفه على فقيهٍ من أقاربه فامتعض، وردَّ عليه بأن ما روي عن تعديل «الحجاج» للآيات، في سنده ضعفٌ. وما روي عن الأخطاء النحوية والبلاغية في بعض آيات القرآن، مدفوعٌ بأن القرآن أسبق من النحو وأبلغ من البلاغة. لم يقتنع «يحيى» بقول قريبه المتفقِّه، وتحامق فعرض مصحفه المصوَّب بحسب رأيه على الشيخ «عثمان بن فاتك» ففزع الرجل وصاح زاعقًا بالآية الكريمة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ثم ألقى في وجه «يحيى» مصحفه، وهدَّده بأنه سوف يُبلغ عنه أولي الأمر، فيتعرض لعقوبات تتراوح من الجلْد إلى القتل. فارتدع «يحيى» واعتذر وأخفى مصحفه، ولم يعد يتحدث في هذا الأمر اجتنابًا للويل الذي قد يلقاه. ومع ذلك، ظل يعتذر عن نَسْخ المصاحف المعتادة، ويتعلَّل عند رفضه بأنها مهمةٌ جليلةٌ وهو يشفق على نفسه من القيام بها.

استأجرتُ لنا منزلًا بسفح المقطم، وانتظمت أحوالنا عدة سنواتٍ هناك، واظب خلالها «يحيى» على الحضور نهارًا لتأديةِ ما يُطلب من أعمال النسخ والتذهيب والتسفير، ثم يعود لعياله ساعة المغرب، وفي الصباح التالي يأتي ومعه طعام اليوم وأهم الأخبار. وقد أخبرني ذات صباحٍ بعد تردُّدٍ منه، أن مُطلقتي «شهد» باعت الدار التي سلبتها مني إلى تاجرٍ ثري، وعادت للعيش مع أمها في الدار المسلوبة من «فلتة الوراق» بعطفة السبيل. أخذني الوجدُ واشتد

ألمي من وقع الخبر، فسالتْ من عيني دمعاتٌ لم أملك لهن إمساكًا. بأسى، دعاني «يحيى» إلى نسيان ما كان، فقلت من فوري: كيف، وأنا لا أفهم.

- تفهم ماذا يا سفير؟

- سبب ما فعلته معي، هي وأمها. ولماذا قامتا بخداعي منذ البداية، وفي النهاية انتزعتا مني الدار التي كانت لهما، وكان معها الزوج المحب والحياة الآمنة والرزق الكافي. ماذا كان ينقصهما؟

- الخلاعة.

جذب «يحيى» الطاولة الخفيفة ليجعلها بيننا خوانًا أخرج عليه من مخلاته طعام غدائنا، دون أن ينقطع عن كلامه المثير للتعجُّب. قال إن نفوس الناس، نساءً ورجالًا، فيها ميلٌ إلى الخلاعة والتهتُّك، لكن درجة هذا الميل تختلف من شخصٍ إلى آخر، كما تتفاوت الجرأة عليه بحسب تفاوت الطباع واتِّقاء العقاب وأماكن العيش. فأهلُ المدن الكبيرة أميلُ إلى أحوال الخلاعة والدلال والغُنج، من سكان القرى الصغيرة، والرجالُ بعامة أظهرُ لتلك الميول من النساء.. وقد كبرت «شهد» بعيدًا عن رعاية الأب الضابط، في حضن أمها المعروفة بسوء السيرة، فتجرَّأتْ ولم يردعها عن الغيِّ وازعٌ، فتهتكتْ غير عَابئة بكلام الناس عنها. وعندما وجدت زوجًا ريفيًا لا عائلة له في القاهرة، ظنَّتْ أنه غايتها المرجوة..

- كفى يا يحيى، كفى.

لم أشأ الإنصات إلى المزيد من كلام «يحيى» المهين، لكنني استجبت لرجائه بأن أنسى ما كان وأنتبه فقط للعمل الذي نقوم به، وننجح فيه.. فانهمكت في أداء ما يطلب منا، واجتهدت في التجويد والإتقان، ودفنتُ في ذلك همومي. وفي فترةٍ وجيزة لم تتجاوز أشهراً، عرف الناس جودة ما نصنعه من أغلفة الكتب، ودقة كتّابتها. فأقبلت علينا الأعمالُ وعمَّت شهرتنا أنحاء القاهرة، كأننا من كبريات وكالات الوراقة. وصار عندنا بعد حين، خادمٌ مقيم.

ولم يعد يعكر صفونا في تلكم السنوات المتسامحة معنا، إلا نوبات مغص القولنج التي كان يعاني منها «يحيى» وهي النوبات التي راحت تشتد عليه وتتقارب أوقاتها. حتى فتكت بأحشائه فتوفي وهو محجوزٌ للعلاج بالمارستان الناصري، وكان رحيله عن الدنيا وبقائي من بعده وحيدًا، في مطلع العام الخامس والسبعين بعد الستمائة. وقبل أسابيع قليلة من طلب الحكيم «سديد الدين الدمياطي» مشاركتي في نسخ وتسفير مؤلفات أستاذه العلامة علاء الدين، تمهيدًا لإهدائها للمارستان المنصوري ووقفها على طلاب الطب هناك. وعندما نقدني «السديد» أربعين دينارًا، أجرةً للعمل الذي قمت به مع بقية الوراقين، خلال الشهرين، اقتسمتها مع صاحبي المتوفى، وأعطيت عشرين دينارًا لعياله الأيتام وأرملتيه المفجوعتين.

مات «يحيي بن خلف» ولم يتم من عمره خمسين سنة، وفقد عياله عائلهم، ولولا معاونتي لهم بعد موته لكانت معاناتهم في الحياة أشدَّ وأفدح.. لماذا مات في سنٍّ مبكرة، ويموت غيره في سنٍّ أبكر ويترك لعياله العذاب من بعده؟ ما معنى الموت؟ وما معنى الحياة ما دامت محكومة بالموت المؤجل؟ وما معنى هذا التفتيش عن المعنى؟.. لا أعرف.

* * *

بعد رحيل «يحيي» كرهتُ دار إقامتي التي كنّا نعمل فيها معًا، وكرهتُ حياتي الخاوية التي لا قيمة لها، ولا صديق فيها. تأرجحتُ بين الأحوال وتنقَّلت بين عدة منازل، فسكنتُ شهورًا في ناحيةٍ نائيةٍ بالجيزة، وشهورًا بين التتر في أطراف أرض اللوق، ثم انتقلت إلى هذا البيت التعيس الذي استدعاني منه السديد الدمياطي، صباح أمس، وذهب بي إلى العلامة العلاء.. صباح أمس.. لقد أشرق فجر اليوم الجديد ولم أنم منذ الأمس، ولابد الآن أن أغفو قليلا قبل الذهاب لموعدي مع «العلاء» بعد صلاة الظهر.

النومُ عسيرُ المنال.

* * *

قبيل الموعد المحدَّد وصلتُ عند بوابة دار العلامة العلاء، فأوقفني حراسُ الأمير حسام الدين طرنطاي، وأخبروا خدم الدار بوصولي فلم أمكث طويلًا حتى أذنوا لي بالدخول. وجدتُ العلاء جالسًا مع ضيوفه في المقصورة

مكشوفة الجوانب، على الدكة ذاتها التي كان عليها بالأمس. وإلى جواره يجلس صاحبه «طرنطاي» وحولهما جماعة لا أعرفهم، لكن ملابسهم الفاخرة محلاة الحواف، تدل على أنهم من الأمراء. أقصد كبار المماليك الذين كانوا في الأصل عبيدًا من الأتراك، ثم صاروا بمصر أسيادًا وأمراء، وأظن أن «العلاء» كان العربي الوحيد في هذا المجلس. حين رآني قال لهم بوهنٍ وابتهاج: هذا هو.. وأجلسني بإشارة منه على كرسي قريب، فسكنتُ مستغربًا قوله الدال على أنهم كانوا يذكرونني قبل دخولي عليهم. وما كدتُ أستقرُّ جالسًا، حتى سألني «العلاء» أمام هذا الملأ المهيب: هل وافقت على ما اقترحته عليك بالأمس، من الإقامة هنا ونسخ الكتب لطلاب الطب بالبيمارستان؟

- نعم يا سيدي، نعم.

- جميل. وهذا نص الوقفية، وقد تفضَّل أخي الأمير «طرنطاي» بالتوقيع عليها، فصارت شرعيةً وموثَّقة.

مدّ نحوي المطوية التي كانت موضوعة أمامهما على الطاولة، والحاضرون ينظرون، فنهضتُ بهمةٍ وأخذتها منه وقرأتها. كان المكتوب فيها بخط يد العلامة علاء ما نصّه:

«كتب الفقير إلى الله تعالى، عليّ بن أبي الحرم القرشي المتطبِّب. بعد حمد الله على نعمه المتتابعة، السابقة منها والقادمة. فإنه بهذه الحجة الشرعية، أُوقفُ الجانبَ الشرقيَّ من داري الكائنة بجوار البيمارستان المنصوري، بما فيها

من الحجرتين والرحبة التي بينهما. لتكون جميعها محلًّا لنسخ وتسفير وتجليد كتب الطب، بثمن تكلفتها من غير أي زيادة، وفقًا لما تحتاجه مكتبة البيمارستان وطلاب الطب والأطباء. على أن يتولى ذلك ويقيم في المكان، أخونا الورَّاق سفير بن عبد الله القليوبي، ويجري عليه من مال البيمارستان، ما يجري من العطاء الشهري برسم النفقة للأطباء النطاسيين والجرَّاحين. ويكون الإشراف عليه في عمله، موكولًا إلى ساعور البيمارستان دون غيره، ولا يحق له أو لغيره قطع رزق الورَّاق المذكور، أو صرفه عن عمله وموضع إقامته، أو استبداله بغيره من غير سبب. ونسأل الله التوفيق. ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾. صدق الله العظيم».

وبأسفل الورقة ختمُ العلاء وتوقيعه، وختمُ الأمير حسام الدين طرنطاي، وختمٍ ثالث باسم «زين الدين كتبغا».. بعد دقائق، قام الأمير طرنطاي مغادرًا وتبعه الذين جاءوا معه، فكان موكبهم مهيبًا وفاخرًا. خيولٌ مطهمة وزهوُ وخيلاء ووقارٌ وحراسٌ كثيرون. عجيب ما كان يخطر ساعتها على بال، ولا يجنح خيال فيتوقع المصير المفجع الذي كان ينتظر «طرنطاي» بعد عامين، على يد الملك الأشرف خليل بن قلاوون. وربما كان من رحمة الله بالعلامة العلاء، أنه توفاه قبل أن يعاصر النهاية المريعة لصاحبه.

بعد خروجهم تباعًا من المقصورة، ومن الدار، سألني

العلاءُ بعدما ودَّعهم إن كنت قد أحضرت معي متاعي، فأجبته بأنه معدٌّ وجاهزٌ للنقل. ولم أقل إنه سقطُ متاع. فقال إنه سوف يستريح ساعة، حتى أجلب حاجياتي إلى مستقري الجديد. وأرسل معي خادمين وركائب، وقال لي قبل أن أُفارقه: نلتقي هنا على خير بعد صلاة العصر.

حين دخلت مستقري الجديد، البديع، كادت عيناي تدمعان من فرط الفرح. الحجرتان رحبتان ومفروشتان بالكامل، واحدة منها مؤثَّثةٌ للسكنى والأخرى لأعمال الوراقة وبها مقدار كبير من الأحبار النباتية الجيدة، والورق المصقول الذي تدل علاماته المائية على صنعته الفاخرة. وكلتا الحجرتين، أوسع من المنزل التعيس الذي كنتُ أعيش فيه، وأفخم، وبينهما رحبةٌ رحيبة لها بابٌ لطيف يفتح على الزقاق المحتفِّ بدار العلاء. الدار التي كانت يومها للعلاء، ثم صارت الآن الجناح الأيمن من المارستان، وصحَّ قولُ لَبيد: عَفَتِ الديارُ مَحلُّها فمُقامُها..

* * *

كانت أولى جلسات إملاء العلاء عصر يوم الجمعة، وامتدت إلى قلب الليل. وفي اليوم التالي أمضيتُ معه النهار بطوله، وبعض الليل. ويوم الأحد توعَّك وعاقه التعبُ عن الخروج إلى المقصورة، فجالسته في حجرة نومه الفسيحة مرتين، الأولى ساعة الضحى، والأخرى من العصر إلى قرب ميقات العشاء. وفي الأيام التالية، صرنا نلتقي بتلك الحجرة في كل يومٍ مرتين أو ثلاثًا، فأقرأ له في

الصباح من كتاب «الموسيقى الكبير» للسرخسي، قرابة ساعةٍ، ثم يُملي عليَّ شيئًا من سيرته الحافلة حتى يمنعه الإعياءُ، فينام قليلًا بعد لقيمات غدائه ونعاود الإملاء عصرًا وبعد طعام العشاء، حتى يغلبه الإجهاد ويغالبني النعاس.. واستمر الحال على ذلك شهرًا، حتى كان يوم الخميس الذي اشتدَّ عليه فيه المرض، ويومها اجتمع عنده صفوةُ تلامذته من كبار الأطباء، وجلبوا معهم أفضل الأدوية المقوية للقلب، فقال لهم ساخرًا ومستسلمًا لمصيره: لا دواء للشيخوخة فهي ليست مرضًا ليُداوى، ولا جدوى من ترقيع ثوبٍ قد اهترأ.. وتأوَّه متوجعًا، فاقترح عليه «السديدُ الدمياطي» تناول قليل من الخمر لتسكين الأوجاع، فرفض، وقال مشيرًا إلى شعوره باقتراب ساعته: لن ألقى الله وفي باطني شيءٌ من الخمر.. فبكى الحاضرون حوله، وبكيتُ.

* * *

ساعة السحر من يوم الجمعة الموافق للحادي والعشرين من شهر ذي القعدة، عام سبعة وثمانين وستمائة، ارتجف «العلاء» بشدة عدة مرات، ومات.

# أيامُ الإملاء

بدا لي، من بعد طول النظر، أن معظم أيامنا هي تكرارٌ نمطيٌّ أجوف، لا طعم له. ولولا اللحظات الفارقة والتحوُّلات، لما كانت الحياة تستحق أصلًا أن تُعاش. أدركتُ تلك الحقيقة حين أمضيتُ شهرًا في صحبة العلامة العلاء. ملازمًا له في معظم الأوقات، وساكنًا إلى جواره في شقِّ داره. وتمنيتُ بعد وفاته لو كنتُ قد عرفته في وقت أسبق، أو تأخر رحيله لوقتٍ لاحقٍ، لكن الأماني لا تفعل بذاتها. وعزائي أن ملازمتي كانت خلال ذاك الشهر شبه تامة، لم يقطعها إلا سويعات نعاسه أو نوبات ألمه بسبب احتباس الأنفاس وضيق الصدر، وفيما عدا ذلك كنتُ دومًا معه. يحادثني مثل الأب الشفيق، وينصحني كأنه الجدّ الجليل، وينظر إليَّ مثلما كان يرمقني خالي حميد.. وكم كنتُ أحنُّ إلى تلك النظرة، ولازلتُ، حتى بعدما بلغ عمري اليوم أرذله.

وأيام الملازمة، كنتُ حين أقرأ له يغمض عينيه أحيانًا، فلا أدري إن كان يسمعني أم هو نائمٌ. فأهمسُ بعد برهةٍ من صمت: هل تسمعني؟ فيبتسم وهو مُسبل جفنيه، ويجيب: نعم ياولدي، أكملْ.. فأُكملُ، لكنه في أوقات الإملاء كان يتوهجَّ وهو يحكي وقائع سيرته، بحسب ما يستحضره منها أو يرد على خاطره. وبعد وفاته، واستفاقتي من حزني على رحيله، ضممتُ الأمالي وجمعتها بحسب تسلسلها، ونقلتها بقلمي المجوَّد إلى تلك الأوراق، من دون

تعديل أو زيادة أو حذف. وهذه هي أمالي العلاء، بحروفه، بحسب ما سمعته منه:

* * *

بعد حمد الله على أفضاله، يقول الفقير المتطبِّب «عليّ بن أبي الحرم القرشي» عفا الله عنه: كنتُ في ابتداء أمري، وقبل أن يعرفني أهلُ الزمان ويحسنوا بي الظن ويدعوني بألقاب التقدير، موقنًا بأن الله خلقني لغايةٍ تقتضيها حكمته، وأشعر بها في قلبي، فأُسلم نفسي لمشيئته عزَّ وجل. واليوم، ولأن الأجلَ دنا وبدت النهاياتُ قريبةً، والموتُ كما هو معلومٌ محتومٌ على جميع الناس، ولا مفر منه. فمن المستحسن استدعاء البدايات التي بها تكتمل دائرة الحيوات. مع أننا نؤمن بأن دورة حياتنا في هذه الدنيا، هي الأولى، وبعدها في الحياة الأخرى التالية سوف نعود بأعياننا، قلبًا وقالبًا، فيلقى كلٌّ ما يستحق من ثواب أو عقاب. هذا مُعتقدنا. وعلى الله قصدُ السبيل.

ابتدأ وجودي في الدنيا، بمولدي أنا وتوأمي «عبد الله» في سنة الصلح، أي في السنة السابعة بعد الستمائة للهجرة النبوية. وقد سُميت تلك السنة بهذا الاسم وقتذاك، لوقوع الصلح فيها بين جيش الملك «العادل» الأيوبي، وجيش الفرنج الذين اجتمعوا في «عكا» استعدادًا لاستعادة «القدس» ومعاودة السيطرة على سواحل الشام. وبعدما تهيَّأ الجيشان للقتال، وجفلت قلوبُ الناس في الشام من طبول الحرب، والخشية من ويلاتها المرتقبة. جنح الطرفان

فجأة إلى السلم وعقدا الصلح، فتنفس الناس الصعداء وابتهجوا.. وعندما وُلدنا في تلك الأثناء، أراد أبي أن يستوحي من الصلح اسمينا، فنكون صالح وصلاح الدين. لكن أمي رحمها الله، حسبما أخبروني في زمن صباي، لم يعجبها ذلك وذكَّرتْ أبي بما نذره سابقًا من تسمية ابنه الأول عبد الله والثاني علي، فأوفى أبي بالنذر.

أمي كانت قليلة الكلام، ولكنها إذا تحدَّثت أنصت لها الجميع واعتدُّوا بما تقول.. وكان مجيئُنا إلى هذه الدنيا، بدار جدي القائمة على أطراف قرية «القَرْش» القريبة من دمشق، فلا يفصل بينهما إلا ساعة سيرٍ على الأقدام. وكلمة القَرْش تعني في فصيح اللغة، الجمع والضم والادخار، فيقال تقرَّش القومُ أي اجتمعوا. وتقرَّشت الرماحُ والسهام، إذا حُزمت فصار لها اصطكاكٌ. وتقرَّش الرجلُ، يعني جمع لعياله المال.

دار جدي الذي توفي إلى رحمة الله ونحن رُضَّع، فسيحةٌ، رحبة الحجرات والجنبات. يعيش فيها معنا، أعمامي الثلاثة الذين أعطاهم أبوهم أسماءً طريفة على هيئة الكُنَى، فكانت أسماؤهم: أبو المجد، أبو اليُسْر، أبو الكَرَم. وأصغرهم سنًّا، هو أبي: أبو الحَرَم.

إلى جوار الدار منازلُ يعيش فيها بعض أقاربنا، وبيوتٌ يسكنها نصارى يربُّون في أحواشها الخلفية الخنازير. وإلى الجوار من ذلك كله، مزرعةٌ لنا، فيها أشجارُ فاكهةٍ وحقلٌ فسيح لزراعة الخضراوات. وبين الدار والمزرعة، حظيرةٌ

فيها ماعزٌ يصنعون من ألبانها الجُبن، وأغنامٌ يجزون كل عامٍ أصوافها، وحميرٌ يركبونها وينقلون عليها الخُضر الطازجة والثمار في مواسم الجني. في طفولتنا المبكرة، كنا نألف الحركة قرب هذه الحيوانات الأهلية بلا رهبة منها، ونهوى اللهو مع الدواجن التي بحوش الدار، ومطاردتها. وكان أول إدراك لنا في الصغر، هو أن هيئة هذه الكائنات الحية على اختلافها، وشكل أعضاء أجسامها، مناسبة للمنافع المنوطة بها. وأظنّ أن ذلك هو ما دعاني بعد عشرات السنين، عندما قمتُ بتأليف الكتب، إلى الاهتمام بالكتابة عن وظائف الأعضاء، وعن الصلة بين هيئة كل عضوٍ والغاية منه. حتى من قبل اطلاعي على ما كتبه الجاحظ، وأرسطو من قبله، في كتابيهما اللذين بذات العنوان: الحيوان.. كما كنتُ في الصغر، شغوفًا بالنظر إلى الأعضاء الداخلة في الحيوانات والطيور التي يذبحونها. لم أكن أطيقُ مشاهدة لحظة الذبح، لإشفاقي على الحيوانات والطيور التي طالما تأملتها وهي حيّةً، لكنني بعد ذبحها يغلبني الشغف وأُسرع لرؤية نتف ريشها وسلخ جلدها وإخراج ما كان بباطنها من الأعضاء. كنتُ أندهش مما أراه، وكان الذين حولي يندهشون من اهتمامي بهذا الأمر. وقد قمتُ لاحقًا بالتشريح الدقيق، لما فيه من منفعةٍ للطبيب، ثم صدّني عنه وازعُ الشريعة وما في أخلاقي من الإشفاق والرحمة.

وقد جرت العادةُ بين معظم الناس، بأن يعيش الإنسان في بداياته بحلمٍ أو أمل يتمنى تحقيقه، فيصبو، ثم يسعى طامحًا

إلى ما يرجوه حتى يصل إليه. ولكن ما ثمة وصول، لأنه فور تحقيق المرء لما تمناه سابقًا، يولد من رحم الأمل والحلم الذي تحقق، حلمٌ آخر وأمنياتٌ تالية. كي يكتسي الوقت برحيق الحياة ولذة السعي، والاستهانة بالمشقة والألم، والتخلُّص من وطأة الملل، واختراع الأمل الدافع للعمل. وأحيانًا لا يختص التمني بصاحبه أو يكون الحلم أرحب من قدرته على تحقيقه، فيُعلِّقه على غيره، ذريته، ولهذا تجد الآباء يحلمون لأبنائهم ويتمنون لهم أمانيهم.

ولم أكن في طفولتي وشبابي المبكر، أحلم أو أنوي الاشتغال بالطبِّ والتبحر في مباحثه وأقسامه. وإنما كنتُ مستسلمًا لأمنية أبي، رحمه الله، الذي كان متفقِّها على المذهب الشافعي، ويؤم المصلِّين في مسجد قريتنا أيام الجمعة. وأراد لتوأمه أن يكونا من الفقهاء، ويصيرا قضاة. لا أدري لماذا كان متعلقًا بتلك الأمنية وذاك الحلم؟ غير أن إرادة الله كانت قد اقتضت لنا منذ الأزل مصيرًا آخر، كما سيأتي بيانه.

وبسبب تعلُّق أبي بحلمه هذا، الذي لم يتحقَّق، حرص منذ صغرنا على تحفيظنا القرآن، وتعليمنا مبادئ علوم الدين واللغة. فحفظنا المصحف بكامله ونحن في حدود العاشرة من العمر، وعرفنا أطرافًا من المعارف والعلوم الشرعية. وكان رحمه الله يسعد بذلك، ويستقوي به على حلمه وأمنيته، حتى إنه كان في أوقات صفوه يلاطفنا ونحن أطفال، بمناداة أخي بلقب «الإمام عبد الله» ويناديني

بصفة «القاضي عليّ». وهو رحمه الله، أول من أعطاني الكنية المتوافقة مع اسمي، وهي «علاء الدين» مع أن المعتاد هو إعطاء كنية «أبي الحسين» لمن يحمل اسمي، والعكس. مثلما هو الحال مع الشيخ الرئيس أبي عليّ، الحسين بن سينا، رحمه الله. وربما كان أبي يتجنَّب المماثلة والمطابقة مع أسماء وكُنى الشيعة، حتى وإن كان ذلك في سياق الملاطفة لولده. وذلك لفرط تخوفه من النزعات والنزاعات المذهبية التي كانت مهتاجة في نواحي الشام، ليس فقط بين السنة والشيعة، وإنما أيضًا بين المذاهب السنية. حتى إن بعض متعصِّبي الشافعية والأحناف هناك، كانوا يمنعون التزاوج بين أتباع المذهبين، ويمتنعون عن صلاة الجماعة مع بعضهم البعض. وهذا تعصُّبٌ عجيبٌ، مفرط السخافة وبالغ الحمق.

ومن أفضال أبي علينا، أنه كان يتحدث معنا ونحن في حدود العاشرة من العمر، كأننا صرنا رجالًا. فبعد صلاة العشاء من كل ليلة، وحول خوان الطعام الشهي أيًّا ما كان، يجلس معنا ساعةً أو أكثر يخبرنا خلالها ما سمعه من أخبار البلاد وحوادث الأيام. ويستطلع رأينا في الأمور الجارية، ويصوِّب بلطفٍ ما نخطئ فيه من قولٍ، ويستحسن الحسن. فيطيب لنا ويستجلب البهجة. وكان عمُّنا «أبو الكرم» يحضر معنا معظم جلسات الأمسيات وكثيرًا ما يشترك في المناقشة، فيجعلها أمتع، لأنه رجلٌ ذكيٌّ كثير المطالعة في الكتب، وميالٌ للممازحة. أذكرُ أنه

في ختام السنة السابعة عشرة بعد الستمائة للهجرة، وكنّا آنذاك في سنّ العاشرة، قال معقبًا على ما جرى خلال ذاك العام من الوقائع: لولا انشغالي بالزرع وصُنع سلال الفاكهة، لكتبتُ رسالةً أو كتابًا صغيرًا يكون عنوانه «الرياض النضرة والمزالق الخطرة في حوادث السنة السابعة عشرة».. يقصد بذلك، كثرة ما جرى من الوقائع والفظائع خلال تلك السنة، في عموم الأنحاء شرقًا وغربًا، حتى بدا لمن ينظر في أحوال الدنيا، كأن القيامة أحدقت واقترب للناس حسابُهم وهم في غفلةٍ مُعرضون. ففي الحجاز اعتُدي على الحجيج في البيت الحرام، ونُهبوا، وكان «قتادة بن إدريس العلوي» ملك مكة ونواحي اليمن، قد أرسل ابنه «حسن» مع عسكرٍ للاستيلاء على المدينة المنورة، بقيادة واحد من إخوة «قتادة». وفي الطريق قتل «حسن بن قتادة» عمه، لأنه توجّس منه، وعاد بالعسكر إلى مكة فدخل على أبيه البالغ من العمر تسعين سنة، وخنقه، واستولى على الحكم. ثم تمادى في طغيانه، واستدعى أخاه الذي ينوب عن أبيهما بقلعة «ينبع» وقتله. فنازعه على الحكم أخٌ آخر له، اسمه «راجح» واستعان عليه بالخليفة العباسي، لكنه فشل في ذلك وساءت خاتمته. وخلال جريان تلك المخازي وهذه الويلات، في اليمن والحجاز، مات خلقٌ كثيرٌ لغير وجه الله.

وفي الشام، خاف المسلمون من بطش جيوش الفرنج الذين كانوا قد استولوا على مدينة «دمياط» بمصر، بعد أن

حاصروها والوباءُ يفتك بأهلها، فطلب أهل دمياط من الفرنج الأمان للخروج، فرارًا بأرواحهم من خطر الجائحة الوبائية. فأمَّنهم عسكرُ الفرنج وحلفوا لهم بأن يتركوهم يخرجون في سلام، لكنهم غدروا بهم حين فُتحت الأبواب، واندفعت بجحافلهم إلى داخل المدينة. وبالغوا في قتل أهلها وسبي نسائهم، وأمضوا ليلتهم في الجامع الكبير يفّجُرون بالنساء، ويفتَضُّون عذار البنات علانية. ثم أسكرتهم نشوةُ النصر الرخيص، فزحفوا إلى القاهرة يريدون الاستيلاء عليها، ثم التهام الشام من بعدها. ولكن تصدَّى لهم الملك «الكامل» الأيوبي، بالعسكر المماليك، وقتل منهم عشرة آلاف. فارتد الفرنج إثر هزيمتهم، إلى دمياط، وتحصّنوا فيها إلى حين. ومع تلك الحروب الطاحنة، في زمن اجتياح الوباء، اشتدّت على الناس وطأةُ المجاعة وغليانُ الغلاء، حتى بلغ سعر إردب القمح ثلاثة دنانير. وهذا كثيرٌ، وخارجٌ عن المألوف بأضعافٍ.

كما ارتعب الناسُ في الشام من الأخبار المخيفة الواردة إليهم من نواحي الشرق، إذ تساقطت هناك البلاد تحت أقدام مغول التتار. وهم جماعات كبيرة من الترك، لا دين لهم، اجتاحوا «خوارزم» وما حولها، بعد الانتصار الساحق لجحافلهم على جيش السلطان علاء الدين محمد، الملقَّب بخوارزمشاه. أي ملك خُوَارزم. وجرى ذلك لأن «محمد خوارزمشاه» أراد أن يبسط سلطانه على البلاد جميعها، شرقًا وغربًا، بعدما عظم عدد عساكره في

خوارزم وما حولها. وأراد الاستيلاء على «بغداد» فدفع إليها بجيش جرار، لكن صقيع جبال الشمال والرياح الثلجية العتية، بدَّدت شمل الجيش فتفرَّق، وتخطَّف الأكرادُ ما تبقَّى منه. ومع خيبة مسعاه وفشل حملته لم يتعظ، واستمر يحلم بأن تصير جميع الأرض له مثلما كانت من قبل للإسكندر. ولكن هيهات. في تلك الأثناء، كانت القبائل التترية قد اجتمعت تحت لواء ملك لهم اسمه «جِنكِزخان» واستطاع هذا الملك أن يستولي على الصين، ويجعل من مدينة «طغماج» الجبلية، عاصمةً لمملكته الجديدة. ثم أراد المهادنة والتجارة مع ممالك المسلمين الواسعة، سعيًا للمكاسب واستقرار الأمور، وأرسل سفارةً من قومه إلى «محمد خوارزمشاه» يعرض عليه هذا الأمر، وبعث معهم رسالة باللغة العربية، جاء في ثناياها أن التجارة بين المملكتين فيها خيرٌ عميم للطرفين، وأن السلطان جنكزخان يعتز بالسلطان محمد خوارزمشاه، ويراه كأحد أعزِّ أبنائه. فشعر السلطان بأن جنكزخان يستصغره، وأسرَّ ذلك في نفسه، دون أن يلتفت إلى أن سلطان التتار كان آنذاك قد تجاوز من عمره الستين عامًا، وأنه لا معرفة له بالتعبيرات العربية ذات الطابع البلاغي، التي هي في نهاية الأمر من عمل التراجمة وكُتَّاب الإنشاء.. ولإظهار حسن النوايا، وإبداء المودة، بادر «جِنكُزخان» بإرسال قافلة تجارة إلى خوارزم، فيها حسبما قيل، ألف تاجرٍ مسلم، وألفا بعيرٍ محملة بالبضائع والحرير. فاستوقف القافلةَ الحاكمُ المسلم لبلدة «أُترار» الواقعة على نهر سيحون، بين حدود

المملكتين، ومن هناك ابتدأت الويلات.. كان عمي «أبو الكرم» يقول ساخرًا ومتحسِّرًا على حال المسلمين: أُترار فتحت بركان نار الأشرار على الأبرار.

أرسل حاكم أُترار إلى السلطان «محمد خوارزمشاه» يسأله عما يجب أن يفعله بالقافلة، فتحامق السلطان المسلم، وأجابه بأن يقتل التجار ويبيع البضائع ويرسل إليه بالأموال. وبرَّر السلطان ذلك، بأنه يتوجس من كونها قافلة تجسُّس. فلما فعل حاكم «أوترار» ما أمره به سلطانه، استشاط غضب جنكزخان وأرسل إلى «خوارزمشاه» سفارةً تحمل رسالةً تقول: إن كان ما فعله حاكم «أُترار» هو بعلمك أو بأمرك، فهذا مما لا تحمد عقباه، وإن كان بغير علمك فأرسلْ لنا هذا الحاكم لمعاقبته.

وعندئذٍ بلغ حُمق «خوارزمشاه» مداه، فقام بقتل واحدٍ من سفراء «جِنكزخان» وجزَّ خصلات شعر الباقين، وهذا عارٌ عند التتار عظيم. فانفجر غضب جنكزخان واندفع بجيوشه التترية التركية، فهزمت جيوش الخوارزمية وعساكرهم التركمانية التركية. واستباح مغول التتر مدن سمرقند وبخارى وخراسان، وداست جحافلهم على البلدات والنواحي المشرقية وعَرَكتها بأقدام الهول فدمَّرتها، وقتلت من أهل الآمنين قرابة ألف ألف إنسان. ومع جريان تلك الشنائع وهذه الأهوال، بدا الزمان كأنه يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ولله الأمر من قبل ومن بعد. وبعد هزائم سلطان خوارزم، المفجعة، وبعدما تنازل عن العرش

المتهاوي لابنه «جلال الدين مَنْكُبِرتي» مات خوارزمشاه مهزومًا، مدحورًا، هاربًا، في ذاك العام السابع عشر بعد الستمائة.

ولم تكن الأحوال في دول الإسلام بالمشرق، ونواحي الشام ومصر، بأفضل مما يجري ببلاد المسلمين في الغرب والأندلس. إذ انتصر الملوك النصارى هناك على السلاطين المسلمين، عدة مراتٍ بدأت بموقعة «حصن العقاب» التي جرت بعد مولدي بعامٍ وعدة أشهر، يعني في العام التاسع بعد الستمائة، وقُتل فيها من جند الإسلام وعوام المسلمين قرابة مائة ألف إنسان. ويقال بل كانوا أكثر من ذلك. وانهارت بعد تلك المعركة قوة الملوك المسلمين المعروفين باسم «الموحدين» واستقوت الممالك النصرانية وعزم ملوكهم على طرد أهل الإسلام من أنحاء الأندلس كلها.

وقد حكيتُ ما سبق، مع قسوته واستجلابه للألم، لأن الإنسان في العموم لا يعيش إلا في جماعة تحوط بها جماعات. ومن العسير بل والمستحيل، أن نعرف أي إنسان ونستخرج من سيرته الدروس والعِبر، إذا جهلنا ما كان يجري من حوله في جماعته والجماعات المحيطة بها. ولطالما تأمَّلتُ مليًّا منذ صباي المبكر، في تلك الفظائع والويلات التي جرت في صغري، وما عاصرته بعدها من مثلها. وبعد أن أطلتُ النظر فيها، مراتٍ، رأيتُ أن معظمها منبعه الطمع. فالحكامُ يطمعون فيما بيد بعضهم البعض من جاهٍ ومجدٍ ومال، فيسعون إلى امتلاكه. وكلما

ملكوا ومهما جمعوا طمعوا في المزيد، ولو بالحروب وتدمير البلاد وشقاء الأبرياء من البشر. وهؤلاء الحكام كثيرًا ما يكدحون لنيل أطماعهم التي لا حدَّ لها، متوسلين إلى مأربهم بالعقائد والدين. أو بالدعاوى الدنيوية المخادعة. وأعوانُ الحاكم من الكبراء، يطاوعونه طمعًا في الأعطيات والهبات وغنائم الحروب. ويسير في الركاب الجندُ، طمعًا في الجامكية والرواتب الديوانية وما يمكن أن يسلبوه إذا انتصروا، مهما أدى بهم هذا الطمع إلى حتفهم أو حتف أقرب الناس إليهم. وقد يقودهم إلى قتل أهلهم بأيديهم، مثلما اقترف أمير «مكة» من فتكٍ بذويه وأسرته، غير متورِّع عن الإتيان بأفعالٍ حرام في الأرض الحرام. لأن الطمع يعمي. ولا يتوقف ذلك على النزاعات والحروب بين الحكام، بل يتعداه إلى ما يجري من مشاحناتٍ وإحن وسخائم في حياة عموم الناس، إلا مَنْ رحمه الله من شهوة نفسه برجاحة عقله.. الثريُّ يطمع في المزيد ولا يكتفي، والفقير يطمع في الثراء ولا يرعوي، وكلاهما يكدُّ لنيل مطامعه مهدرًا أوقات حياته السائرة به إلى موته، المحتوم، الحاكم على الكل بترك كل ما جمعوه. وليس بمقدور أحد، افتداء نفسه أو غيره من الموت، بالمال الذي انهمك في جَمْعه وضيَّع عمره في غمرة انهماكه هذا. وهذا أمرٌ جليٌّ، لكن أكثر الناس لا يتعقَّلون.

من هنا أدركتُ مبكرًا، على نحوٍ مجمل، أن الطمع داءٌ ودواؤه التعقل والزهد المؤدي بصاحبه إلى القناعة والرضا.

ومن هنا عاهدت نفسي أمام الله، بألا أطمع في شيء ليس بيدي مهما كان، فاسترحتُ بذلك من ذلك الداء ومن ذاك العناء.

* * *

حين بلغنا من عمرينا سنَّ الثالثة عشرة، أرسلنا أبي للإقامة بدمشق كي نتلقَّى هناك الدروس ونتفرَّغ للعلم وتحصيل المعارف. فبكتْ أمي يوم مفارقتنا لها إلى دمشق، مع أننا لن نبعد عنها إلا ساعة سيرٍ، أو نصف ساعةٍ ركوبًا. وكنا نأتي للدار مرةً كل أسبوع، فتفرح ثم يسيل دمعها عند المفارقة. ربما لفرط خوفها علينا، لأنها لم تنجب غيرنا ولأننا مصدر الفرح الوحيد في حياتها. وكان أبي قد أوصى بنا بدمشق، ابن عمٍّ له اسمه «بشير القَرْشي» يعمل طبَّاخًا بالبيمارستان النوري الكبير. وهو رجلٌ طيبٌ عطوف، كفانا مئونة المأوى بأن أوجد لنا حجرةً رخيصةً قرب السوق، القريب من البيمارستان وجامع الأمويين. وكان هذا الرجل الطيب يمدنا كل يومين بالطعام، مما يُطبخ في البيمارستان، كيلا تشغلنا ضرورات الحياة عن طلب العلم.

كنا نحضر في الجامع الكبير «الأموي» حلقات علوم الدين واللغة والتاريخ، كما كنا نتردَّد على المدارس الدمشقية التي تعد بالعشرات، بل بالمئات. فقد درج كبارُ العلماء الدمشقيين في مختلف العلوم، وكذلك النبلاء من الأمراء، على تشييد وإنشاء المدارس العلمية وترتيب النفقة لها، من أجرة الحوانيت والأملاك الموقوفة عليها. وذلك توفيةً لنذورهم أو استجلابًا للثواب في الآخرة، ولأن ذلك من أعظم أبواب الصدقات الجارية بعد موت صاحبها.

في سنوات إقامتنا بدمشق تلقينا المعارف والعلوم، على

يد جماعة من أعيان علماء العصر المقيمين بها، منهم سبط ابن الجوزي الذي درسنا عليه بالمدرسة «البدرية» التفسير والتاريخ. وجمال الدين بن فيروز، الذي درسنا عليه الفقه الشافعي بالمدرسة «الأمينية» قبلي باب الساعات. وقرأ علينا في مجالس انعقدت بالمدرسة العادلية، مختصره لكتاب «الأم» للإمام الشافعي. ومنهم أيضًا، موفق الدين بن قدامة، صاحب كتاب «المغني» وكان قد أسنَّ ولزم مسكنه بعدما بلغ عمره قرابة الثمانين سنة، فدرسنا عليه بمجالس عقدها في داره. كما حضرنا عدة مجالس طبية، في حفظ الصحة وتقدُمة المعرفة، كان يعقدها الحكيم «مهذب الدين الدَّخْوَار» في داره التي أوقفها بعد وفاته لتكون مدرسة للطب.

ولأن أهل الابتداء بواطنهم تكون عادةً كالشمع، قابلةً لكل نقش، فقد أخذنا علومًا كثيرة من هؤلاء المشايخ الدمشقيين، وتركوا فينا أجمل الأثر. خصوصًا اثنين منهم، الأول هو شيخ الطب في الديار الشامية «رضيُّ الدين بن حيدرة الرحبي» الكحال، وقد أدركناه بعدما نيَّف عمره على الثمانين سنة. لكنه عاش حتى قارب المائة، من دون أن تضعف قوى بدنه إلا قليلًا، ومات بعد عمره المديد هذا ممتَّعًا بسمعه وبصره. وحضرنا دروسه التي عقدها في داره الكبيرة، الفخمة، التي بناها ملاصقةً للبيمارستان النوري ليوقفها عليه بعد وفاته، وانتظمنا فيها شهرين ثم حدثت أزمةُ توأمي «عبد الله» رحمه الله، فانقطعنا عن

الدروس فترة. وبعدما انكشفت الغمة عني، عدتُ للتلمذة على يديه فكان لي خير أستاذ، وتعلَّمتُ منه الكثير.

والآخر منهما، هو شيخ الصوفية «محيي الدين بن عربي» الملقب عند مريديه بالشيخ الأكبر، وكان رجلًا نادر المثال منقطع المثيل. تتقرب منه الملوكُ فلا يثير ذلك اهتمامه، لزهده التام في المتاع الدنيوي. والفقهاء في أمره مختلفون، فمنهم مَنْ يراه من صفوة الأولياء ومنهم من يراه زنديقًا، وهو غير مكترث بمن معه ومَنْ عليه، لا يلقي بالًا لأولئك ولا لهؤلاء. أصله من الأندلس وكان مولده هناك، ثم خرج منها إلى مصر ثم الحجاز، وجاور في الحرم المكي مدة، بعدها جاء إلى الشام وسكن «حلب» ثم استقر مقامه بدمشق، وبقي فيها حتى وفاته. عندما علمنا بأن الشيخ «محيي الدين» سوف يعقد جلسات بالجامع الكبير الأموي، كنا غارقين في دروس أصول الدين وما يتعلق بها من المباحث الإلهية المسماة اصطلاحًا بعلم الكلام. لأنها كلامٌ في قواعد الاعتقاد. ولم يكن أخي «عبد الله» متحمِّسًا لحضور تلك الجلسات، لا سيما أنها حسبما قيل لنا، ستكون مخصصةً لشرح ديباجة كتاب كبير للشيخ عنوانه «الفتوحات» ويُعرف أيضًا بعنوان «الفتوحات المكية» لأنه قام بتأليفه أيام إقامته بمكة.. شجَّعتُ «عبد الله» على الذهاب، خصوصًا أن الشيخ سوف يعقد مجالسه بعد صلاة العشاء، وهذا وقتٌ لا يلقي فيه بقية الشيوخ الدروس، فذهب معي على هونٍ.

عند محراب الصحابة، وهو أقدم محاريب الجامع الأموي، وجدنا ازدحامًا في اليوم الأول فجلسنا خلف الصفوف. وفي اليوم التالي وبقية الأيام، كنّا نذهب مبكرًا ونصلي قرب المحراب لنكون قرب الشيخ. فقد بهرنا حديثه من أول يومٍ وذهب بأفكارنا بعيدًا، حتى إننا عدنا ليلتها إلى حجرتنا، من دون أن ينطق أحدنا بشيء. وفي الصباح قال لي أخي عبد الله: مَنْ أراد أن يعرف مصداق قول النبي: «إن من البيان لسحرًا» فعليه أن يستمع إلى محيي الدين بن عربي. فوافقته الرأي إيماءً برأسي، من دون أن أنطق بكلمةٍ، لاستغراقي التام في معاني ما سمعته بالأمس من هذا «الشيخ الأكبر».

كنّا وقتذاك على أعتاب الثامنة عشرة من عمرينا، وكان «ابن عربي» في حدود الستين من عمره، أو تعدّى تلك السنّ بسنواتٍ قليلة. لكنه متوقِّدُ الذهن، لمّاحُ بكلامه الهادئ وإشاراته، دقيقُ التبيان لأدقِّ المعاني وأغرب المفاهيم. فكأنه يفجِّر بمفرداته البراكين، ويحرِّك الزلازل في العقول والقلوب. وقد جاورنا في مجالسه تلك، التي استمرت عشر أمسيات، جمٌّ غفير من العلماء والمتعلمين. كان منهم صدر الدين القونوي تلميذ «ابن عربي» وربيبه، وشابٌّ خراساني من أهل «بلخ» بهيُّ الهيئة أنيق الملبس، اسمه «جلال الدين بن بهاء الدين» كان يكبرنا ببضعة أعوامٍ، ويكتب وراء الشيخ بعض عباراته في أوراق. سألته عنها، فقال إنه يؤلف كتابًا في الفقه ولطائف

المعارف، وهذه مسوَّداته الأولى. وجرى بيننا هذا الحوار القصير، بعدما سألته مجددًا:

ـ وماذا سيكون عنوان كتابك؟

ـ فيه ما فيه.

ـ عنوان طريف.. كيف اهتديت إليه؟

أجابني بأنه استوحاه من كلام الشيخ الأكبر، وبعض شعره. وبعد سنواتٍ طوال وبعدما استقرت حياتي بالقاهرة، عرفتُ أنَّ هذا الشاب البلخي استقر بمدينة «قونية» بشمال الشام، وأتمَّ هناك كتابه الذي ذكره لي، ثم هجر الفقه وتوغَّل في الطريق الروحي والتصوف، وصار يؤلف بالفارسية أشعارًا اشتهرت واشتهر بها، والتفَّ حوله مريدون كثيرون أطلقوا عليه لقب: مولانا جلال الدين الرومي. وبلغني سنة اثنتين وسبعين وستمائة، أنه توفي بقونية ودُفن بها، رحمه الله.

في مجالسه المسائية بالجامع الأموي، كان «ابن عربي» يتكلم برويةٍ، وكثيرًا ما كان ينظر أثناء حديثه نحو السقف وجدران الجامع. فكان ذلك يشعرنا بأنه زاهدٌ في كلامه، وفينا. وفي آخر مجلسٍ حضرناه، كنتُ جالسًا بالصف الأول إلى جهة اليمين منه، وقبل أن يختتم جلسته تلك، نزل بعينيه من أعالي الجامع ونظر إليَّ وهو صامتٌ تمامًا، ومحدِّقٌ في عيني بنظرة فيها معانٍ يصعب التعبير عنها. شعرتُ وقتها بأن هذه اللحظة المتفرِّسة برفقٍ، دامت دهراً.

ثم أشرق وجه الشيخ وابتسم لي، وعاد بنظره إلى سقف الجامع وجدرانه وقال لسامعيه: هل تعلمون أن هذا الجامع المبارك، كان قبل قرون من الزمان كنيسةً، وكان قبل الكنيسة معبدًا للأوثان. ثم أنشد من شعره:

عَقَدَ الخَلَائِقُ في الإِلهِ عَقَائِدًا
وأَنَا اعْتَقَدتُ جَميعَ ما عَقَدُوه

فاضطربت قلوبُ الحاضرين وكبَّر بعضهم وتأوَّه البعض الآخر، ومنهم من صاح بلفظ الجلالة. وفي غمرة اضطراب الجمع، خرج «الشيخ الأكبر» مغادرًا، وتبعه جماعةٌ من مريديه. ولم أره مجددًا من بعد ذلك المجلس. لكنني بعدما سمعته وعقلتُ معانيه، عدلتُ عن حضور دروس علم الكلام والإلهيات، فقد أدركت أن معظم كلام الفلاسفة والأصوليين عن الذات الإلهية، هو تخبُّطٌ معبرٌ عنه بزخرف المفردات.

ومع أنني كنتُ منذ ذاك الزمن الدمشقي المبكر، سريع الحفظ لما أقرؤه في الكتب أو أسمعه من الأساتذة، ويسهل عليَّ استعادته. إلا أن ديباجة كتاب «الفتوحات المكية» كان لها معي شأن خاص. فقد شعرتُ أن حروفها حُفرت بداخلي، ونُقشت كلماتها فوق جدار دماغي. وعند عودتي إلى دارنا يوم الإجازة، أعني الجمعة، ألقيتُ من ذاكرتي على مسامع أبي، نصَّ افتتاحية كتاب «الفتوحات». فسمعني حتى انتهيتُ، ثم قام من

أمامي دون أن يعقِّب بشيء، وذهب إلى حجرته بخطو الحائرين. ومع أن ستين سنة قد مرَّت الآن على تلك المجالس، إلا أن أصداء صوت «ابن عربي» وهو يشرح ديباجة كتابه، لا تزال تتردَّد بداخلي. وكثيرًا ما كانت نظرته إليَّ، وابتسامته لي، تأتيني في نومي وأستحضرها في صحوي فأطمئن بها. وخصوصًا عندما تحتدم من حولي الأحوال، وتسوء ظروف الزمان. وفي أوقات الصفو أيضًا، كنتُ كثيرًا ما أستعيد في سرِّي كلمات هذه الديباجة، وأستحضر شرح الشيخ الأكبر لمعانيها، وهيئته وهو يغوص بنا في معاني مقدمته هذه، التي يقول نصُّها:

الحَمْدُ للهِ الَّذي أَوْجَدَ الأَشْيَاءَ عَنْ عَدَمٍ وعَدَمه، وأَوْقَفَ وُجُودَهَا عَلَى تَوَجُّهِ كَلِمِهِ، لنتَحَقَّق بِذَلِكَ سِرَّ حُدُوثِهَا وقِدَمِهَا مِنْ قِدَمِهِ، ونَقِف عِنْدَ هَذَا التَّحْقِيقِ عَلَى مَا أَعْلَمَنَا مِنْ صدْقِ قَلَمِه. فَظَهَرَ سُبْحَانَهُ وظَهَّرَ وأَظْهَرَ وَمَا بَطَّنَ، ولَكِنَّهُ بَطَنَ وأَبْطَنَ، وأَثْبَتَ لَهُ الاسْمَ «الأَوَّلَ» وُجُود عَيْنِ العَبْدِ، وقَدْ كَانَ لَهُ ثَبَت، وأَثْبَتَ لَهُ الاسْمَ «الآخِرَ» تَقْدِيرُ الفَنَاءِ والفَقْدِ، وقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَاكَ ثَبَت. فَلَوْلَا العَصْرُ والمُعَاصِرُ، والجَاهِلُ والخَابِرُ، ما عَرَفَ أَحَدٌ مَعْنَى اسْمِه «الأَوَّلِ والآخِرِ» ولا «البَاطِنِ والظَّاهِرِ». وإنْ كَانَتْ أَسْمَاؤُه الحُسْنى، عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ الأَسْنَى، ولَكِنَّ بَيْنَهَا تَبَايُنًا في المَنَازِلِ. يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ عِنْدَمَا تُتَّخَذُ وَسَائِل، لحُلُولِ النوازِل. فَلَيْسَ عَبْدُ الحَلِيمِ هُوَ عَبْد الكَرِيمِ، وليس عَبْدُ الغَفُورِ هُوَ عَبْد الشَّكُورِ. فَكُلُّ عَبْدٍ لَهُ اسْمٌ، هُوَ رَبُّه. وهو جِسْمٌ، ذَلِكَ

الاسْمُ قَلبُه. فَهُوَ العَلِيمُ، سُبْحَانه، الَّذِي عَلِمَ وعَلَّمَ. والحَاكِمُ، الَّذِي حَكَمَ وحَكَّمَ. والقَاهِرُ الَّذِي قَهَرَ، وأَقْهرَ. والقَادِرُ الَّذِي قَدَّرَ وكَسَّبَ وَلَمْ يُقْدِر، البَاقِي الَّذِي لَمْ تَقُمْ بِهِ صِفَةُ البَقَاءِ، والمُقَدَّسُ في المُشَاهَدَةِ عَنِ المُوَاجَهَةِ والتَّلَقَاءِ. بَلِ العَبْدُ فِي ذَلِكَ المَوْطِنِ الأَنْزَه، لَاحِقٌ بالتنزيه، لَا أَنَّه سُبْحَانهُ وتَعَالَى فِي ذلك المُقَام يَلْحَق بِهِ التَّشْبِيه. فَتَزُولُ عَنِ العبدِ فِي تِلْكَ الحَضْرَةِ الجِهَاتُ، وينعَدِمُ منهُ عِنْدَ قيامِ النَّظْرَةِ بِهِ الالتِفَاتُ. أَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَا فِي صِفَاتِهِ وعَلَّا، وجَلَّ فِي ذَاتِه وجَلَّى. وأَنَّ حِجَابَ العِزَّةِ دُونَ سُبْحَاتِه مُسْدَلٌ، وبابَ الوُقُوف على مَعْرِفَةِ ذَاتِه مُقْفَلٌ. إِنْ خَاطَبَ عَبْدَهُ فَهُوَ المُسْمِعُ السَّمِيعُ، وإِنْ فَعَلَ ما أُمِرَ بِفِعْلِهِ فَهوَ المُطَاعُ المُطِيعُ. ولمَّا حيرَّتْنِي هَذِه الحَقِيقَةُ أَنْشَدْتُ عَلَى حُكْمِ الطَّرِيقَةِ الخَلِيقَةِ:

الرَّبُّ حَقٌّ والعَبْدُ حَقٌّ

يَالَيْتَ شِعْرِي مَنِ المُكَلَّفُ

إِنْ قُلْتَ عَبْدٌ فَذَاكَ مَيْتٌ

أَوْ قُلْتَ رَبٌّ، أَنَّى يُكَلَّفُ

فَهو سُبْحَانهُ يُطِيعُ نَفْسَهُ إِذَا شَاءَ، بِخَلْقِه، وينْصِفُ نَفْسَهُ مِمَّا تَعَيَّنَ عَلَيْه، مِنْ وَاجِبِ حَقِّهِ. فَلَيْسَ ثَمَّةَ إِلَّا أَشْبَاحٌ خَالِيَة، عَلَى عُرُوشِهَا خَاوِية. وفِي تَرْجِيعِ الصَّدَى، سِرُّ مَا أَشَرْنَا إِلَيهِ لِمَنِ اهْتَدَى.. فإِذا جَعَلْتَ الجَنَّةَ جَزَاءً لِمَا عَمِلْتَ، فَأَيْنَ الجُودُ الإِلَهِيُّ الَّذي عَقَلْتَ. فَأَنْتَ عَنِ العِلْمِ بِأَنَّكَ

لذَاتِكَ، مَوْهُوبٌ، وعَنِ العِلْمِ بأَصْلِ نَفْسِكَ مَحْجُوبٌ. فَإِذَا كَانَ ما تَطْلُب بِهِ مِنَ الجزَاءِ، لَيْسَ لَكَ، فكَيْفَ تَرَى عَمَلَكَ. فَاتْرُكِ الأَشْيَاءَ لِخَالِقِهَا، والمرْزقَات ورَازِقَها، فَهوَ الوَاهِبُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ، وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ.

* * *

لم يحضر توأمي «عبد الله» المجالس الثلاثة الأخيرة للشيخ الأكبر، ولم يخبرني بالسبب، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يُخفي عليَّ فيها شأنًا من شئونه، فأثار ذلك استغرابي. فلما تكرَّر منه ذلك، وصار يغيب عني في أوقاتٍ مختلفة ونحن بدمشق، سألته عما يكتمه عني وألْحتُ. فصارحني بأنه يهوى فتاةً نصرانية، ويلتقي بها، وهو شغوفٌ بها شغفًا عظيمًا ويريد أن يتزوجها.. قلتُ له:

- كيف سيرضى أبوك بذلك يا عبد الله؟ وماذا عن «فاطمة» بنت عمنا «أبو الكرم»؟

- لم أقل يومًا إني سأتزوَّج فاطمة.

- لكن الجميع يعرفون..

- الجميع يتوَّهمون ولا يعرفون أيَّ شيء، وأنا لن أتزوَّج إلا «ليئة».

بعد يومين، طلب مني «عبد الله» ما يشقُّ عليَّ فعله، وتوسَّل إليَّ بعينٍ تكاد تدمع، فخيَّرني. فقد أراد أن أخبر أبانا، برغبته في الزواج من محبوبته النصرانية، والإلحاح

عليه حتى يوافق.. في الصباح التالي ذهبتُ فور استيقاظي إلى عمنا «بشير القرْشي» بالبيمارستان، لأستشيره في الأمر وأسأله عن تلك الفتاة وأسرتها، لأنه يسكن بأولاده بجوارهم في الحيِّ الدمشقي المسمَّى «باب توما» وهو حيٌّ قديم، معظم سكانه من النصارى. وجدته خارج البيمارستان، عند ناحية السوق المجاور، يواسي رجلًا يبكي بحرقةٍ وهو يفترش الأرض.

أخبرني عمنا «بشير» بأن هذا الباكي المسكين اسمه «سمعان» وهو مقعدٌ منذ سنواتٍ بسبب عطب في أعصاب ساقيه، فلا يستطيع القيام أو المشي، ولما أيس الأطباءُ من علاجه أمروا قبل فترة بإخراجه من البيمارستان، بعدما أقام فيه ثلاثة أعوام بلا أملٍ في الشفاء، أو علامات تدل على تحسُّن حاله. فجلس القعيد في السوق يستعطي من الناس الصدقات، وهو الآن يريد العودة للإقامة في البيمارستان هربًا من برد الشتاء، وأملًا في توفُّر وجبات الطعام. قال له عمنا «بشير» إنه ليس بمقدوره التوسُّط لإعادته، لكنه سيعطيه لحافًا يقيه من البرد، وسوف يحرص على إرسال الطعام له كلما وجد إلى ذلك سبيلًا.. بعد ذلك انتحى بي العمُّ بشير جانبًا وسألني عما جاء بي مبكرًا، فأخبرته. قال إنه سمع بهذا الأمر قبل يومين، من زوجته، فلم يعلِّق. ظنًّا منه بأن الأمر، لا يتعدَّى لحظة طيش عابرة من أخي عبد الله.. وتفكَّر لحظةً ثم أضاف وهو يهزُّ رأسه متحيِّرًا، أنه يعرف الفتاة وأهلها لأنهم

جيرانه بالجنب. قال: البنت مليحة وسيرتها حسنة، لكنها كبيرة السن، أظنها مثلكما في الثامنة عشرة من العمر، وأبوك لن يقبل أبدًا بزواج أخيك منها، مستحيل أن يقبل.. قلتُ:

ـ لماذا يا عمّ بشير؟

ـ لماذا! لأنها نصرانية. ولأن أباها اسمه «عبد المسيح» ويعمل هو وأولاده في تقطير النبيذ، ويبيعه في دكان له قرب باب توما. قُل لأخيك أن يصرف نظره عن الأمر، فلا سبيل إليه.

بعد الغروب عاد «عبد الله» إلى حجرتنا مشرقًا مبتهجًا، ولما رآني مهمومًا انقبض قلبه وتوجّس، واختفت الابتسامةُ من وجهه الذي اصفرّ. قلتُ له ما سمعته من عمِّنا «بشير» فأطرق، ثم دمعت عيناه واحتقن وجهه. وبعد وجومٍ رفع رأسه وصاح متحدِّيًا: سوف أتزوَّجها، ولن يمنعني عنها مانع، وإذا لزم الأمر فسأذهب بها إلى العراق ونقيم هناك.. أدهشني كلامه، لكنني لم أُظهر الجزع وقلت له بهدوء: يا عبد الله، أحوال العراق مضطربة، والناس تهاجر منها إلى هنا.. فصاح فيَّ قائلًا.

ـ إذن، سأذهب بها إلى «الكَرَك» أو إلى مصر، أو لأيِّ بلد.

ـ كيف، وأنت لا تملك المال؟

ـ سأعمل بأيِّ مهنة. يا عليّ، لا تحرق قلبي، وتحدَّث

مع أبي فربما يوافق. وقل له إن الله قال للمستضعفين في الأرض: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

أدركتُ بغتةً حقيقة حال «عبد الله» إذ تجوَّلتْ داخل دماغي كلماتُ الشيخ الأكبر «ابن عربي» حين قال لنا في ثنايا مجالسه: المحبّ ما هو بحكمه، وإنما هو تحت حكم سلطان عشقه. ثم أنشدنا من شعره، قوله: أدينُ بدين الحبِّ أنَّى توجَّهت ركائبه.. وأدركتُ أن «عبد الله» صار الآن بحُكم محبته لهذه الفتاة، فهو إذ ينظر لا يرى غيرها، بل لا يرى ذاته، وما نشأ عليه. وقد روى الإمام أحمد، من حديث النبي ﷺ قوله: «حُبُّك الشيء يُعمي ويُصم»..

الله المستعان. في الصباح التالي ذهبت إلى دارنا بالقَرْش، وفي نيتي أن أحادث أمي في الأمر، أولًا، فربما نجد لنا منه مخرجًا. وجدتها على سطح الدار بجوار الفرن، تخبزُ شيئًا أو تطبخ، وقبل أن أُفضي إليها بما عندي بادرتني بقولها: اسمعْ يا عليّ، أبوك في ضائقة هو وأعمامك بسبب الكساد، ويعزّ عليه أن يطلب منكما أن تأتيا من دمشق لمعاونته في العمل، لكنه يحتاج إليكما هذه الأيام بشدة. أين أخوك؟

- في دمشق، سأخبره الليلة. أين أبي؟

- في سريره، فهو لم ينم طيلة ليلته بسبب السعال وآلام صدره.

«الله يعفي عنه، سأنزل لرؤيته».. قلتُ لها ذلك وأسرعت إلى أبي فوجدته نائمًا في حجرته المغلق بابها.

انتظرتُ بحوش الدار حتى قام من سريره عصرًا، على غير معتاده. طمأنني عليه لكنني لم أطمئن، فقد قال إنه بسبب غياب العاملين معه، اضطر قبل يومين إلى الخروج في البرد فجرًا لجني الثمار وتسليمها للتاجر الدمشقي، فأصيب بهذا السعال.

رأيتُ أن الأمر يتعدَّى السعال إلى ما يثير القلق، نظرًا لشكواه من الوجع الثقيل بصدره، واقترحتُ عليه أن نذهب إلى البيمارستان بدمشق أو نستدعي أحد الأطباء، فرفض الاقتراحين. قلت له إنني سأذهب من فوري لإحضار دواء له، فقال: لا تذهب إلى دمشق ليلًا، فالطرق لم تعد آمنة، ودواء السعال معروف.

صحوتُ في اليوم التالي مع الشمس، وذهبت رأسًا إلى أخي «عبد الله» فأيقظته وأخبرته بمرض أبيه، فانزعج وخرج معي إلى البيمارستان.. قال لنا الطبيب إنه لن يصف دواءً لمريض لم يأت إليه ليفحصه، فهذا خطأ، وفي طريق عودتنا إلى دارنا وجدنا الحكيم «رضي الدين الرحبي» جالسًا يستمتع بشمس الصباح، أمام باب داره اللصيقة بالبيمارستان. وصفتُ له أعراض ما يعاني منه أبونا المريض، فقال إنه يخشى أن يكون مصابًا بورمٍ خنَّاقيٍّ في غضاريف قصبة الرئة، ولابد من المبادرة إلى علاجه بالبيمارستان قبل أن تسوء حالته.

استأجرنا حمارين وأسرعنا عليهما إلى دارنا، لنبادر بالذهاب بأبي إلى البيمارستان، لكننا وصلنا وقد تأخرت

المبادرة، وتدهورت أحواله خلال الليل.. أخبرتنا الوالدة وهي جزعة بأنه لم ينم منذ أمس، فقد عانى طيلة ليلته من الخوانيق والرجفات وتقطع الأنفاس. حاولنا وأعمامي معنا، أن نأخذه إلى دمشق لإسعافه، لكنه كان ينتفض بقوةٍ وتحشرج أنفاسه، وتحتبس.. وساعة الظهر مات، رحمه الله، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

مرّت أيامُ التعزية علينا وكلنا في الحزن والهمِّ غارقون، وكان «عبد الله» مع حزنه مصدومًا هائم الذهن كالمسلوبين، تنساب دموعه طيلة الوقت وينظر نحو ما حوله بعينيْ مذهول. سألته بعد أسبوع إن كان يود العودة إلى دمشق، فسألني: هل أخبرت أبي برغبتي في الزواج؟ هل أنا سببُ ما جرى له؟ اصدقني القول.. قلتُ له: كان مريضًا من قبل وصولي من دمشق، ومات ولم يسمع بقصّتك.

- لابد أنه سمع بها من غيرك، من عمِّ بشير أو من غيره، فقتله الحزن.

اختلى «عبد الله» بغرفةٍ صغيرة على سطح الدار، ولم يعد يكلِّم أحدًا، ولا يكاد يأكل، وظهرت عليه بعد أيام علامات اختلاط الذهن. أخذناه إلى البيمارستان وهناك فَصَدَه الأطباء، لظنهم أنه مريض بالبرسام، وفي الليل امتلأ جسمه بثورًا. تحيَّر الأطباءُ من ظهور هذه البثور، ومن انتشارها المفاجئ في البدن كله. ولم أكن وقتذاك قد اشتغلت بالطب، فلم أدرك أنها كانت بسبب تضرُّر طبيعة

البدن بما بقي فيه من المواد الحادة، بسبب خروج الدم الذي كان يكسر حدَّتها بدورانه في البدن، عبر الشرايين والأوردة.. فعندما فَصَد الأطباءُ أخي، تباطأت سرعة دوران الدم في بدنه ولم يعد كافيًا لتحليل المواد الحادة، فظهرت تلك البثور بسبب كثافة ولذع تلك المواد. وكان ذلك هو الخاطر الأول الذي أوحى لي لاحقًا، بما توصلتُ إليه من وصفٍ لدورتَي الدم في البدن، على النحو الذي شرحته في كتابي «الشامل» وفي شروحي على الأجزاء المتعلقة بالتشريح في كتاب «القانون في الطب» للشيخ الرئيس ابن سينا، رحمه الله.

وقد كرَّر الأطباءُ بجهالةٍ، فَصْد أخي «عبد الله» الذي اجتمعت عليه علَّةُ البدن، والإحساسُ بالأسف بسبب فقدان أبيه، ومحبوبته. فأخذ يذوي وينزوي في أغوار حزنه، حتى توفي رحمه الله في منتصف فصل الربيع سنة خمس وعشرين وستمائة للهجرة، بعد أربعة أشهرٍ من وفاة أبينا. كانت أربعة أشهرٍ مؤلمة، بطيئة الوطء، أمضيتُ نهاراتها في معاونة أعمامي بمزرعتنا النائمة خلف الدار، وقضيتُ لياليها الطوال ناظرًا نحو شقيقي التوأم الذي يتألم، ولا أملك ما يخفف عنه إلا همسي بكلمات المواساة: اللهم اعف عنه، يارب أنت الشافي المعافي، رب لا تذرني فردًا وأنت أرحم الراحمين.. ومع أن موته كان متوقعًا بعدما استطالت معاناته، إلا أنني جزعت لرحيله وأخذني من بعده صمتُ الذهول، إذ شعرتُ عقب وفاته بأنني نصف

ميتٍ ولولا لطف الله بي لكنت من الهالكين.. بعد وفاته بعشرين عامًا أو أكثر، كان الزمان قد استقر بي في القاهرة وصار لي فيها تلامذةٌ وطلاب، منهم شابٌّ ذكي من ناحية «الجيزة» كان يلازمني معظم الأوقات، وكنت أقرِّبه مني لاعتقادي بأن نباهته وقوة ذهنه وحرصه على التحصيل، ستجعله مستقبلًا من الحكماء المرموقين. لكنه قضى تحت الأنقاض، رحمه الله، في الزلزلة التي رجفت الأرض سنة اثنتين وستين وستمائة للهجرة النبوية.. كان هذا الشاب النابه اسمه «سعد» وفي هدأةٍ بعد الدرس، نظر نحوي بوجهٍ باسم، وقال لي وهو متردِّد: يا أستاذي المبجَّل، عفوك. عندي سؤالٌ يلحُّ عليَّ، لكنني أستحي من طرحه عليك.

- إن كان في العلم، فليس فيه ما يستوجب الحياء يا «سعد».

- هو في العلم بك..

أضحكني قوله، ولأنني لم أصادف منه سابقًا صفاقة أو سخافات، فقد طمأنته ليسأل فقال بأدب: أنت يا أستاذي معروفٌ بالتواضع، والجميع يشهدون بذلك، فلماذا تشير إلى نفسك في مؤلفاتك بصيغة الجمع، الدالة على تعظيم الذات؟.. أدهشني سؤاله وعاد بي إلى زماني الأول، وبعد برهةٍ من الصمت أجبته: ربما كانت هذه يا سعد، صيغة المثنى، لا الجمع. وأظنها من اللوازم التي علقت بي، من قبل وفاة توأمي «عبد الله» فقد كنا نتقاسم كل شيء. نأكل معًا، وندرس معًا، ونأتي ونذهب معًا. فاعتدت الإشارة

إليَّ، بصيغة المثنى التي ظننتها أنت جمعًا.

* * *

بعد وفاة أخي وأبي، انقطعت أمي عن الجميع بحجرتها، ولم تعد تكلِّم أحدًا إلا نادرًا، وخيَّم الحزن في دارنا وغمر الجميع. أعني أعمامي وزوجاتهم والكبار من ذريتهم. وجاء يوم عيد الفطر في خريف سنة الأحزان هذه، الخامسة والعشرين بعد الستمائة، وكان يوم أحد. بعد صلاة العيد خطرتْ ببالي بتوفيق من الله فكرتان، الأولى عرضتها على أعمامي فوافقوا. وهي استئجار دكان في سوق «دار البطيخ» بدمشق، وننقل إليه الفواكه والخُضر والرياحين يومًا بيوم، بأنفسنا، بدلًا من بيعها هنا للتجار كل أسبوع مثلما كنّا نفعل. وتمَّ ذلك، فكان بابًا واسعًا للرزق، اجتاز منه أعمامي الضائقة التي كانت تمر بنا. والفكرة الأخرى، عرضتها ساعة العصر على أمي قاصدًا إبهاجها، أو على الأقل إخراجها من حصار الأحزان. قلت لها إنني أدخل عامي التاسع عشر، وفاطمة ابنة عمي «أبو الكرم» بلغت من عمرها الخامسة عشرة. قاطعتني وقد ظهر عليها الاهتمام:

- تريد أن تتزوَّج يا عليّ؟

- أريد أن أُفرحك بالأحفاد..

- قم معي إلى عمك أبو الكرم. انتظر لحظة، سأغسل وجهي وأُبدِّل هذا الثوب.

تزوَّجنا بتوفيقٍ من الله في الشتاء، ووجدتُ في «فاطمة» نِعْمَ الزوجة الرقيقة الشفيقة، وأنجبتْ لنا في العام التالي

ولدي «عبد الله» فعاد إلى الدار شيءٌ من السرور، واستعدنا بالمولود البسمة من بعد طول العبوس، وكادت أحوالنا جميعًا تعتدل مع مرور الأيام لولا ما فعله عسكرُ الملك الكامل الأيوبي من فظائع.

في تلك الفترة أقمتُ مع زوجتي وولدي الرضيع بدارنا، وكنتُ أذهب إلى دمشق بانتظام كل يومين، فأطمئن على الدكان الذي يبيع زراعتنا التي صارت تجارتنا، ثم أعرّج في طريق عودتي على سوق «الورّاقين» فأستأجر منهم الكتب لقراءتها، بسعر زهيد.. التهمتُ أيامها كل ما وقع بيدي من الكتب، في شتى المعارف والفنون، فلم أعد مقتصرًا في شغفي بالمعارف على المعارف الشرعية التي كان أبي رحمه الله، يدفعنا نحوها لتحقيق أمنيته التي ماتت بموته، وموت أخي.

ثم بدا لي أيامها أن من الأنسب لي، الانتقال إلى دمشق والعيش فيها بشكل دائمٍ مع أمي وزوجتي وولدي، ونسكن قرب «سوق البطيخ» فأتابع عملي عن قرب. هذا السوق يسمى بذلك الاسم، مع أنه ليس مختصًا بالبطيخ أو بغيره، وإنما تباع وتشترى فيه الفواكه كلها وجميع ورقيات الخضراوات، وكافة ما تخرجه الأرض من خيرات.. في صبيحةٍ مبكرةٍ، كنتُ جالسًا بداخل الدكان مستغرقًا في فكرة الانتقال للإقامة بدمشق، ولحظتها سمعتُ بقلب السوق صخبًا وجلبة وتكبيرات. خرجتُ أستطلع ما يجري فوجدتُ الناس يهللون بالتكبيرات، فالرجل «سمعان»

الذي ظلَّ قعيدًا لسنوات، وعجز أطباء البيمارستان عن علاجه فجلس في السوق يشحذ. جرى معه أمرٌ عجيب، فقد انتبه وهو مستلقٍ بين أقفاص الفاكهة، إلى ثعبان كبير الرأس يتزحف نحوه، فصرخ وتولاه الرعبُ. ولمَّا لم يغثه أحد وأوشك الثعبان الذي اقترب منه أن ينهشه، قام يجري بعيدًا، وسلمت ساقاه فجأةً. ولم تعاوده بعد ذلك، العلَّةُ التي أقعدته لسنوات عديدة. وكان ذلك من أغرب ما رأيتُ، ومما دعاني لإعادة النظر في مهارة أطباء البيمارستان، أو بتعبير أدق انعدام مهاراتهم.

لم تسمح أحوالُ الزمان بانتقالي إلى دمشق، ولا ببقاء الدكان، ففي تلك السنة السادسة والعشرين وستمائة، جرت حروبٌ وأهوالٌ بين الملوك الأيوبيين المتناحرين فيما بينهم، واهتاجٍ طَمَعُهم في الممالك التي أورثها لهم مؤسِس دولتهم، وقسَّمها بينهم. وفي غمرة تناحرهم، لم يراعوا حرمةً للبلاد أو العباد، بل وارتضوا بالمخازي من غير خجلٍ أو تُقى. فأعطى الملك «الكامل» الأيوبي، حاكم مصر، مدينة القدس للفرنج كهديةٍ مقابل هدنةٍ، ليتفرَّغ لمحاربة عسكر أخيه الملك المعظم «عيسى» الأيوبي حاكم دمشق، ووريثه الملك «الناصر» داوود بن عيسى الأيوبي. وبعد تسليمه للقدس، عاث جند الملك «الكامل» في دمشق وما حولها، وأحرقوا الدور، ونهبوا ممتلكات الآمنين. وقتلوا من المسلمين، غير المقاتلين، عددًا كبيرًا كان منهم جيران لنا ومعارف.

وبعدما استطال هذا الهول عدة أسابيع، تراضى الملوك المتحاربون على أن ينال «داوود الأيوبي» حكم الكَرَك ونابلس وعجلون، ويتزوَّج ابنة «الكامل الأيوبي» مُهدي القدس. وبهذا خمدت بينهم الحروب بعدما خربت مزرعتنا بالقَرْش، وما حولها من مزارع. وبسبب تلك الويلات التي جرت، غلت الأسعار وعزَّت الدنانير والدراهم وكثرت الفلوس، وكسدت التجارات. وفي غمرة ذلك أُغلق الدكان الذي كان لنا في دمشق، مع كثيرٍ من الدكاكين التي أُغلقت والبيوت التي أُحرقت من حوله. فصرفتُ النظر عن الانتقال بأسرتي للعيش بدمشق، وبقيت مع أعمامي نسعى جاهدين للخروج من آثار الحرب التي آذتنا، من دون ذنب أو إنذار.

عاش أهلُ الشام وقتذاك في ضَنْكٍ وعَنَتٍ، فما كادت حروب الملوك الأيوبيين فيما بينهم تخمد، حتى امتلأت قلوب الناس بالرعب من عسكر الخوارزمية، المسلمين، لأن جلال الدين «منكوبرتي» وريث «محمد خوارزم شاه» على العرش، عندما لم يستطع الوقوف في وجه التتر شرقًا، تولّى بجيشه غربًا وراح يقتحم البلاد الآمنة. ويطلق لعسكره العنان فيفعلون في البلاد والعباد مثل ما يفعله التتر، وربما أفظع، بلا خجلٍ من أن المعتدي والمعتدى عليه، مسلمون. وأخذ الناسُ في الشام يدعون على عسكر الخوارزمية بسوء المصير، ويهربون من منازلهم خشيةً منهم، فاستجاب الله لدعاء المظلومين. وانهزم «جلال الدين منكوبرتي» وعسكره

بأيسر مئونة، ولقي هذا الرجل أشنع مصيرٍ وأبشع قتلةٍ، على يد رجل من الأكراد.. وبمقتله انفسح للتتر المجال فاندفعوا غربًا بعسكرهم، واقتحموا البلاد، وعاثوا في الأرض فسادًا.

وفي تلك الأثناء حبلت زوجتي «فاطمة» ثانيةً وعانت كثيرًا في حملها، وبعد ولادها، فقد أنجبتْ ثلاثةً من حَبَلٍ واحد. وهذا أمرٌ قليل الحدوث، ولم يكن متوقعًا من امرأةٍ مثلها، نحيفة البدن ضعيفة البنيان.. وقد انتبهت لاحقًا، بعدما اشتغلت بالصناعة الطبية، إلى أنه كان لي أخ توأم وزوجتي كانت لأمها أختٌ توأم، فكأن الأمر يشبه أن يكون وراثيًّا. لكنه لا يسير على نسق محدد، وقد يتكرَّر في الذرية أو لا يتكرَّر، وقد أشرت إلى ذلك في كتابي: رسالة في مواليد الثلاثة.

عانت «فاطمة» طويلًا من أولادنا الثلاثة، التوائم، خصوصًا أنها حملت بهم وهي ما تزال تُرضع ولدنا «عبد الله» فاضطُرت إلى فطامه قبل تمام العامين. ثم صار عليها بعد شهور أن تُرضع مع هزال بدنها، ثلاثة. وازداد الحال صعوبة لأن أمورنا وقتذاك لم تكن تسمح بكراء مرضعات، فكان جُلُّ اعتمادنا على المتطوعات من الجارات. لكن ذلك لم يُجد نفعًا، ومات في الأشهر الأولى اثنان من المواليد الثلاثة، تباعًا، وبقي الثالث يعاني من الهزال الشديد هو وأمه، حتى توفي وعمره عامٌ وحيد.

كانت سنِّي وقتذاك قد بلغت اثنين وعشرين عامًا،

وعندما دخل علينا شتاء ذاك العام، أعني التاسع والعشرين بعد الستمائة، مرضتُ بحميَّاتٍ مختلفة استمرت مدة، ولم ينفع معها علاجُ الأطباء. وعرض لي معها استسقاءٌ طبلي، فانتفخ بطني وصار كالقِرْبة. ومع دوام المعاناة، وكثرة ما كنتُ أرى أخي الراحل «عبد الله» في أحلامي، غلب على ظني أنني سأترك الدنيا عما قريب. وقد سكنتْ نفسي عندما استسلمتُ لفكرة موتي، ورأيتُ أموري كلها وجميع ما يحتويه الكونُ، على نحوٍ مختلف عما اعتدت عليه من قبل. خصوصًا بعدما أيستُ تمامًا من شفائي، ويئس الأطباءُ والعوَّادُ والأقارب.. ثم جرى أمرٌ عجيب.

كان جماعة من الفقراء وزهَّاد الصوفية يأتون عندنا، ويرتلون الأذكار وينشدون الأشعار بالأنغام اللذيذة، فتركتُ فراش المرض وتحاملتُ على نفسي وجلستُ معهم، ودخلتُ في أحوالهم. فوجدتُ بصحبتهم، في ليلتي الأولى، خفةً وارتياحًا لا أعرف سببه. وساء ظني بالأطباء فصرتُ أفعل عكس ما يشيرون به، سواءً كان حقًّا أو باطلًا، وتركتُ تناول الأدوية التي وصفوها. وصرتُ أُدخل الطعام على الطعام، وأُكثر من أنواع الأغذية وخصوصًا الغليظة عسرة الهضم، وأتناول الفواكه التي حذَّر منها الأطباء، وأفعل ما يخالف التدابير التي أوجبوها عليَّ. والتزمت في الليلات التاليات، والنهارات، بصحبة وملازمة أولئك الصوفية، فطابتْ لي أحوالهم والتذذتُ بها. وبعد عشرين يومًا، عوفيتُ من تلك المرضة،

وعاد بدني إلى حال الصحة. فحملني سوءُ الظن بأولئك الأطباء، على الاشتغال بصناعة الطب، لأنفع بها الناس وأُخفِّف آلامهم بقدر ما أستطيع.

عدتُ إلى دمشق لاستكمال دراسة الطب، فكان الفاضل «مهذب الدين الدخوار» قد توفي وتحوَّلت داره إلى مدرسةٍ طبية، فتردَّدت عليها شهرًا أو شهرين. ثم صحبتُ الحكيم الفاضل «عمران بن صَدَقة الإسرائيلي» وقرأتُ عليه كتب أبقراط وجالينوس، فأفادني ذلك كثيرًا. ولزمتُ الحكيم الفاضل «رضي الدين الرحبي» فتعلمتُ منه أسرار الكحالة، وفنون طب العيون. استغرق ذلك مني قرابة عامين، كنت خلالهما كثير الاطلاع على ما كتبه الأطباء السابقون، من رسائل وكتب وكنانيش، وخلال ذلك صادفتني مؤلفات «الشيخ الرئيس» العبقري، أبي عليّ الحسين بن سينا.

قرأتُ كل ما كتبه الفاضلُ «ابن سينا» فوجدته في الطب بارعًا ومستحقًّا بالفعل لقب «الشيخ الرئيس» أما في الحكمة والفلسفة، فكان نصيبه عندي أقل. إذ وجدتني ميالًا إلى رفض آرائه، ومضطرًّا إلى الاعتراض عليه ومعارضته. ولكن، ليس بالشكل الحاد ولا الرفض التام، الذي وجدته لاحقًا عند الصوفي الأندلسي العجيب «محمد بن عبد الحق» المعروف بابن سبعين.. التقيتُ مرةً واحدة بابن سبعين في القاهرة، حين أقام بها عدة سنوات قبل ذهابه إلى مكة واستقراره فيها إلى وقت وفاته هناك.

وابن سبعين هذا رجلٌ محيِّر، يجمع بتناغمٍ غريب بين المتناقضات. فهو زاهدٌ في الدنيا لكنه حادُّ الطباع، شديد الذكاء لكنه كثير الاندفاع، يلبس الخرق على طريقة المتصوفة لكنه متبحِّرٌ في الفلسفة وعلوم الحكمة. كتب في شبابه المبكر كتابه المبهر «بُد العارف» وكان أثناء إقامته ببلاد المغرب، قبل مجيئه إلى مصر، هو الوحيد الذي ردَّ على الأسئلة الفلسفية التي أرسلها لعلماء الإسلام، الإنبرور «فِردريك» حاكم صقلية وما حولها، وهو ملك الفرنج الذي أهداه الملك الكامل الأيوبي مدينة القدس عربونًا للتحالف والمحبة. وجعل ابن سبعين ردَّه على أسئلة الإنبرور، كتابًا بديعًا في الحكمة والمنطق، وأعطاه عنوان: الكلام على المسائل الصقلية.

كان لقائي الوحيد بابن سبعين في المسجد العتيق، بالفسطاط، بعد صلاة يوم الجمعة. ولم يكن ذاك اللقاء مرتقبًا ولا متفقًا عليه من قبلها، فقد انعقد ذاك المجلس صدفةً بصحن الجامع، وانضم إليه بعض الكبراء والأمراء. وأحضر أحدهم لنا من سوق الشوائين القريب لحمًا وخبزًا محشوًّا بالبصل ومفروم اللحوم، وخبزًا كثيرًا. نظر ابن سبعين إلى الطعام متأملًا، ولم يأكل معنا. وأثناء ذلك، ومن دون أيِّ داعٍ أو تمهيد، قال له صديقي «جمال الدين بن واصل الحموي» وهو يشير إليَّ، إنني أعقد مجالس أسبوعية لشرح مؤلفات ابن سينا.. فلما سمع «ابنُ سبعين» منه ذلك، استفاق من هيامه في تأملاته، وقال وهو ينظر

نحو أصابع قدميه: لقد قلتُ في كتابي «بُد العارف» إن ابن سينا مُموِّه مُسفسطٌ، يزعم أنه أدرك الفلسفة المشرقية، وهو في العين الحمئة.

تأذيتُ من هذا القول الجريء، الجائر، فأخذتُ حذائي وقمت مغادرًا من فوري. وغاضبًا. لكنني بعدما وصلتُ إلى منزلي وهدأت، عاتبت نفسي على اندفاعي، فقد كان الواجب أن أصبر قليلًا. فربما أراد الرجل أن يعدِّل تجريحه الذي كتبه في شبابه، أو يعيد النظر في نظرته لابن سينا.. وهو يقصد كلام ابن سينا في الفلسفة والحكمة، ولا يقدح في المؤلفات الطبية التي هي محلُّ تقديري وإعجابي. نعم. كان يجب أن أصبر قليلًا، فإن وجدتُ رأي «ابن سبعين» باطلًا، رددتُ عليه بهدوءٍ. عملًا بالمبدأ الذي جعلته لنفسي في العلم، قاعدةً واجبة الالتزام، أعني: إعلاء الحق ونُصرة مناره، وخذلانُ الباطل وطمس آثاره.

والحقُّ، فإن الشيخ الرئيس «ابن سينا» في جملته محيرٌ. فهو في تآليفه الطبية ومعارفه الصيدلانية متبحرٌ، بديعُ العبارة دقيقُ العَرْض وفيرُ الخبرة بالغُ الإتقان. وأخطاؤه نادرة، وربما كانت من سهو النساخ. ولا أظن أنه جاء منذ زمن أبقراط، طبيبٌ مثله، مع فضل جالينوس وأبي بكر الرازي وبقية الحكماء المتبحرين في علوم الطب وفنون المداواة. وقد بلغ إبداع ابن سينا غايته، في كتابه «القانون في الطب» حيث أجاد في مجلداته الخمسة، عرض جانبَي الطب، النظري والعملي، بقسميه الكلي والجزئي. فاستوفى

ذلك كله، ابتداءً من دقائق التشريح حتى أمور الزينة. فهو كتابٌ جامعٌ، لا يستغني عنه أي طبيب. وقد أدهشني الإهمال الذي لقيه كتاب «القانون» ولم أقبل به، فقمتُ بعد استقرار حياتي في القاهرة بشرحه تفصيلًا، في كتب ومجالس لا حصر لها.

أما في كتبه الفلسفية فكان الشيخ الرئيس كثير المتابعة لأرسطو، ويحسب له اهتمامه بالمنطق، وحرصه على شرح أقسامه وتبيان الحاجة إليه. والمأخذُ الوحيد عندي على الشيخ الرئيس ابن سينا، رحمه الله، هو بعض أقواله في الإلهيات. فقد قرَّر أمورًا لا يمكنني قبولها، مثل قوله بإنكار الحشر الجسماني في الآخرة. على اعتبار أن النفس أشرف من البدن، وهي التي تستحق الخلود من دونه، وأن السعادة النفسانية أعلى مرتبة من اللذات الحسية، وأنه يصعب إعادة الجسم وبعثه بعد فنائه.. والرأيُ عندي أن النفس والجسم، كلاهما شريف، ولا يقوم أحدهما في الإنسان بدون الآخر. والذي يُحيي العظام وهي رميمٌ، هو خالقها الذي أنشأها أول مرةٍ، وهو بكل خلقٍ عليم. سبحانه. أما ظنه بأن السعادة النفسانية أرقى من المتع الحسية، فهذا فيه نظر، خصوصًا لمن كان طبيبًا بارعًا مثله، ويعرف أن أحوال النفس تؤثر في البدن. فالإنسان إذا انفعل بشدة بصرف النظر عن طبيعة انفعاله، أعني إذا خاف أو ابتهج أو ارتعب أو رأى محبوبه أو ترقَّب. وهذه كلها انفعالات وأحوال نفسانية. تزايد نبضه وأسرعت

دقات قلبه واندفع الدم في بدنه بأسرع من المعتاد، وربما غلبه الغشي فأُغمي عليه. وتلك جميعها أفعالٌ محسوسة واستجاباتٌ جسمانية. وفي المقابل من ذلك يؤثر البدن في الأحوال النفسانية، فيستجلبُ الألم في حال المرض، القنوط. ويؤدي الخلاص من التألم البدني، بالشفاء، إلى الراحة النفسانية والاستبشار.. فلماذا يفصل الشيخ الرئيس بين الجسم والنفس في الإنسان، ويُعلي من أحدهما على حساب الآخر فيجعله الأشرف الذي يستحق الخلود!

وكان أكثر ما عارضتُ فيه الشيخ الرئيس ابن سينا، هو إشارته في قصته الرمزية «حيّ بن يقظان» إلى أن النوع الإنساني العاقل، ليس بحاجة إلى النبوة. لأنه يستطيع بالفكر والنظر العقلي، الوصول إلى الحقائق. فكتبتُ على النسق ذاته، قصة رمزية بعنوان «فاضل بن ناطق» وانتصرتُ فيها للنبوات وبيَّنت وجوه الحاجة إليها. وأضفت إلى ذلك رأيًا في المجادلات الجارية اليوم بين بعض معاصرينا، عن المنازعات والحروب التي جرت بين صحابة النبي بعد وفاته. بتقرير أن هؤلاء الصحابة الأجلاء، فعلوا ما كان بينهم من الصراع. بسبب تعصبهم للحق، كلٌّ من زاوية نظره، وتصلُّبهم في الدين.. هذا معتقدنا فيهم.

لكن تلك الاعتراضات لم تقدح عندي في فضل الشيخ الرئيس ابن سينا، ولم تقلل من مكانته المرموقة، ومن اعترافي بعبقريته في كتابه «القانون في الطب».. ومن يدري، فربما لو عاش ابن سينا عمرًا أطول، فقد توفاه الله

في الخامسة والخمسين من عمره، لكان قد أعاد النظر في هذه المباحث وانتهى إلى رأي آخر. والأخطر من ذلك والأهم، أن ابن سينا كتب في آخر عمره كتابًا كبيرًا في تلك المباحث الإلهية، وجعله بعنوان «الحكمة المشرقية» وقال إنه أكبر حجمًا من كتاب «القانون» وإن فيه خلاصة ما انتهى إليه رأيه في الفلسفة والحكمة. لكن الكتاب مفقود. فلله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

استكملتُ في دمشق دروس الطب على يد الفاضل «عمران الإسرائيلي» والفاضل «رضي الدين الرحبي» وغيرهما، وقرأتُ متفحِّصًا معظم ما دوَّنه الأطباءُ السابقون من رسائل وكتب. ولم أنقطع خلال ذلك عن درس علوم اللغة والدين، فقرأتُ على «عماد الدين بن النحاس» كتاب الأنموذج في النحو، للعلامة جار الله الزمخشري. وقرأتُ متون الفقه الشافعي على يد الفقهاء الكبار بدمشق، وامتدحني بعضهم عند «جمال الدين يوسف» ناظر المدرسة «المسرورية» العامرة بباب البريد، بدمشق. فدعاني للتدريس فيها على الرغم من حداثة سني آنذاك، بالنسبة لأقطاب المذهب الشافعي بالشام، فجلست للتدريس وعمري قريب من خمسة وعشرين سنة، وشرحتُ للطلاب كتاب الشيرازي «التنبيه في الفقه الشافعي» فعقدتُ في ذلك عدة مجالس، لكنني توقفت عند باب «سجود السهو» بسبب مضايقات تعرضت لها. ولهذا السبب ولغيره من الأسباب التي كان من أهمها ضيق الأحوال وصعوبة العيش بالشام، بدا لي أن أرحل مع زوجتي وولدي «عبد الله» ونستقر بمصر، لأنها أوفر خيراتٍ وأكثر أمنًا. خصوصًا مع هذا الرعب الذي ساد قلوب الناس في العراق والشام، بسبب الأخبار الرمادية الواردة من نواحي الشرق، فواحةً برائحة الحرائق والذبح والخراب. فبعد أن دَمَّر حاكمُ التتر «جِنكِزخان» الأنحاء الخوارزمية والخراسانية، وفتك بحواضرها العامرة، مبيدًا في طريقه المدن العواصم مثل بخارى وسمرقند وفرغانة ونيسابور ومرو

وترمذ وبلخ وهراة، وقاتلًا من سكانها مئات الآلاف. استكمل خلفاؤه من ملوك التتر، غزو النواحي الفارسية وأسقطوا بعد «مازندران» مُدنًا وبلدات كبرى مثل الريّ وقزوين، فصارت تلك الحواضر خرائب.

عرضتُ على أعمامي رغبتي في النزوح إلى مصر، فلم يعترضوا على ذهابي. لكنهم لم يوافقوني على اصطحاب زوجتي فاطمة لأنها مريضة، وابني عبد الله لأنه صغير لن يتحمل مشاق السفر. ونصحوني بأن أسبقهما بفترةٍ إلى أن تنتظم أموري، ويكونا مستعدَّينِ للسفر. وأكَّد لي عمي «أبو المجد» أنه سيأتي إلى مصر بهما، وبعياله، بعد شهورٍ أو سنة على الأكثر. لأنه ضاق هو الآخر، بضيق العيش في الشام. وافقني رأيهم ورضيتُ به، وعزمتُ على الرحيل بعد أيام قليلة، قبل أن يدخل الشتاء وتشتد وطأته على المسافرين بين الشام ومصر عبر الصحراء، لأن طريق ساحل الشام يمر معظمه بممالك الفرنج، والمسير قربهم ليس مأمونًا. فالارتحال في الخريف أفضل.

يوم الأحد الموافق عاشوراء، أي عاشر شهر محرَّم، من سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وكنت وقتذاك على مشارف الخامسة والعشرين من عمري. أخبرني عمِّي «أبو الكرم» وأنا أحزمُ مخلاتي استعدادًا للسفر، بأن الفاضل «رضي الدين الرحبي» توفاه الله. فأسرعتُ إلى دمشق لتقديم واجب التعزية لولديه، الطبيبين، قبل سفري في فجر اليوم التالي.

في العزاء قابلت الفاضل «عمران الإسرائيلي» وأخبرته بأنني مرتحلٌ إلى مصر، لأشتغل هناك بالطب والمداواة. فنظر إلى السماء متأملًا، ثم هزَّ منسأته مرتين قبل أن يسألني: هل ستقطع الطريق إلى مصر مع قافلة؟

ـ لا يا مُعلمي الجليل. سأكون مع تاجرٍ حضرميٍّ دلوني عليه في السوق، يأتي باللبان من «حضرموت» ويأخذ إليها من هنا البزور والفاكهة المجفَّفة.

ـ وما يدريك بأنه لن ينهبك في الطريق، وقد يقتلك؟

ـ ليس معي مالٌ ليُنهب، هي دراهمُ قليلة. وقتلي لن يعود عليه بفائدة.

ـ قُمْ معي يا عليّ، فعندي لك ترتيبٌ أفضل.

خرجتُ معه من موضع التعزية، مستحيًا من سؤاله عن وجهتنا، وقد توهمتُ أنه سيأخذني إلى داره ليخبرني بأمرٍ، أو يرسل معي لمصر شيئًا.. في الطريق وبعد دقائق من الصمت، قال لي: هل تعرف أن «رضي الدين» رحمه الله، رفض صحبة الملوك في أسفارهم كطبيبٍ خاصٍّ لهم، في الحلِّ والترحال؟ أجبته بأنني لم أعرف بذلك، فقال بنبرة مَنْ يريد المسامرة أو يستدعي للمؤانسة الذكريات: قبل قرابة ستين سنة، عرف الملك الناصر «صلاح الدين الأيوبي» عن الرحبي، أمانته ومهارته، فطلب منه أن يكون في ركابه الملكي. لكن «رضيَّ الدين الرحبي» اعتذر منه، مفضِّلًا أن يبقى بدمشق لعلاج عموم الناس في البيمارستان

النوري، وتعلّل بضعف قواه عن تحمُّل مشاق السفر. قبل منه «صلاح الدين» اعتذاره، وأجرى عليه جامكية مقدارها ثلاثين دينارًا كل شهر. وبعد ذلك بسنوات، طلب منه الملك «العادل» الأيوبي الطلب ذاته، فاعتذر منه. فقبل الاعتذار، ولم يمس راتبه الشهري. فلما مَلَكَ «عيسى بن العادل الأيوبي» بعد أبيه، طلب الشيء ذاته، وخفَّض المدخول الشهري إلى النصف، ظنًّا منه بأن ذلك سوف يدفع «رضيَّ الدين» إلى قبول ما رفضه سابقًا. ومع ذلك اعتذر منه «رضيُّ الدين» وبقي بدمشق، فلم يخرج منها لمدة ستين سنة متصلة.

جاوبته بأنني سمعتُ بتخفيض الجامكية الشهرية، وعرفتُ خلال صحبتي للفاضل «رضيِّ الدين» أنه لم يؤذِ أحدًا قط، ولا ذكر بسوءٍ أي إنسان. وكان يعالج الناس احتسابًا في البيمارستان النوري، وخارجه، ولم يفرِّق في مداواته بين أميرٍ وفقير. رحمه الله برحمته الواسعة.

وصلنا قبالة دارٍ كبيرة لا أعرف صاحبها، وأخبرني الفاضل «عمران» بأنها دار «مؤيد الدين بن القلانسي» وقد أنجبت زوجته ولدين ذكرين، لا عظم لهما. وهذا أمرٌ نادرٌ وعجيب. وبعدما تنهَّد، قال لي: انتظرني هنا، فقد وعدتهم بالمرور عليهم كل يومين لتدبير الولدين حتى يعودا إلى الحالة الطبيعية، وأنت شابٌّ جميل الشكل ولم تكتسب بعد سَمْتَ الأطباء، فلا يصح دخولي بك على أم الولدين.. تركني عند الباب متحيرًا في أمر هذين المولودين بلا عظام،

وغاب بداخل الدار سويعة، ثم خرج وعليه علامات الأسف. قلتُ له إن تدبير الولدين لن يجدي نفعًا، فمن وُلد على هذا النحو النادر لن يُشفى، ولن يعيش طويلًا.. قال: نفعل ما علينا، ونترك الباقي بيد الله.

كنتُ مصيبًا في اعتقادي أن العظام لن تتكوَّن في بدن الولدين، وكنتُ مخطئًا في أنهما لن يعيشا. فقد عرفت بعد سنوات من إقامتي بالقاهرة، أن الولدين بقيا على قيد الحياة، لكنهما بقيا في الفراش مُستلقيين لا يستطيعان القيام أو الحركة. وكان حالهما هذا من المحيِّرات.

في الطريق من دار «ابن القلانسي» إلى دار الفاضل عمران الإسرائيلي، أخبرني بأن الملك الناصر «داود» ابن الملك المعظم «عيسى بن العادل» الأيوبي، مريضٌ بالكَرَك. ثم تنهَّد كمعتاده حين يتحدث، وقال لي: الملك أرسل يستدعيني لعلاجه، وغدًا ساعة الفَجْر سوف يصحبني إلى هناك شِحْنةٌ من رجاله، فيمكنك أن تأتي معي ليكون سفرك آمنًا. قلتُ: لكنني لا أنوي الانتقال من هنا إلى الكرك، فهي بلدة صغيرة وما حولها قاحلٌ، ولن أجد هناك عملًا.

- أعرف يا عليّ. لكنها في منتصف الطريق إلى مصر، ومن هناك يمكنك الذهاب إلى القاهرة مع البريد.

- نعم، شكرًا لك، سأكون هنا ساعة الفجر.

لم أنم طيلة ليلتي تلك إلا سويعة في الثلث الأول منها،

وأخرى في الثلث الأخير. فقد أسرعت بحماري من دمشق فوصلت إلى دارنا عقيب أذان العشاء، ولملمتُ ما تفرَّق من متناثر أشيائي ودسسته في مخلاتي، وأعددتُ زوَّادتي ووضعتهما قرب البغلة التي ستحملني في رحلتي إلى المجهول. كانت «فاطمة» تعاونني في حزم المخلاة والزوادة، وهي تبكي. وكان ولدي «عبد الله» نائمًا، فضممته وبللتُ شعر رأسه بدموعي، ولم أشأ أن أوقظه كيلا يبدأ بكاءه قبل خروجي.. ما كنتُ أدري أنني لن أراه مجددًا، وما كنتُ لأحتمل أن أدري بذلك، فقد كان في قلبي من الأوجاع آنذاك ما يكفيه.

ساعة أذان الفجر كنتُ أمام دار الفاضل «عمران الإسرائيلي» فوجدتُ هناك الشِّحنة التي ذكرها لي بالأمس: سبعةً من فرسان العسكر بكراعهم الكامل من الحراب والسيوف، وخادمين لإعداد الطعام ونصب الخيام، ودليلًا يابس البدن. عرفتُ منه يومها أن اسمه «عبيدو» وأنه من سلالة الأنباط، الخبراء بدروب الصحراء وبادية الشام. صلَّيتُ بهم الفجر إمامًا، وعقب الصلاة خرج إلينا الفاضل «عمران» على بغلةٍ مُطهَّمةٍ، خلفها بغلة تحمل حاجياته من ملابس وأدويةٍ وكتب.. واتخذنا سبيلنا إلى الصحراء سَرَبًا.

سرنا جنوبًا فأحاط الاخضرارُ بمسيرتنا ثلاثة أيامٍ أو أربعة، حتى وصلنا إلى منطقة «السويدا» التي ينسب إليها من كان لقبه السويدي، وينطقها بعضهم خطأً «السويداء»

فكانت آخر الاخضرار، إذ ليس بعدها إلا اصفرار الصحراء المسماة بادية الشام.. كيف كان القدماء يتحمَّلون مشاق السفر في تلك البوادي الشاسعة والدروب القاحلة، لعدة أسابيع وشهور متتالية؟.. غير أن صفو الصحراء والصحبة، فيما رأيت، يهون على المسافرين مشاق الرحلة وطُولها.

كنا نتحرك كل يوم، مع طلوع الشمس. ونرتاح ونُريح الدواب ساعةً، وقت الظهر. وفي الأمسيات نتحلَّق بين خيامنا حول الجمر لنستدفئ من برد البادية القارس، وأتباحثُ حينًا مع الفاضل «عمران» في أمور الطب وفنون المعالجات، ونستمع أحيانًا لأحاديث «عبيدو النبطي» عن أسرار الصحراء وخفايا البيوت التي اتخذها أجداده في بطون الجبال بوادي رَمّ والبترا ومدائن صالح، وحفروا تحتها في الصخر خزائن للمياه. الفقهاءُ يعتقد معظمهم أن الأنباط القدماء، هم قوم «ثمود» المذكورون في القرآن، لانطباق وصفهم في الآيات ﴿الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ على آثارهم الباقية بالوديان وبطون الجبال منذ قرونٍ طوال. لكن «عبيدو» ينكر ذلك، محتجًّا بأن قوم ثمود اندثروا منذ زمن سحيق، وانقطع نسلهم، وأما الأنباط فهم موجودون إلى يوم الناس هذا.

وخلال تلك الرحلة، تعلمتُ من الفاضل «عمران» في أسبوعين، ما لم أتعلَّمه منه في العامين السابقين. خصوصًا ما يتعلق بمعالجات الأمراض النادرة وتدبير الناقهين، وغير

ذلك من دقائق المعارف الطبية. كان وقتذاك في حدود السبعين من عمره، لكنه صحيحُ البدن وعنده معرفة واسعة بالمعالجات، خصوصًا لمن أصابهم الفالجُ والذين اضطرب مزاج أجسامهم. وكان من أهم ما دلَّني عليه وأوصاني به، فالتزمتُ، تجنّبُ إنهاك بدن المريض بالخروج به عن مألوفه من المطعم والمشرب، والترفُّق في المداواة. ولما اختبرت كلامه مرارًا، فصحَّ عندي، صار ذلك منهاجي العلاجي في الخمسين سنة التالية. وكتبتُ في مؤلفاتي مخاطبًا الأطباء الذين سيأتون من بعدي، بل وجميع الأصحاء والمرضى: ينبغي ألا تُعوِّد الطبيعة الكسل، بأن تعالج كل انحرافٍ عن حال الصحة. وحيث أُمكن التدبير بالأغذية. فلا تعدل إلى الأدوية، وإنَّا لا نؤثر على الدواء المفرد دواءً مركبًا، لكنَّا قد نضطر إلى التركيب.

وبعدما فارق الركبُ بلاد الشام وعبر ناحية «السويدا» جنوبًا، كنا نلتقي في طريقنا بجماعات يهودية متناثرة عبر الصحراء، في الأرض التي كانت تسمى قديمًا «أرض اليهود» لأنهم كانوا يسكنون بها. وهي نواحٍ جرداء في معظمها، تمتد من بلدة «أريحا» شمالًا، إلى البحيرة المنتنة المسماة «البحر الميت» التي بغور الشام في جهة الجنوب. وكان كبار هذه الجماعات ومشايخهم، يعرفون الفاضل «عمران الإسرائيلي» وهو يعرفهم، لأنه يدين بديانتهم. وقد خيَّمنا قرب بعضهم، عدة ليالٍ. وعندما وصلنا إلى قرب هذه البحيرة المنتنة، التي يطفو فوق سطح مائها الشبيه

بالزيت، كل ما يرسب في مياه البحيرات الأخرى. تركني الفاضل «عمران» عند جماعة من اليهود، يسكنون بالخيام المتباعدة وبالمغارات المشرفة على حافة البحيرة. وقال لي إن رجال البريد المرسل من «الكَرَك» إلى القاهرة، سوف تمرُّ قافلتهم من هذا الموضع، بعد يومين أو ثلاثة. وسوف يوصيهم باصطحابي حتى أبلغ مأمني، فشكرته وودَّعته داعيًا له بالوصول إلى «الكَرَك» سالمًا.. وقبل افتراقنا أوصى بي أهل مِلَّته، وأوصاني إذا أتقنت عملي واشتهر اسمي كطبيب، أن أتجنَّب السفر لمداواة الأمراء والكبراء، وأقتصر بقدر المستطاع على العمل بأحد البيمارستانات. فوعدته بأن أفعل ذلك. ثم أعطاني كيسًا فيه مال، فلم أفهم قصده من ذلك، ومنعني الحياءُ عن أخذه. فقال: هذه عشرون دينارًا، تستعين بها على أحوال حياتك الجديدة، وعندما تعتدل أمورك ويجري بين يديك المال، تعطيها لطبيبٍ نابهٍ يحتاجها كي يبدأ حياته..

ـ ولكن..

ـ اسمعْ، هذه الدنانير العشرون أخذتها في بدايتي من «رضيِّ الدين الرحبي» وطلب مني، ما طلبته منك. فخذها، ولا تُطل الجدال.

الجماعة الذين بقيتُ معهم الأيام الثلاثة منتظرًا قافلة البريد، كانوا مساكين وفيهم طيبةٌ وبؤس. لهم كبير يسمونه «مَلْكا» الرابي أو الرِّبِّي، وهو ما يقابل عند أهل الإسلام الفقيه. هو رجل مسنٌّ لديه معارف عديدة

متنوعة، لأنه شغوفٌ بقراءة الكتب، وكان يتلطَّف معي فيقول عن طعامهم وهو يدعوني للأكل معه «كوشِر» يعني الطعام الحلال الموافق للشريعتين الموسوية والمحمدية، والمسمى في القرآن «كوثر». وقبل مفارقتي له إلى القاهرة، أهداني نسخةً مجلدةً من كتاب موفق الدين عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر.

في الليلة التي أسفر صباحها عن وصول قافلة البريد، وذهابي معهم، وبعدما خفَّ عندي الحرجُ تجاه «مَلْكا الرابي» بعد يومين من الصحبة والمباحثات الكثيرة. سألته عن السبب في أن قومه متناثرون في الصحراء، على هذا النحو البائس. ولماذا لا يجتمعون في موضعٍ واحدٍ، فتكون حياتهم أفضلٍ إذا اجتمعوا في المكان؟.. أجابني بأن ذلك سيكون خطأً فادحًا.

استغربتُ إجابته واستفهمتُ منه عن المزيد، فقال وهو يبتسم بمرارةٍ: لا بأس، بعد العشاء أقصُّ عليك القصص.. وكان ملخص ما أخبرني به أمام خيمته، والنجوم تلمع من فوقنا، لغياب القمر بمحاق ابتداء شهر صفر: قبل خمسة أعوامٍ، عندما أعطى الملك الكامل الأيوبي مدينة أورشليم القدس، لملك الفرنج حاكم صقلية، أصاب الرعبُ من النصارى جميع اليهود الذين كانوا قد استقروا بالمدينة.

ـ وما سبب هذا الرعب؟

ـ النصارى يكرهون اليهود، لأنهم يتوهَّمون أن اليهود القدماء، هم الذين سلموا المسيح إلى الرومان ليصلبوه.

ـ وما ذنب اليهود المعاصرين؟

ضحك «ملكا» من سؤالي، بأسى، ثم أدهشني بقوله إن السؤال الأهم هنا، هو: هل جاء المسيح أصلًا؟.. وسكت لحظةً نبش فيها الجمر الذي نستدفئ به، بعودٍ يابس، ثم قال: أنتم المسلمون تؤمنون بأن المسيح جاء، مثلما يؤمن بذلك النصارى، لكننا نُنكر حدوث ذلك وننتظر مجيء المخلِّص الماشيح. الذي سيكون ملكًا لليهود ويخلِّصهم من ظلم الأمم لهم، ويعيد لأبناء الرب مجدهم القديم وعاصمتهم «أورشليم» التي هدمها الرومان لقمع اليهود، وبنوا بموضعها مدينة أسموها إيليا. ولما تنصَّر الروم جعلوا المدينة عاصمة لديانتهم، وحين فتح المسلمون «إيليا» أيام عمر بن الخطاب، تعهَّدوا للنصارى بألا يصدُّوهم عن الحج إلى إيليا، وبألا يسمحوا لليهود بالسكنى فيها، فبقوا خارجها. وعندما ملكها الفرنج منعوا اليهود من دخولها، فلما تصالح «صلاح الدين الأيوبي» مع الفرنج واستلم منهم المدينة صلحًا، قبل خمسين سنة، سمح لليهود بالعودة إليها فازداد عددهم فيها.

ـ ولماذا فعل ذلك؟

ـ لا أدري. ربما هداه الربُّ إلى هذا الصواب، وربما أراد مجاملة طبيبه الخاص وصاحبه «موسى بن ميمون» اليهودي العظيم. وربما لأسبابٍ أخرى، منها استعمالهم

وضمان ولائهم له. ومؤخرًا، عندما سلم الملك «الكامل» المدينة لأهل الصليب، هرب اليهود منها إلى هذه الصحراوات، قبل أن يدخلها النصارى ويبطشوا بهم. وتفرَّقوا لأنهم يخشون إذا اجتمعوا في موضعٍ واحدٍ، أن ترسل عليهم إحدى ممالك الفرنج الممتدة على ساحل الشام، جيشًا يبيدهم. دون أن تسنح الفرصة لتحذير بعضهم البعض، ويضيق أمامهم مجال الهرب.. قلت له مواسيًا: الله المستعان.. فقال مستسلمًا: نعم، الربُّ يُعين.

* * *

دخلتُ القاهرة في بداية شهر شوال، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة. وبقيتُ ساكنًا فيها منذ ذلك اليوم، فلم أخرج منها إلا مرتين. مرةً إلى «قليوب» التي تبعد عن هنا ساعةً واحدة، لزيارة «بيبرس» أيام أقطعه قطز تلك البلدة، قبل قرابة ثلاثين عامًا. والمرة الأخرى حين ذهبتُ مع الأمير «حسام الدين طرنطاي» إلى الفيوم، التي تبعد عن مدخل القاهرة بمسيرة يومٍ. وكان ذلك قبل ثلاثة أعوام. وقد أرهقتني تلك الرحلة، لأنني كنت في السابعة والسبعين من عمري، لكنني تقتُ لرؤية الوهاد الصحراوية القاحلة التي تحتوي بقايا عظام الحيتان الكبار، مما يدل على أن الصحراء الكبرى كانت في الأزمنة السحيقة قاع بحرٍ. وهذا أمرٌ عجيب سمعتُ به، وكان لا بد لي من معاينته بنفسي حتى يمكن أن أقبله.

يوم دخولي القاهرة أدهشني ازدحامها وارتفاع مبانيها

لثلاثة طوابق، وأحيانًا أربعة، وأعجبني عدم تعصب أهلها. وأبهرني اتّساعها وكثرة الدور الفاخرة والقصور بها، واتّساع الميادين والأسواق العامرة.. وكنتُ قد أُخبرتُ في دمشق، بأن المتعلّمين والعلماء من أهل الشام، يلتقون في الجامع العتيق بالفسطاط. فذهبتُ إلى هناك عساني أجد عندهم عونًا، وجلستُ وحيدًا عند أسطوانة الشوام حتى أُذِّن لصلاة العصر. وبين الصلاتين جالستُ جماعة من أهل حمص، فنصحوني بالإقامة في فندق الطلاب الموقوف على مدرسة «منازل العز» المختصة بالفقه الشافعي، فخرجت إليها بعد صلاة المغرب.

المصلُّون داخل الجامع العتيق كثيرون، وغير المصلين خارجه أكثر، والصخب يعربد في كل مكانٍ.. قياسًا على أهل الشام، فالمصريون أميلُ إلى الممازحة والمرح، وأبسطُ لباسًا لاعتدال برودة الشتاء ببلادهم، وهم لا يتحرَّجون من الأكل في الطرقات والميادين، ولا يتوجَّسون من الغرباء.

المدرسةُ المسماة «منازل العز» والفندقُ الملحق بها، بنايةٌ واحدة. جدرانها دكاكين موقوفة للإنفاق على المدرسة، وفوقها غرفٌ صغيرة تُستأجر بسعرٍ مناسب لطلاب العلم. خصوصًا الشافعية من أمثالي، والوافدين على القاهرة من بعيد. ولأن قيِّم المدرسة ومعظم المدرِّسين فيها على المذهب الشافعي، فقد فرحوا بي واهتموا براحتي، بعدما علموا أنني دَرَسْت ودَرَّست بالمسرورية. لميل الشافعية إلى الشافعية.

لكنهم في مصر لا يتشاحنون مع الأحناف، مثلما هو الحال في بلاد الشام، وقد سمحوا لي بالإقامة في غرفة رحبة، لكنها رديئة التهوية، مقابل ثلاثة دراهم كل شهر. وسرعان ما تعرَّفت إلى ساكني المدرسة، والدارسين فيها والمدرِّسين، وإلى كثيرٍ من الجيران. فلم أعد أشعر بعد مرور شهرين، بالغربة في القاهرة.

في الشهر الثالث اعتراني قلقٌ بالغ، بسبب قتامة الأخبار الواردة من الشام. فقد فَسَدَ الهواء هناك وانتشر الوباءُ بسرعة، والمَوْتان، فأمات بحسب الدفاتر الديوانية في أيام قليلة لا تتعدَّى الأسبوعين، ثلاثين ألف إنسان. ثم وَفَدَ خبرٌ آخرُ فاجعٌ، بعد هذا الخبر الفاجع، مفاده أن الناس هناك يعانون من جدبٍ ومجاعةٍ فاجعة.. اعتراني خوفٌ مريعٌ على أسرتي، فصرتُ أستخبر عن أحوالهم من التجار والجند وسائر النازحين من أنحاء الشام، إلى القاهرة. وفي منتصف السنة، وقع عليَّ النبأ كالصاعقة، إذ أخبرني الوافدون بأن ولدي عبد الله وزوجتي فاطمة، وعمي الأكبر أبو المجد قضوا نحبهم في غمرة تلك الجوائح. رحمهم الله.

* * *

أقعدني فَقْدُ الأحبة بالغرفة لمدة أسبوعين معذبًا، لا أستطيع الحراك من سريري ولا أريده. كنتُ أنام معظم الوقت فأرى أطياف الأحباء الذين رحلوا، وأسمع في أحلامي العويل والنحيب، فأهبُّ من النعاس مذعورًا وينهكني البكاء. ولما علم بالفاجعة خدمُ المدرسة والدارسون والمدرِّسون، صاروا يمرُّون عليَّ بالغرفة لمواساتي بعبارات التعزية، وتلاوة القرآن لاستجلاب السلوان. وفي ساعة عصرٍ، زارني الشيخ «شعبان بن عامر الأشعري» وهو فقيهٌ شافعيٌّ يدرِّس للطلاب كتاب «الشامل في أصول الدين» لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني، رحمه الله.

عندما جاء لتعزيتي كنتُ مستلقيًا كالعاجزين تحت لحاف سريري، مع أن الأوان ربيع، فتقوَّصتُ في زاوية الفراش حياءً منه، وشددتُ فوقي اللحاف. واعتذرتُ منه عن عدم استطاعتي القيام، لضعف ساقيَّ. كان خلفه اثنان من طلابه، فصرفهم وجلس على طرف سريري صامتًا، لدقائق، ثم تكلم بصوتٍ هادئٍ فقال إن أباه كان تاجر غلالٍ من أهل «دمياط» بساحل مصر، وأمه من بلدة «حمص» الشامية. وفي دمياط وُلد وعاش واشتغل بالفقه وأصول الدين، وبتجارة أبيه بعد وفاته. وهناك تزوَّج بإحدى قريباته، وأنجب ولدًا وابنتين.

لم أدر ما يقصده من قصِّ حكايته هذه، وكدتُ أشردُ عنه بذهني إلى شجون مأساتي، لولا أنه أضاف بصوتٍ بدأ

يتهدَّج: قبل خمسة عشر عامًا وعشرة أشهر، يعني في شعبان من سنة ست عشرة وستمائة، فجعتني الواقعة المزلزلة. إذ كنتُ يوم الأحد التاسع والعشرين من شهر صفر في العام السابق، بالقاهرة، لاستلام غلالٍ قادمة من نواحي الصعيد وسداد وتحصيل ديون، وقضاء بعض متعلقات تجارتي. وفي يوم الشؤم هذا، جاءت الأخبار بأن ملوك الفرنج اجتمعوا بجيوشهم، وحاصروا دمياط، فتركتُ ما بيدي وأسرعتُ بالعودة ملهوفًا. لكنني لم أجد سبيلًا للدخول إلى بلدتي المحاصرة، وأسرتي، فبقيتُ في بلدة «البَرَمون» القريبة، أنتظر انكشاف الغمة. دام انتظاري هناك ستة عشر شهرًا، مرَّت عليَّ قاسيةً مريرةً، ثم بدأ الأملُ يلوح من بعيد عندما انتشرت الأخبار بأن المحصورين في دمياط، عرضوا على الفرنج أن يتركوا لهم المدينة غنيمةً، مقابل أن يخرج منها أهلها سالمين.

وافق الفرنج على ذلك وهم يُضمرون الغدر، وفور فتح أبواب المدينة اندفعوا إلى داخلها بجيشهم، وراحوا يقتلون العُزل ويَسْبون النساء ويدنِّسون المساجد. وجمعوا عشرات الفتيات في جامع دمياط، ومعهنَّ ابنتَيَّ، وافتضهنَّ الجندُ هناك علانية. لثلاثة أيام متتالية. وفي فجر اليوم الرابع هربت البنتان وأسرعتا إلى داري وقد سلب الخزي عقليهما، فأخذتا من سُمِّ الفئران المخبوء بمخزن الحبوب الملحق بالدار ما يكفي لقتل ناقتين، وتناولتاه. وقد شاهدهن ولدي ذو الأعوام العشرة، وهما تنتفضان على

الأرض وتُخرجان الزَّبَد من الفم والأنف، فقضى من الرعب. وطاش عقل زوجتي عندما رأت الثلاثة موتى، وأصابها الخبالُ وذهابُ العقل، وأخذت تهذي، حتى لحقت بهم بعد عدة شهور.. قلتُ مواسيًا: حكايتك الحزينة هذه أدمتْ قلبي يا شيخ شعبان. ألهذا تعيش وحيدًا في منزلك المجاور للمدرسة؟

- نعم يا عليّ، فلم أجرؤ بعدها على اتخاذ زوجة وإنجاب أطفال. قم بنا، سنخرج من هذه الغرفة الخانقة.

- إلى أين؟

- سنجلس في ساحة المدرسة ساعةً، نُخرج فيها فرشتك إلى الشمس، ليذهب عنها هذا العطن.

قمتُ معه بساقين ترتجفان من فرط العِيّ، ونادى الشيخ على الطالبين اللذَين كانا معه، ليحملا فرشتي إلى الشمس. فهمستُ إليه بأن في طياتها صرَّة مال، مخبوءة، فقال من فوره: هاتها معك.. ذهبنا إلى حيث اقترح، وجلستُ معه مستشعرًا نفوذ الدفء من الشمس الغاربة، وغوصه في بدني الهزيل الذي كان يرتعش. تركني دقائق قليلة أستعيد فيها ذاتي، ثم تحدَّث إليَّ بتؤدةٍ أبويةٍ ليُخرجني من دَوَار دوران الأحزان، فقال: لو كان ولدي الوحيد «إبراهيم» لا يزال حيًّا لكان الآن في مثل عمرك، لكن الله يفعل ما يشاء ويقيم العباد حيث أراد، وحيثما اختاروا لأنفسهم، وفقًا لقول مشايخنا في «الكسب» وأظنك درست هذا

القول، فقد رأيتُ في غرفتك كتبًا كثيرة من كتب المذهب. يقصد المذهب الأشعري. فأجبته على هونٍ بقولي: نعم، درسته في الشام، مع كل ما يتعلق بمبحث الجبر والاختيار.. قال: فانظرْ إذن فيما سوف تختاره اليوم لنفسك. هل ستقضي عمرك في الأسى والحزن، أم ستعبر من فوق المحنة؟ اخترْ لنفسك ما يحلو.

ـ لا يحلو لي الآن أي شيء.

ـ لا بأس يا ولدي، نستكمل كلامنا غدًا. أو اسمعْ، لماذا لا تأتي الآن معي؟ أنا ذاهب للمسجد العتيق، فالمتصوفة سوف يُحيون الليلة ذكرى الأربعين لوفاة عمر بن الفارض، هل تعرفه؟

ـ لم ألتقِ به. ولكن سمعتُ عنه أنه كان شاعرًا وزاهدًا، ويتهرَّب من مصاحبة الأمراء والملوك، رحمه الله. ولا مانع عندي، سأذهب معك.

نصحني الشيخ «شعبان» بإيداع ما معي من المال لدى ناظر المدرسة ليحفظه عنده، لأن الزحام سيكون شديدًا عند جامع عمرو بن العاص. فأخذت بما نصح به، وأودعتُ مالي عند «القيِّم» الذي أصرَّ على إعطائي ورقةً بالمبلغ، مختومةً بختمه النحاسيِّ اللامع عملًا بقاعدة: إذا تداينتم بدينٍ فاكتبوه.. وبعد ذلك أردفني الشيخ على بغلته، مبتهجًا بمقصدنا، وأسرع بنا إلى الفسطاط.

كأننا دخلنا في وهج النهار، ليلًا. الزحامُ وحركةُ المئات

من الناس وأضواءُ القناديل وثريات الجامع، جعلت المساء كالصباحِ. الفقراءُ المتصوفة، والأغنياء وكبّار السنِّ والصغار وكثيرٌ من العجائز وعديد من الصبايا، يملئون المكان ويتحلَّقون في دوائر حول منشدين بساحة الجامع، وبالباحات المحتفة به. وتتماوج فوق رءوسهم، خيوط الدخان الصاعد من المباخر معطِّرًا صفو الأجواء بعبقٍ قويٍّ، يريح الأرواح. في داخل الجامع ينشدون أشعار «ابن الفارض» من دون آلات الموسيقى، تأدُّبًا، وفي الباحات التي حول الجامع ينشدونها على صوت الدفوف ذات الشخاليل. والكلُّ في ابتهاجٍ وجدانيٍّ لم أَرَ مثيلًا له، إلا عند جماعة الفقراء الذين أخرجتني صحبتهم من داء الاستسقاء، قبل عشر سنواتٍ بالشام.

المصريون، خصوصًا في القاهرة أميلُ إلى الأريحية والمرح من أهل الشام الذين تغلب عليهم الجدية. وأظن أنهم ورثوا ذلك من زمن الخلفاء الفاطميين. وهم يُحيون للمتوفى ليلة الأربعين، التي لا يعرفها الشوام، فهي في الغالب عادةٌ ورثها أهل مصر من زمن قدمائهم الذين كانوا يحفظون جثث موتاهم بتجفيف رطوباتها بعدة تدابير تتم بعد أربعين يومًا. وقد رسموا ذلك على جدران معابدهم. سبحان الله. ما كانوا ينكرون الحشر الجسماني في الآخرة، كما أنكره الشيخُ الرئيسُ «ابن سينا» رحمه الله.. ميراثُ المصريين يثير الحيرة والعجب.

كانت ليلة الأربعين تلك فارقةً، وبقيتْ ذكراها عالقةً

بذهني طيلة الخمسة والخمسين عامًا التالية. في ابتداء الأمسية بقيتُ سويعةً مندهشًا بما يدور من حولي، أنظر نحو ما يصطخب خارجي بعينَي حائرٍ تائهٍ فَقَدَ السبيل. ثم اهتديتُ إليَّ شيئًا فشيئًا، وكان أول ما أتذكره من أحوالي هو هيمان ذاتي إلى الأعالي مع خيوط البخور، وامتلاء روحي بالرائحة الزكية الفوَّاحة في الأنحاء. وبلا تدبيرٍ سابق أو قصد، وجدتني أفكِّر في حاسة الشَّمّ. وهذا عجيب. ولكن ما طفر في خاطري فجأةً، هو أنها من أولى الحواس التي تتكوَّن في الإنسان، ومن أشدِّها تأثيرًا فيه. فهذا ولدي «محمد» في زمن طفولته، كان قد رضع من أمه عقب أكلها بصلة، فنفر منها لأنه أدرك رائحة البصل، قبل أن يتم من عمره بضعة شهور. ولدي محمد وأمه، كانا وديعة عندي أودعها الله حينًا، ثم استردها. وأنا لست سوى وديعة لله في هذه الدنيا، وسوف يستردها بعد حين. هذا كل ما في الأمر. قولُ الأشعرية بالكسب، والمعتزلة بالاختيار، والجبرية بالقهر. كلها زخارف أقوال، سرعان ما تنزاح إذا سطع في العقل نورُ الحقيقة، وأشرق به القلب.

قطع توارد أفكاري رجلٌ يدور على الناس بطاولةٍ عليها أرغفة بداخلها لحمٌ مشوي وفوقها عيدان جرجير، ويعطي كل شخصٍ رغيفًا وهو يقول ويكرِّر: صدقة ورحمة.. أخذت منه الرغيف على هونٍ وهممتُ أن أضعه جانبًا، لولا أنه صاح فيَّ وهو ينظر في عيني بعينيه اللامعتين،

ويقول: كُلْ.. فأكلتُ، وما كدتُ أنتهي من الرغيف حتى عبر علينا رجلٌ آخر، بطبقٍ كبيرٍ فيه حلوى. وبلا كلامٍ وضع قطعةً منها في فمي، فمضغتها مستمتعًا بمذاقها الشهيِّ. وعندما انتهيتُ نظرتُ حولي في الجالسين، فلم أجد الشيخ شعبان. لا بد أن اتخذ سبيله بين الناس سربًا، أو لعله أراد أن يتركني وحدي في هذا البحر الروحاني، لأتعلَّم السباحة.

بعد سويعةٍ قمتُ من وسط الزحام، تاركًا الحلقة التي بالساحة إلى حلقةٍ أخرى بالباحة، كانت تتشكل خارج مدخل الجامع حول منشدٍ شابٍّ رشيق القوام، يقف في منتصفها صامتًا مغمض العينين كأنه يستجلب إليه الغياب والفناء عن الوجود، ومن حوله يلتفُّ ضاربو الدفوف. دقُّوا لبضع دقائق، ثم بدأ الشابُّ إنشاده الشجيّ المنغَّم، بقصيدةٍ لاميةٍ مطلعها: هو الحبُّ فاسلمْ بالحشا، ما الهوى سهلُ.. وبعدها أنشد قصيدة رائيةً لابن الفارض، مطلعها: شربنا على ذِكْرِ الحبيب مُدامةً.. ثم ختم إنشاده بعدما انتصف الليل، بقصيدةٍ تائيةٍ طويلةٍ انتهى من إنشادها مع أذان الفجر، يقول ابنُ الفارض في مطلعها: سَقتني حُميّا الحبِّ راحةُ مقلتي.

ليلتها أدهشني حالُ ابن الفارض، ولم أفهم اقتصاره في جميع أشعاره على موضوعٍ واحدٍ تقريبًا، هو الحب. وهذا في زماننا عجيب. الملوكُ الأيوبيون يحاربون بعضهم البعض بكل البغض والطمع فيما ورثوه، والفرنجُ يحتلون ساحل

الشام ويحلمون باقتحام العواصم المسلمة، ومغولُ الأتراك المعروفون باسم «التتر» يفترسون البلاد والنواحي والقرى واحدةً تلو أخرى، والأوبئةُ والطواعين تفتك بالكبار والصغار كل بضعة أعوام.. وابن الفارض لا يحكي في قصائده، إلا عن الحب. عجيب.

في تلك الليلة الحافلة، نمتُ بعد أدائي صلاة الفجر نومًا عميقًا، رأيت خلاله حُلمًا غريبًا لم أفهم معناه أول مرة: رأيتني أرتدي الطيلسان وعلى رأسي عمامة العلماء، وراضيًا عما أفعل، أجمعُ القمامة من أزقة القاهرة وشوارعها ثم أقوم بكنسها ورَشِّها بالماء وهي خالية من الناس ساعة شروق الشمس.. وخلال السنوات التالية، رأيتُ الحلم ذاته مرات وفي كل مرةٍ كنتُ أصحو منه مرتاحًا، ومستغربًا، ومستبشرًا. قيل في الأثر: رؤيا المؤمن جزءٌ من النبوة.

مَرَّ زمنٌ طويل بعد ليلة «ابن الفارض» الحافلة، وقبل سنواتٍ قليلة كنتُ جالسًا عند بوابة داري هذه، أنظرُ إلى العمال وهم يفرشون أرضية الإيوان بالرخام، بمهارة. ولحظتها كنتُ أفكرُ صامتًا، في الصلة بين تلك الكسوة الرخامية للأرضية، والجلد الذي يكسو جسم الإنسان وسائر الحيوان. استغرقت في التفكر والمقارنة، حتى أخرجني مما يدور برأسي صوتُ عاملٍ على مقربة مني، يترنَّم أثناء عمله بقصيدة ابن الفارض التي أولها: ما بين معترك الأحداق والمُقَلِ، أنا القتيلُ بلا إثمٍ ولا حَرَجِ.. ابتسمت،

فسألني العامل بأدبٍ وتلطف عما دعاني للابتسام، فقلتُ له متخلِّصًا من عبء الإفصاح والشرح: لا شيء يا ولدي، تذكَّرتُ أمرًا قديمًا مبهجًا.

فقد تذكرتُ لحظتها ليلتي الرائقة بالجامع العتيق، بعدما مَرَّ بعدها من الزمان خمسون سنة. وخلال تلك السنوات الخمسين، اختفت دولة الأيوبيين ونُسي ملوكها الذين كانوا يتصارعون فيما بينهم على كراسي الحكم. واختفى الفرنج من عموم بلاد الإسلام، وبادت معظم ممالكهم، ويكاد «قلاوون» يقطع شأفتهم تمامًا. واختفى خطر التتر بعدما أسلم كثيرٌ منهم وعديدٌ من ملوكهم، وتحالفوا مع حكام مصر والشام. واختفت الطواعين والجوائح، مع انعدام المجاعات وكثرة المشافي والأطباء.. اختفى ذلك كله وزال، وما يزال الحبُّ باقيًا بأشعار «ابن الفارض» رحمه الله.

* * *

عدتُ من الاحتفاء الصوفي بذكرى الأربعين إلى غرفتي، فَرِحًا، وقلبي يحدِّثني بأن أعيش بقية عمري مع الفقراء وزهاد الصوفية. وفي نومي الصباحيِّ رأيتُ الرؤيا المفرحة. صحوتُ على صوت المؤذن لصلاة الظهر، فأسرعتُ إلى الصلاة خلف الشيخ «أحمد بن ربيع» قيِّم المدرسة، وأصداءُ صوت الدفوف تملؤني. بعد ختام الصلاة سألني «القيِّم» إن كنت أريد استرداد نقودي المحفوظة عنده منذ أمس، فأجبته بما ورد عليَّ بعفو الخاطر: ليتك يا سيدي

تُبقيها عندك، حتى أعرف ما أريد.

- أنت أخبرتني يا ولدي يوم جئت إلى هنا، أنك تعتزم الاشتغال بالطب لتنفع الناس.

- نعم.

- طيب. ما دمت قد عزمت، فتوكَّل على الله. وسوف أساعدك بقدر ما أستطيع.

ساعدني «القيم» بأن ذهب بي إلى صديقٍ له، عطَّارٍ شرابيّ، اسمه «عبد الله بن معين» لأجلس عنده في الدكان فأصفُ للمرضى المعالجات والأدوية المفردة والمركَّبة، نظير بضعة دراهم في اليوم. ونصحني الشيخ «شعبان» بأن أسكن في قلب القاهرة، لأن الناس لن تثق بطبيبٍ يسكن مع الطلاب في مدرسة. كما نصحني بأن أشتري من الملابس طيلسانًا وعمامة، لأكتسي بسمت الأطباء. فأخذتُ بنصيحته، ولم يتبق معي من المال إلا أربعة دنانير وستة دراهم، وبعض الفلوس قليلة القيمة.

بقيتُ عدة سنواتٍ جالسًا طيلة النهار وابتداء المساء، عند العطار الشرابي، وفي الساعات التي لا يأتي فيها إلى الدكان مرضى، أقرأُ في مختلف العلوم والمعارف المتنوعة، وخصوصًا الطب والصيدلة. وأستكمل القراءة بمنزلي ليلًا، على ضوء القنديل. ولم يكن «عبد الله العطار» سعيدًا بعملي عنده، لأنني لا أخرج بالمريض عن مألوفه ولا أعالج ابتداءً بالأدوية القوية والمركَّبة، غالية الثمن، وإنما

أتدرَّج بالتداوي من الأغذية إلى الأغذية الدوائية إلى المفردات. فإن نفعت واستعاد المريض صحته، أكون قد حفظتُ بدنه من أثر المعالجات المجهدة، وإن لم تنفع مع المريض المفردات وصفتُ له المركَّبات والأدوية القوية. وكنتُ أردِّد على مسامع المصابين بغير الأمراض الحادة والمزمنة، الحكمة المنسوبة إلى الإمام علي بن أبي طالب: سِرْ بدائك ما استطعت، ولا تضطجع مع العلة ما دمت قادرًا على القيام والمشي.. ومقصدي من ذلك، استنفار قوى المريض كي تتمكن من مقاومة العلَّة، بمساعدة المفردات والأغذية الدوائية، فإن كان المريض يشكو علةً قتالة، نصحته بالذهاب إلى البيمارستان. فإن تهيَّب المريض من الذهاب للبيمارستان، ألزمته بيته وباشرتُ علاجه بمنزله. وإذا اجتمع على المريض علَّتان، بادرتُ إلى علاج الأقتل منهما والأشد خطرًا، لأتجنَّب الأفعال المتضادة للأدوية.

ولأن كل مريض يريد بُرء الساعة وسرعة الشفاء، فقد شنَّع بعضهم عليَّ بأنني غيرُ ماهرٍ في المداواة وقليلُ البصر بالعلاج، فترفَّعتُ على مجادلتهم. ولأن العطار الشرابي يريد أن يبيع للناس المركبات والأدوية القوية، غالية الثمن، فقد كان يغتاظ من منهاجي العلاجي ويقول لي متهكِّمًا: إذا بقيت تصف للناس هذه الوصفات، فاجلسْ على دكان اللحَّام والشواء وبائع الخضراوات، ولكن ما دمت تقعد عندي، فلا تصف إلا الأشربة العلاجية والأدوية.. فلم أكن أردُّ عليه.

ومع مرور الوقت والتزامي بطريقتي هذه في المداواة، وظهور نتائجها الجيدة، بدأ الأطباء وعموم الناس يستحسنون منهاجي ويمتدحون طريقتي. وقد رافق ذلك ابتكاري لمقدحة تسحب الماء السادّ للعين، ليست مثلثة العنق ورأسها كبيرًا كتلك التي يستعملها الأطباء، وإنما رقيقة الرأس كالسيف وفي صفحتها حَزٌ يسيل منه الماء، وعنقها مستدير. فكان أخذ الماء النازل في العين بتلك المقدحة، أسهل وأنجع وأقل خطرًا على العين. كما ابتكرت طرقًا أخرى لمعالجة الرمد وأمراض العيون، وصفتها لاحقًا بالتفصيل في كتابي «المهذَّب في الكحل المجرَّب» أي في طب العين. فجعل ذلك لي سيرةً طيبة، ودفع الناس للإقبال عليَّ واستدعائي لمعالجة المرضى، وكان منهم أثرياء أغدقوا عليَّ فاستغنيتُ عن القعود عند العطار الشرابي، وتفرَّغتُ لعلاج المرضى في داري أو في منازلهم. كما اتسع عندي الوقت للتأليف في عدة علوم، فكتبتُ في اللغة «طريق الفصاحة» في مجلدين، وصنَّفتُ في المنطق الملخص المختصر «الوريقات» الذي شرحته لاحقًا في كتاب كبير، وفي الحديث النبوي ألَّفتُ «المختصر في أصول علم الحديث»، وفي الطب كتبتُ «رسالة في أوجاع الأطفال»، وشرحتُ كتاب حنين بن إسحاق «المسائل في العين».

وكنتُ خلال ذلك، لا أنقطع عن النظر في كتب العلوم المختلفة وفنون المعارف، شغفًا وليس بغرض الاشتغال.

وكنتُ يومًا بسوق الورَّاقين، وذلك في حدود سنة أربعين وستمائة، فوجدتُ مجلدًا فيه عدة رسائل لرجلٍ فاضلٍ كان يعيش بالقاهرة قبل أكثر من مائتي عام، اسمه «الحسن بن الهيثم» وأكثر كتاباته في الفلك والهندسة. وعرفتُ أن له كتابًا كبيرًا عنوانه «المناظر» يقع في عدة مجلدات، لكن هذا الكتاب ليس متداولًا ويندر عند الوراقين. فبذلتُ جهد طاقتي للوصول إلى نسخةٍ منه، حتى وجدتها، فوجدته كتابًا جليل القدر عظيم النفع.

ولفت نظري فيما قرأته من مؤلفات هذا الفاضل الملقب «ابن الهيثم» أنه كثيرًا ما يستعمل في ثنايا كلامه عبارة: وهذا ما يستفاد من العلوم الحقيقية.. فأمعنتُ النظر في وصفه هذا لعلوم الفلك والرياضيات والمرايا المحرقة، بالعلوم الحقيقية. وبعد طول تأمُّلٍ في الأمر، أدركت أن تلك العلوم «العقلية» تعتمد على الاستقراء، وقوامها هو البرهان. وهي بذلك تختلف عن المعارف «النقلية» التي تقوم على الرواية والسند وما قاله السابقون عن السابقين، مثلما هو الحال في الفقه والتفسير والحديث، وغير ذلك مما يُسمى علوم الدين. وهذه العلوم «الحقيقة» تختلف أيضًا عن المعارف التي تستحسنها نفوس جماعةٍ من الناس وقد لا تكترث بها جماعة أخرى، مثلما هو الحال في النحو والبلاغة والأدب، وغير ذلك مما يُدعى علوم اللغة. فهذه المعارف الدينية واللغوية علومٌ ليست حقيقية، أي لا تقوم على الاستقراء ولا يمكن البرهنة على قضاياها. ولذلك، فهي

تثير الخلاف بين الناس وقد تزرع بذور المنازعة بينهم.

ورأيتُ أن الطب يعتمد على الاستقراء، وإن كان يعتد بالخبرة السابقة والتجربة، ولكن العمدة فيه والمعتمد هو ما يتأكد بالاستقراء. فقد دلَّ الاستقراء على أفعالٍ معينة للمفردات والأدوية في الأبدان، بل وأفعال معينة للأغذية، على النحو الذي حصرته لاحقًا في كتابي المختصر «المختار من الأغذية» وأفضتُ فيه بأجزاء المفردات من كتابي الكبير: الشامل في الصناعة الطبية.. واستنادًا إلى هذا الاستقراء، الذي يتأكد بالتكرار فيصير خبرة، يقوم الطبيبُ بوصف الدواء للمريض، وينصح الشخص السليم بما يحفظ صحته ويقيه من الأمراض.

كما دلَّ الاستقراءُ على أن لرطوبات هذا العالم، انفعالات تحدث مع الأحوال التي تعرضُ في القمر، فإنها تنقص عند الاجتماع وتزداد عند الاستقبال والتربيع. ولذلك تزداد مياه العيون والآبار في أنصاف الشهور، وتنقص في أواخرها، ويحدث في البحر المد والجزر. ولأن جسم الإنسان فيه رطوباتٌ ومائية كثيرة، فهو لا محالة يتأثر بحال القمر. ولهذا وجب على الطبيب النظر في ذلك الجانب، عند المعالجة وتدبير الأبدان وحفظ صحتها.

وانتهيتُ من النظر في ذلك، إلى أن المسائل المعلومة بالاستقراء إذا جُمعت في قاعدة واحدة، سهُل إقامة البرهان عليها جميعًا، ومعرفة قواعدها العامة. ولهذا نقول إجمالًا إن كل عطريٍّ مفرِّحٌ للقلب، وكل حلوٍ جلاءٌ

للصدر، وكل نائظٍ مُنعظٌ. لأنه يدفع الأرواح في العروق فيُحدث الانتصاب مع تدفق الدم والأرواح. ونحن في الطب لا نقصد بالأرواح، معناها الديني الوارد في الكتب الإلهية، وإنما نعني بها القوى الشبيهة بالبخار الخفيف، الجارية مع الدم عند دورانه في البدن كي تمنحه الحياة والقدرة على الفعل.

دعاني ذلك إلى قصر اهتمامي واقتصار تأليفي، على الطب، باعتباره واحدًا من العلوم الحقيقية. بل ويمتاز الطبُّ بين هذه العلوم الحقيقية، بأنه لا يُضبط بالاستقراء وسابق التجربة فقط، وإنما ينضبط أيضًا بأمورٍ خارجة عن يد الطبيب، وغير منوطة بشخصه أو بإرادته. فهو يدرس المتون الطبية على يد أستاذٍ ممارس، فيقرأ عليه مؤلفات أبقراط وجالينوس وغيرهما، حتى يعطيه الأستاذ الإجازة، ثم يُعرض على رؤساء الأطباء لعمل ما يسمى «المحنة» لاختبار قدرته على الاشتغال بمعالجة المرضى. وعند هذا الامتحان، يُكرم بالموافقة أو يهان بإعادته إلى الدروس مع الطلاب. حسبما قال الإمام «أبو الفضل الميداني» في كتابه «مجمع الأمثال» من أنه: ساعة الامتحان يُكَرَّم الشخص أو يُهان.. فإن أجيز طالب الطب وبدأ في مباشرة المعالجة والعمل بالمداواة، راقبه المحتسبُ ونظر في أية شكوى تُرفع ضده، أو تهمة. وبعد التحقيق قد يوقفه المحتسبُ عن العمل، أو يعاقبه، أو يُعلن براءته من تلك الشكوى أو هذه التهمة. وبهذه الحسبة على الأطباء، يكون

ضمان عملهم واستحقاقهم الثقة.

وعندما وجدت أن الطب واحد من أكثر العلوم الحقيقية، حقيقةً، قصرتُ عليه اهتمامي. ولم أعد أشتغل بالتصنيف في المعارف الدينية، أو الفنون اللغوية. وخلال الأربعين سنة الماضية، التي مرَّت بسرعة، شرحتُ كتب الفضلاء من الأطباء السابقين، خصوصًا الفاضل أبقراط والفاضل جالينوس والشيخ الرئيس ابن سينا، شروحًا كثيرة. وكتبت مختصراتٍ مثل «رسالة في النبض» و«رسالة في الحرارة الغريزية والحرارة الكامنة في الأجسام الحية» ومطوَّلاتٍ طبية، مثل كتاب «الموجز» والكتاب الكبير «الشامل في الطب» الذي بدأت في وضع مسوَّداته منذ عقودٍ، آملًا أن يكون في ثلاثمائة مجلد، لكنني لم أبيِّض منها إلا الثمانين مجلدًا التي أودعتها العام الماضي في مكتبة البيمارستان المنصوري.

ولما صار الطبُّ هو همِّي الأول، ونفعُ الناس غايتي الوحيدة. أكرمني الله بمعالجات مبتكرة للأمراض، حتى المزمنة منها، وخصوصًا ما يتعلق بالرمد والكحالة. أي طب العيون. والمصريون أحوج الناس إلى ذلك، لكثرة الرطوبات في أبدانهم وتضرُّر عيونهم بها، وخصوصًا أهل القاهرة منهم. إذ تهبُّ عليهم رياحُ الخماسين المتربة، ويأتيهم غبارُ كثير من جبل المقطم والصحراوات المحيطة بهم، فيكثر رمدُ عيونهم.. ومع أنني كنتُ أداوي الفقراء احتسابًا لمرضاة لله، إلا أن الأثرياء الذين أعالجهم

كانوا يغدقون عليَّ. فاجتمع معي من المال ما لستُ في احتياج إليه، فاقتنيتُ قبل هذه الدار، دارًا فسيحة مجاورة للبيمارستان الناصري، القريب من «قصر الشوك» بقلب القاهرة. وكانت الدار رحيبة، فصرتُ أعقد فيها للطلاب جلساتٍ أسبوعية للتدريس، مقتصرًا فيها على الطب دون غيره من العلوم. وإيفاءً لنذر قديم، ما كنتُ أتقاضى منهم على تلك الدروس مالًا، وما كان يصح مني ذلك. فقد تعلَّمتُ الطب دون أن أدفع شيئًا لمن علموني، فكيف يصح أن أعلِّمه بأجرةٍ أو بأيِّ مقابل، غير رجائي أن ينفع هؤلاء الطلاب الناس بعد وفاتي.. التي دنا مني اليوم موعدها.

* * *

مع استقرار مقامي بالقاهرة صار لي أصدقاء، ومقرَّبون وصاروا يتحدثون معي في وجوب زواجي. غير أنني لم أتزوج مجددًا. لم أجرؤ. فقد بقيتْ عالقةً بي ذكرى «فاطمة» وولدي محمد، وإخوته الثلاثة الذين ماتوا قبل أن يعرفوا معنى الحياة. وكلما انفردتُ بنفسي تحيط الذكريات بي، وتلحُّ عليَّ في صحوي، وتأتيني منامًا. ما كنتُ مستعدًّا لتكرار أمرٍ مهلك، مثل فقْد الولد وموت الرفيقة. فاستعنتُ على نفسي بالعمل الكثير، وبالصبر على الوحدة، وبإدمان تناول الأغذية الجافة وخبز الشعير والزيتون الفَجِّ ولحوم الأرنب والتيس، وغير ذلك من الأغذية المجففة للمنيِّ، القاطعة للاحتلام، التي ذكرتها في كتابي «المختار من الأغذية».

وسارت أوقاتي على وتيرةٍ لا تتغير، إلا نادرًا. في يوم الجمعة أُصلي الظهر مع الناس في الجامع العتيق بالفسطاط، وأجالس الأصدقاء ساعة الغداء، ثم أمضي بقية يومي في التأليف وتصنيف الكتب. وفي بقية أيام الأسبوع، أصحو مبكرًا لصلاة الفجر ثم أستكمل ما أكتبه حتى الضحى أو الظهيرة، فأزورُ المرضى الذين لا يستطيعون الحركة، أو أستقبل الذي يأتي منهم إلى داري. فأداوي أولئك وهؤلاء بصبرٍ وأناة، ثم أهجعُ سويعة عصرًا إن وجدتُ إلى ذلك فرصة، فإن لم يسمح الوقتُ أو جلستُ للتدريس حتى موعد صلاة العشاء، بقيت في داري وواصلتُ الكتابة والتأليف. وفي كثير من الأيام كنتُ أؤدي صلاة العشاء

جماعةً بالمشهد النفيسي، وأحيانًا بزاوية صغيرة خلف الجامع الأزهر المهجور، المغلقة أبوابه منذ قرابة مائة عام. وفي الليلات القمرية الرائقة، أستحسنُ الجلوس وحدي في هدوء وسكينة عند تلك الزاوية الصغيرة، بعد الصلاة، وأتطلع إلى أعالي جبل «المقطم» وقد كساه ضوء القمر مهابةً وجلالًا يجمح معه الخيالُ إلى نواحٍ لا حدود لها. المقطم يشبه قاسيون.

وفي ليلةٍ صيفيةٍ بالغة الصفو، هي الليلة التي يُسفر صباحُها عن يوم السبت الموافق لخامس عشر شهر ربيع الأول من سنة خمسٍ وأربعين وستمائة. وكانت سِنِّي آنذاك قد اقتربت من التاسعة والثلاثين عامًا، تلاحقت عقب جلوسي بذاك المكان القاهري الهادئ عدةُ أمورٍ، جرت على غير ما عهدته هناك من السكون المسالم والسكينة المستسلمة لأقدار الله.. ليلتها، أثناء أداء صلاة العشاء جماعةً، دخل الزاوية جماعةٌ من المعزِّين لا يزيد عددهم عن عشرة أشخاص، معهم جثمان طفلٍ مكفَّن أرادوا أن نصلِّي عليه صلاة الجنازة في هذا الوقت، لأن أباه يريد دفنه في المقابر القريبة دون الانتظار للصباح، عملًا بقاعدة «إكرام الميت دفنه» التي يتوهم كثيرون أنها حديث نبوي. وخلال صلاة الجنازة، طفر فجأةً بداخلي حنينٌ جارفٌ إلى الشام، وإلى دارنا بالقَرْش، وإلى بهجة السير في طرقات دمشق أيام صباي.. فتوهمتُ مع هذه الصبوة المفاجئة أنني سأموت قريبًا، لأن النهايات تستدعي عادةً البدايات. بيد

أنني عشتُ من بعد تلك الليلة أربعين عامًا.

بعد صلاة الجنازة على الطفل وخروجهم بجثمانه للدفن، انفردتُ بنفسي في الموضع المعتاد، ومن خلفي «عيد الحبشي» والبغلة التي أتنقَّل بها. «عيد» عبدٌ أهدانيه تاجرٌ ثريٌّ، وفَّقني الله في علاجه من بثورٍ كالقوابي كان يؤرِّقه انتشارُها السريع في أنحاء بدنه، فداويته بالمراهم وبطلاء «قُفْر اليهود» حتى بَرَأَ من علَّته، فأعطاني على سبيل المكافأة مالًا كثيرًا. ومعه رَقّ «عيد» ليخدمني في داري الجديدة، عبدًا، فأعتقته بعد شهورٍ. لكنه فضَّل البقاء عندي. هو شخصٌ ضخم، وفي وجهه عبوسٌ، لكنه مخلص وفي قلبه طيبةٌ نادرة.

ابتعدت الجنازةُ الذاهبة إلى المقابر، وابتعدتْ خواطري مسترسلةً في سَرَيانها، حتى توقَّفتْ عند مسألة موت الأطفال، وسبب خلق الله لهم ما دام قد قدَّر عليهم الموت مبكرًا. ورأيتُ بعد جَوَلان التأمُّل، أن حياة الإنسان مثل إناءٍ حجمه يكون كبيرًا إذا طال عمره، وصغيرًا إذا مات في الصغر، وفي الإناء ماءٌ هو البدن. وفي الماء زئبق، هو النفس. فالزئبقُ يتأثر بحركة الماء، والماء يتأثر بدوره بحركة الإناء، فإذا ارتجَّ الإناء اهتاج الماء وتفرَّق الزئبق إلى كراتٍ صغار. وهذا ما تفعله ظروف الحياة في كل إنسانٍ، لأنه محكوم لا محالة بحدود الإناء وحركته، سواءٌ من حيث أثرها في جسمه، أو في نفسه. فإذا توقف الارتجاج، أي محن الحياة، عاد الماء لصفائه واجتمعت

كرات الزئبق في قطعةٍ واحدة، براقةٍ بلون الفضة. فسكونُ النفس وتماسكها حين يضطرب ماءُ الإناء، هو حال الأولياء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أما الجزءُ الذي نراه في الناس المتفرقة أهواؤهم، المنقسمة نفوسهم على نفسها، فهم المتحيِّرون في بحر الحياة. حتى إنهم في غالب الأوقات لا يدرون بما يريدون، وقد يسعون إلى ما فيه هلاكهم. وسكونُ النفس عند احتدام الأحوال، هو سبيل صاحبها إلى الراحة في الدنيا، والسعادة في الآخرة..

«أنت «عليّ بن أبي الحرم» الكحَّال؟».. أخرجني فجأةً مما كنت أفكر فيه، رجل أجشُّ الصوت لم أشعر باقترابه، إلا حين صاح فيَّ بهذا السؤال. أجبته بالإيجاب، فقال إنه ذهب إلى داري ليخبرني بأن الرئيس «رشيد الدين» يريدني، فلم يجدني هناك وقيل له إنني هنا. وأردف: هو ينتظرك الآن عند قلعة الروضة.

لم يدهشني هذا الاستدعاء العاجل، لأن رئيس الأطباء «رشيد الدين» الملقَّب بالحكيم «أبي حُليقة» كان قد بعث في صباح ذاك اليوم مرسالًا، يدعوني إلى داره الرحيبة المشرفة على «الميدان الصالحي» الذي كان يُعرف سابقًا ببستان الشريف حصن الدين ثعلب. فلما جاءني منه المرسال صباحًا، أسرعتُ إليه تقديرًا لسابق فضله عليَّ، فهو أحدُ الرؤساء الثلاثة الذين منحوني قبل عشر سنوات، الإذن بالاشتغال بالطب والكحالة. كما أنه حكيمٌ بارع وله معالجات مبهرة، وقد اشتغل بالمداواة في سنٍّ مبكرة،

وصار رئيسًا للأطباء في حدود الثلاثين من عمره، وخدم الملوك. فكان طبيب الملك المعظم «توران شاه» الأيوبي، وخدم من قبله أباه الملك الصالح «نجم الدين أيوب» ومن قبله الملك الكامل «محمد» ابن الملك العادل الأيوبي. وكان الملكُ الكامل هو الذي لقَّبه بأبي حُليقة، لأن في أذنه حلقة صغيرة من الفضة. كان أبوه قد وضعها له عند مولده، لتحفظه، فاحتفظ بها طيلة عمره.

ومما لا أنساه، أن الفاضل مهذب الدين أبا حُليقة، يوم قام باختباري مع اثنين من كبار الأطباء، كشرط لممارسة أمور المداواة والعلاج، وهو ما يعرف بمحنة الطبيب. سألني الاثنان أسئلةً يعرف إجابتها كل مبتدئ، وظل هو هادئًا لا يبدو عليه أيُّ انفعال، ولما جاء دوره سألني برفقٍ سؤالًا بالغ الدقة: هل نعرف خواص الأدوية بالقياس؟.. وأجازني بعدما أجبته بأن ذلك يمكن فقط في الأغذية الدوائية، ويجب الحذر معه، أما الأدوية الصرفة وخصوصًا إذا كانت مركَّبة، فلا يصح الاعتماد فيها على القياس البتة، وإنما نقف على خواصها وأثرها، من التجربة والخبرة السابقة. لأن الدواء المركب قد يكون نافعًا، مع أن مفرداته شديدة الضرر، لكن التركيب أعطاها معًا صورة نوعية مختلفة.. قال لي:

ـ أعطني مثالًا على ذلك.

ـ قروحُ العين. تُعالج بمركَّب الزنجار وبياض البيض، فيكون ذلك نافعًا لها، بالتنقية والتجفيف دون لذع. مع

أن كل واحد من الدوائين، ضارٌّ بمفرده.

ـ كيف؟

ـ الزنجارُ مجفِّفٌ، لكنه أكَّالٌ وحادٌّ. وبياضُ البيض ملطف لكنه مفرط الترطيب. فإذا جُمع بينهما، حصل من الزنجار تجفيفٌ، ومن بياض البيض تسكينٌ لحدة الزنجار وتقليلٌ من قوة تجفيفه. فيكون هذا الدواء نافعًا، مع أن كل واحدٍ من مفرداته ضار.

ولما وجدته يستطيب كلامي، أضفتُ يومها: ولهذا، كان المجرَّب من الأدوية المركبة أفضل من غير المجرَّب، وما هو مشهورٌ من المركّبات أفضل من الغريب، لأن المشهور لم يشتهر إلا بعد أن جُرِّب كثيرًا فكان نفعه أكثر من ضرره، والغريب بخلاف ذلك.. قاطعني بسؤاله:

ـ وماذا عن العمل باليد؟

ـ العمل الجراحي لا يجب اللجوء إليه، إلا عند انعدام دواءٍ شافٍ غيره، وعند الاضطرار إلى بتر عضوٍ طرفيّ. فهو السبيل الأخير للمعالجة.

«قم يا ولدي، حفظك الله» قال الفاضل رشيد الدين ذلك يومها، وأجازني، فصدَّق على حكمه الحكيمان الآخران.. ابتسمتُ حين تذكرت ذلك، حين ذهبت إلى داره في الصباح مستبشرًا باللقاء. استقبلني مرحبًا وجلسنا سويعة سألني فيها عن بعض دقائق الكحالة ومداواة الماء النازل في العيون، وعندما جاوبته بما عندي، لمحتُ في

وجهه سمة الرضا. وكان ابنه الفاضل «مهذب الدين بن أبي حُليقة» حاضرًا. توهَّمتُ لحظتها، أن هناك نية لبناء بيمارستان لأمراض العين، ويبحثون له عن كحالين أكفاء للعمل فيه، ولكن ظهر في المساء أن الأمر بخلاف ذلك.. وكان الفاضل «رشيد الدين» قد أخبرني صباحًا بأنه سيرسل في طلبي الليلة أو غدًا، ولهذا لم أستغرب استدعاءه لي في المساء، ولكن أدهشني أمران. الأول أنني كنتُ ساعتها مستغرقًا في التفكُّر بأحوال الحياة والموت، وكدتُ أقول لنفسي لحظة وصول المرسال إن الفصل بين ما يحتويه إناء الحياة من بدنٍ ونفس، أو ماءٍ وزئبق، يكون جزئيًّا عند النوم. والفصل الكلي يكون بالموت. وهو ضرورة، كما قال الفاضل رشيد الدين أبو حليقة، في كتابه لطيف الحجم: رسالة في ضرورة الموت. وفي تلك اللحظة التي خطر فيها اسمه على بالي، وصلني المرسال! والأمر الآخر الذي أدهشني، هو مكان اللقاء الذي ذكره لي المرسال.

سريتُ ببغلتي من أطراف الحسينية إلى قلب الفسطاط، إلى المعبر المؤدي إلى جزيرة الروضة، ومن خلفي يهرول «عيد» ومرسال الحكيم رشيد الدين. عند قلعة الروضة المتهدِّمة جوانبها، كان الحكيم «رشيد الدين» ينتظرني راكبًا ومعه خادمان، ولما وصلت عنده أمرَ الخدم بالبقاء في موضعهم حتى نعود إليهم، وسار بي في طرقات الجزيرة حتى وصلنا إلى دار أنيقة، يظهر على الفور أنها لفارسٍ

كبير أو أمير من المماليك.

كان المماليك في مصر آنذاك، فيهم جماعتان كبيرتان ذواتا مكانةٍ وخطر، وما عداهما شراذم وأفراد وعساكر لا يؤبه لهم. الجماعة الأولى يُعرفون باسم «المماليك المعزية» نسبة إلى أميرهم المعز، عز الدين أيبك، الذي جمعهم حوله فاختصوا به وصاروا خشداشية. والجماعة الأخرى هم الذين يسمون «المماليك البحرية» لأنهم يسكنون جزيرة الروضة، المحيط بها نهر النيل. والقاهريون يسمون النيل البحر. وزعيم هؤلاء «البحرية» هو فارس الدين أقطاي. وبين أفراد الجماعة المملوكية، رابطٌ قوي، ونوعٌ من الأخوية والخلَّة يُسمى في كلامهم: الخشداشية.

أدركتُ عند ذهابي للروضة، ووصولي إلى تلك الدار الأنيقة، أننا ذاهبان لعلاج واحدٍ من المماليك البحرية. لكنني لم أعرف مَنْ هو، ولا سبب ذهابنا إليه في ظلام الليل. دخلنا من الباب الخلفي للدار، فكان عن يمينه حجرةٌ فسيحة، يجلس في جانبها الأيسر رجلٌ في حدود الثلاثين من عمره، بشرته تكتسي بسُمرةٍ لا تصل به إلى حدِّ الاسوداد. الرجل قويُّ البنيان، ضيِّقُ العينين، وفي عينه اليسرى بقعة من الماء الأبيض الذي يسميه الأطباء «السادّ» لأنه يمنع عن العين الرؤية الواضحة ويسدُّ آلة النظر. وقف الرجل لاستقبالنا، وسلَّم باليد، لكنه لم يبتسم مثلما هي عادة المستقبلين. قوامه القوي يدلُّ مع ملابسه على أنه واحدٌ من كبار الفرسان، فهو واسعُ الصدر عظيمُ

الهامة عريضُ الكتفين دقيقُ الساقين، وملابسه حريرية فاخرة. لون عينيه يميل إلى الزُّرقة الخفيفة، الأسمانجونية، وشعره كثيفٌ ويميل لونه إلى الحمرة والاصفرار، وجلسته المستوفزة تدل على حرارة مزاجه وسرعة غضبه وكثرة حركته.

جلستُ ساكنًا متجنبًا النظر نحوه، حتى رحَّب بنا بلغة عربية سليمة، ثم سألني إن كنت قد لاحظتُ ما في عينه؟ فأجبته بقولي: نعم، هو ماءٌ قديم نزل بها في صغرك، أو ربما تكون قد ولدتَ به.. فقال:

- هذا صحيح. لكنني أشعر مؤخرًا بأنه يزداد، ويزيد عيني إعتامًا.

- هو يزيد في العين مع التقدم في السِّنِّ..

- أريد منك أن تعالجه، وسأعطيك ما تطلبه من المال. كم تريد؟

- لا أريد شيئًا، ولا أطلب مالًا مقابل العلاج.

- فلماذا تعالج الناس؟

- لأن الله خلقني لذلك، فأجتهدُ في العلاج لنفع الناس وابتغاء مرضاة الله وثوابه في الآخرة.

تدخل الفاضل «رشيد الدين» في كلامنا ملطِّفًا، فقال إنني أعالج الناس احتسابًا ولا أطلب أجرًا منهم، والأهم من ذلك أنني كحَّال ماهرٌ وهو يثق بي. فبدا الرجلُ مرتبكًا

وهو يتوجَّه نحوي بحديثه، سائلًا إن كنت سأفحص عينه الآن؟ فأجبته بأنني سأحتاج لعمل ذلك، ضوء النهار. سكتَ الرجل على مضضٍ، فتدخل الفاضل «رشيد الدين» مجددًا، مخبرًا بأن هذه الجراحات دقيقة ولا يمكن إجراؤها أو فحصها على ضوء القناديل، لأن انعكاسات الضوء الصادر عنها، لا تساعد على إتقان العمل. هزَّ الرجل رأسه موافقًا، وقال مستسلمًا: ننتظر إلى الغد.. ثم سألني إن كنت قد عرفته، فقلت له: لا، ولكن من الواضح أنك فارسٌ.

- وكيف عرفت ذلك؟

- من هيئتك. ومنها عرفتُ أيضًا، أنك لا تنام بشكل جيد. وتتفزَّع في الليل كثيرًا.

- هذا صحيح. فهل لذلك دخلٌ في ازدياد الماء النازل في عيني؟

- نعم. لأن التفزُّع يصحبه ثوران الدم في الجسم، وهذا يؤدي إلى الضغط على العين، ويتسبَّب في تكثيف الماء النازل فيها.

- فهل عندك علاج لذلك؟

- سأفعل كل ما بوسعي، والله هو المعين والشافي.

سكت لحظة، ثم قال بعد أن حكَّ بقوةٍ شعر رأسه بباطن يُمناه: أنا من فرسان الملك الصالح، واسمي بيبرس..

وحين لاحظ اندهاشي من اسمه، قال موضِّحًا: هذا الاسم، كثيرٌ في الفرسان والعسكر، وأظنك تخلط بيني وبين الأمير «ركن الدين بيبرس» الذي هلك.. قلتُ: نعم، ولكن لم أكن أعلم بأنه مات.

تدخَّل الفاضل «رشيد الدين» ثالثًا، فأخبرني موضِّحًا بأن الفارس ركن الدين بيبرس، بعد أن انتصر على الفرنج في «غزة» وحظي برضا الملك الصالح، خانه، وراَسل «الخوارزمية» سرًّا ودعاهم للانضمام إليه والزحف بهم إلى القاهرة، ليخلع الملك «الصالح أيوب» ويجلس مكانه. فلمَّا انكشف تآمره وعلم به الملك، هرب، فاحتال عليه الملك الصالح أيوب وأظهر له استعداده للعفو عنه، واستدعاه، وحين ظفر به قتله.. كان «بيبرس» يحدِّق في الأرض، وعندما انتهى الفاضل «رشيد الدين أبو حليقة» من كلامه، عقَّب عليه كأنه يحادث نفسه: لا أدري ما الذي دهاه وقاده إلى تلك الخيانة، أما كان يرى خيبة مسعاه، مع علمه بأن عسكر الخوارزمية همج، وإذا ملكوا مصر فسوف يخربونها بفسقهم مثلما فعلوا بأطراف العراق، ولن يستطيع السيطرة عليهم. المهم الآن، متى ستأتي إليَّ غدًا يا حكيم؟

- بعد صلاة الظهر..

- جيد، سأنتظرك. ولا تخبر أحدًا بأنك تعالجني، فالكتمانُ أسلم، وادخل غدًا من هذا الباب الخلفي، ولا تحضر معك أحدًا، هنا خدمٌ سوف يساعدونك إن

احتجت معاونة منهم.

ـ سيكون معي كل ما أحتاجه، ولن تلزمني معاونة. وسوف تحتاج أنت بعد الجراحة، الراحة لعدة أيامٍ في حجرةٍ معتمة.

ـ لا بأس، سأنتظرك غدًا بعد صلاة الظهر.

* * *

كان لتلك الليلة والأيام التالية عليها، أثرٌ في حياتي وحياة «الظاهر بيبرس» رحمه الله، وهو أثرٌ كبير امتدَّ لسنواتٍ طوالٍ تَلَتْ. فقد عدتُ إليه في الغد وهيَّأت عينه لإخراج الماء منها، بالشيافات اللازمة، ثم استعملتُ معه المرقِّد القوي المتَّخذ من نبات «البنج» الأبيض، معجونًا بالسويق. وسحبتُ من عينه معظم الماء النازل فيها بمقدحٍ من الذهب، كنتُ قد صنعته على النحو الذي ذكرته سابقًا، واستغنيتُ به عن المهت المجوَّف الذي كان يُستعمل سابقًا.. وبعد عدة أيامٍ ألزمته فيها بالبقاء مستلقيًا على ظهره في حجرةٍ معتمة، كنتُ خلالها أزوره في كل يوم ساعةً، فأبدل له الضماد وأصف له من مأكوله ومشروبه ما يعجِّل بالبرء، وما يمنع عن نومه التقلُّق والتفزُّع والسُّهد. وبعد أن فككت الضمادات عن عينه ترفَّقتُ في استعمال المراهم الملطِّفة، خصوصًا صفار البيض المضروب بدُهن الورد. ولما رأى «بيبرس» أن معظم الغشاوة التي كانت في عينه اختفت، طار قلبه فرحًا، فاستمهلتُ ابتهاجه بقولي: لم ننتهِ بعد، فاصبر.

ربطت على عينه الأخرى، السليمة، ضمادًا معتمًا. ونصحته بألا يخلعه لمدة أسبوع، كي يقوى العصبُ البصري في العين التي عولجت، وتعتاد على النظر بعد طول الخمول.. استغرق ذلك كله قرابة شهر، اطمأن خلاله «بيبرس» لي شيئًا فشيئًا على غير معتاده، وصار يحكي بلا حذرٍ معي، فعرفتُ عنه وعرفتُ منه أشياء كثيرة.

كان «بيبرس» طفلًا عندما راح ضحيةً لحرب التتر مع الخوارزمية، إذ قُتل أهله وأُخذ أسيرًا ثم بيع في العراق بثمن بخس، لوفرة الأسرى، وردَّه الذي اشتراه إلى تاجر العبيد واستردَّ ماله، لمَّا رأى النقطة البيضاء في عينه. فقد قيل للمشتري إنها سوف تكبر معه، وتصيبه بعد حينٍ بالعمى. فذهب به النخَّاس إلى «حماة» وباعه إلى حاكمها مع مجموعة من الصبيان والجواري، فأعاده حاكم البلدة إلى النخَّاس، للسبب السابق. وفي سوق «حماة» للنخاسة بيع ثالثًا لرجلٍ يريد خادمًا بثمانمائة درهم، وبعدما اشتراه الرجلُ بيومين، أعاده إلى النخَّاس. وبيع لرابع مرة، إلى الفارس «أيدكين البندقداري» وهو من مماليك الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، ودفع فيه الثمانمائة درهم التي كان الرجل قد دفعها فيه قبل أن ينكص عن الشراء.. خفت صوت «بيبرس» وهو يحكي وقائع طفولته، المؤلمة، وزفر قبل أن يختم كلامه بقوله لي: رأيتُ الويل في تلك الأيام، وملأني القهر بالغضب من ثمني البخس، هل تعرف يا حكيم أن صاحبي «قلاوون» اشتراه «علاء الدين آق سنقر» بألف دينار، فصار يُسمى قلاوون الألفي، أما أنا فكان ثمني رخيصًا وصرتُ مردودًا عدة مرات.. قلتُ مواسيًا له ومتأسِّفًا على غدر الزمان بأهله: لا يصح أصلًا أن يُباع الإنسان ويُشترى، ويكون له سعرٌ، كبيرًا كان سعره أو صغيرًا.

- هذا كلام الفضلاء يا حكيم، لكن الحياة تجري على

غير ذلك.

- لا عليك من ذلك الماضي يا بيبرس، ولا تحزن، فقد بيع من قبلك «أفلاطُن» مع العبيد.

- من هو هذا الرجل؟

- هو أكبر حكماء اليونان القدماء، وأشهرهم، ولا يدانيه في المكانة إلا تلميذه أرسطاطاليس.

- لا أريد أن أكون حكيمًا. مع أنني أحب الحكماء، لأنهم غير غدَّارين، ولا يتآمرون. أريد أن أحكم، وأصير أميرًا لا يتحكَّم فيه أحد.

- سيفعل الله بنا ما يريد. استرح الآن، ولا تأكل الليلة إلا هذا الأرز المسلوق في الحليب. واقرأ المعوذتين وكررهما، حتى يغلبك النعاس.

- لماذا؟

- حتى تهدأ نفسك ويطيب نومك، ولا تأتيك الجوائم.

.. وكان من حسن حظ «بيبرس» أن الأمير المملوك الذي اشتراه في الشام، أيدكين البندقداري، أحبَّه وأشفق عليه واهتم بتعليمه فنون الفروسية والقتال. وعندما انقلب «الملك الصالح» على أيدكين، وجرَّده من منصبه وصادر ممتلكاته، ضمَّ «بيبرس» إلى مماليكه بالقاهرة، ثم أعتقه مكافأةً لمهارته في القتال وجعله من فرسانه. ولم ينسَ بيبرس جميل «أيدكين» معه، وردَّه لاحقًا، بعد مرور

سنواتٍ طوال ووقوعِ أحداثٍ جسام، ليس من المناسب أو المفيد أن نذكرها هنا.

* * *

بعد تمام شفائه بأيام فوجئتُ أثناء جلوسي في المساء أمام الزاوية المطلة على المقطم، بمجيء «بيبرس» متنكرًا في ملابس الفلاحين، وراكبًا حمارًا هزيلًا. أدهشتني هيئته، وابتسامته التي لم أرها من قبل، فقد عهدته دائم العبوس. سألته عن سبب استتاره وتنكُّره، فأجابني بأنه لا يحب أن يعرف أحدٌ بأحواله وتحركاته، لأنه لا يثق بأحدٍ ويتوجَّس من الجميع. ثم ضحك وهو يضيف: هذا شيء مشترك بين فرسان العسكر، لكنه عندي أكثر.

- فما الذي أتى بك في هذا الليل؟

- جئت لأعطيك هذه الصُّرَّة شاكرًا لك علاج عيني. فيها ألف دينار، هل المبلغ مناسبٌ يا حكيم؟

- هو كثير. أزلتُ الشهر الماضي ماءً نزل بعين صياد سمكٍ قبطي، فأعطاني بعد شفائه نصف درهم وسلَّة من البيض.

ضحك بيبرس ثم نظر إلى الأطلال التي في الخلف، وقال بعد لحظة تفكُّر: يجب إعمار هذا الجامع.. ولم ينتظر مني ردًّا، فقد ترك بجواري صُرة الدنانير وقفز برشاقة فاعتلى ظهر الحمار، ونخسه، فانطلق به في جوف الظلام متجهًا نحو قلعة الجبل.. بعد مرر عامٍ وبضعة شهور على تلك

الليلة، كنتُ في وقت الظهيرة أتهيَّأ إلى الذهاب لدار جاري «أحمد بن عمر النَّحَّال» للغداء معه، تلبية لدعوة ملحَّة منه. وأثناء استعدادي لذلك، أتاني مع مرسالٍ وَفَد من الشام إلى مصر، هدية ملفوفة بعناية. فتحتها، فوجدت فيها طيلسانًا من الصوف الفاخر، لامع الاسوداد، حوافه مزركشة بخيوط ذهبية دقيقة. ومعه قميصٌ أبيضُ، وقماش عَمَامةٍ من الحرير الذي كان يأتي من بلاد الصين، قبل خروج التتر إلى بلاد الإسلام، وصار اليوم نادر الوجود. في طيات الهدية رسالة من بيبرس لا تزيد عن سطرين، يخبرني فيها بعد السلام بأنه صار «أمير مائة» أي قائدًا لمائة فارس. وأنه يتمنى زيارتي عند عودته إلى مصر من الشام، لأنني بحسب ما وصفني في رسالته: صاحب فَضْلٍ عليه.

أسعدتني رسالة «بيبرس» أكثر من سعادتي بهديته الفاخرة، وهممتُ بوضعها في خزانة الملابس حتى تأتي مناسَبةٌ لارتدائها، فابتسم «عيد» وهو يقول لي إن الآن مناسب. فهذه أول زيارة إلى دار جاري الجديد، وهو رجلٌ أنيق الملبس، ولا يجب أن أكون أقل أناقةً منه. «عيد» شخص طيب. أخذت بنصحه وذهبت سيرًا إلى مقصدي القريب الذي لا يحتاج ركوبًا، إذ لا يفصل عن الدارين إلا داران. أحمد بن عمر النحَّال، شخصٌ لطيفٌ وأنيقٌ كما وصفه «عيد» وكان قد سكن بجوارنا قبل شهرين، والتقينا مراتٍ في الدرب المؤدي إلى دارينا، فتحدثنا الأحاديث العابرة، ودعاني لهذا الغداء فأجَّلت

الأمر مرتين ثم خجلتُ منه، فوافقت. هو يكبرني سنًّا ببضعة أعوام، لكنه يبدو مع وجهه الممتلئ الباسم، أصغر. ورث عن أبيه عمله وفدادين كثيرة بأطراف الجيزة، فيها مناحل، ولما كثر إنتاجه من العسل اشترى دكانًا كبيرًا بالقيسارية القريبة من البيمارستان الناصري وسكن هو وأسرته بالقرب منه. زوجته البدينةُ حسناءُ الوجه لطيفة الحضور، وابنهما «أبو بكر» شابٌّ بهيُّ الطلعة في حدود العشرين من عمره، وله أختٌ أصغر منه بعامين اسمها «فاطمة» ذكرتني فور رؤيتي لها، بزوجتي رحمها الله. ليس فقط لأن لهما الاسم ذاته، ولكن لأنهما في عمرٍ متقارب وعيونهما متشابهة الشكل. لم أستغرب جلوس أسرة جاري بكاملها على مائدة الغداء، فقد عهدتُ ذلك سابقًا في أهل القاهرة وما حولها، فهم قياسًا على الشوام وسكان الصعيد أقل تحفظًا وغيرةً على النساء وحجبًا لهن من أنظار الغرباء.. كان الغداء شهيًّا ومطبوخًا كله داخل الدار، حتى الخبز والمشهيات والكوامخ. ذكرني ذلك بديارنا الأولى بالشام. بعد الغداء سألتني زوجه جاري «النحّال» كيف أتدبر أمر وجباتي اليومية، فأجبتها بأن «عيد» يجلب لنا كل يومٍ ما نأكله، من حوانيت الشوائين والطباخين. خبطت على صدرها برفق، وقالت بوجهٍ باسم وحاجبين ينعقدان إن هذا لا يليق بحكيم مرموق مثلي. هكذا وصفتني. فتدخّل زوجها معتذرًا عن تدخلها فيما لا يعنيها، فقالت غير مكترثة باعتذاره: كيف لا يعنيني؟ الجارُ للجار.. راق لي حالها الطفولي الطريف وطريقتها البريئة حين تحكي، فقلت

لها ملاطفًا: فما الحل في رأيك؟ قالت: أمامك يا سيدي أمران، فاخترْ ما يعجبك منهما.

ـ وما هما؟

ـ لن أتكلم حتى يعطيني زوجي الأمان.

ضحك ابنهما «أبو بكر» وهو يقول: سيعطيكِ، لأنه يعرف أنكِ سوف تتكلمين في كل الأحوال. وقالت «فاطمة» بصوتها الرقيق: لا، أمي تحب مشاغبة أبي، وهي متأكدة من أنه سوف يسمح لها بالكلام.. وقال أبوهما وهو ينظر نحوي، وقد اتّسعت ابتسامته: ما رأيك يا حكيم؟.. قلتُ: لا بأس، أود أن أسمع منها.

قالت إنها سمعت عني من قبل أن تراني، كل خير: فالناسُ هنا يحبونك ويشكرون فيك، وقَدْرك بينهم كبير، فيمكنك اختيار أي زوجة ولن يرفضك أحد، أو تشتري جاريتين للعناية بأمور دارك وبك، أو تكتري خادمة تجيد الطبخ وتكون أمينة ومخلصة.

ـ هذه ثلاثة حلول، وليس اثنين يا أختاه.

ـ لا يهم، اخترْ منها الحل الذي يناسبك. وأنا اسمي «مروى» ويسعدني أن تراني كأختٍ لك.

ـ دعيني أفكر في الحل الأنسب، وإن كان ثالث الحلول يبدو الأكثر مناسبة.

ـ فما الداعي للتفكير. اسمع يا حكيم، الخادمة التي

تساعدني هنا اسمها «شم الورد» وهي ماهرة ومخلصة وأمينة. ولها أختٌ مثلها، أرملة، كانت تعمل معها بدارنا في الجيزة. اسمها ياسمينة. وهي الآن بلا عمل، وأجرتها في الشهر ثلاثين درهمًا، وقد تقبل بعشرين. فما قولك؟

ـ موافق. سأعطيها الثلاثين وإن وجدتها مجتهدة، سأجعلها أربعين. ولكن، هل ستعود مساءً إلى الجيزة؟ الطريق ليست آمنة بالليل.

ـ هي لا أولاد لها، ولن تحتاج الرجوع كل يومٍ إلى الجيزة. فاتركها تبيتُ في دارك، فإن كان ذلك يزعجك، فيمكنها أن تبيت عندنا مع أختها.

عقَّب «أحمد النحال» على كلام امرأته بأنها تريد لك الأفضل يا حكيم، فهي تحب الخير لكل الناس، وكان أبوها كذلك وأمها، فتوكل على الله في هذا الأمر. والآن، هل تحب أن تسمع شيئًا من أشعاري؟ لكنها بالعامية لا الفصحى، وابني «أبو بكر» يعزف على العود.. قلتُ له: أحب أن أسمع شعرك، وعزفه على العود.

بقيتُ عندهم حتى غابت الشمس ولم أنتبه لفوات صلاة العصر، إلا حين سمعتُ أذان المغرب، غير أنني كنتُ مبتهجًا بكل ما كان خلال ذاك اليوم الجميل، ورأيت ليلتها في منامي أحلامًا مريحة ومفرحة. بعد يومين وصلني من صديق قفصانِ من التمر الأحمر الكبير، فأهديتُ واحدًا منهما إلى دار النَّحَّال، وعاد «عيد» من هناك سعيدًا.

سألته عن السبب فقال إن زوجة النَّحَّال نفحته خمسة دراهم، وضحكتُ حين أردف: صار معي الآن سبعين درهمًا، أصبحتُ فاحش الثراء.

في مطلع شهر رجب من العام السادس بعد الأربعين وستمائة، وكان الأوان آنذاك هو ابتداء فصل الشتاء، أخبرني «عيد» أن جيراننا الطيبين أحضروا لنا الخادمة «ياسمينة» فاستدعيتها وتحدَّثت معها قليلًا، فوجدتها هادئةَ الطبع ومسكينةً منكسرة ولا تثير الريبة. وبدأت العمل في داري من الصباح التالي، وصارت تبيتُ ليلا في دار النَّحَّال في حجرة أختها، إذ لم يكن من اللائق مبيتها عندي في الحجرة المقابلة لحجرة عيد. فكلاهما أعزب. وبعد شهرين أو ثلاثة فوجئت بطلب «عيد» الزواج منها، وقال إنه سيعطيها السبعين درهمًا التي ادَّخرها، مهرًا، والست «مروى» تطوعت لهما بفرشٍ وخزانة ملابس، وسوف تتولَّى أيضًا وليمة العرس.

- وليمة..

- نعم يا سيدي. عشاءٌ لنا ولبعض الجيران، حتى تكون الزيجة معلنة، وشرعية. هي قالت ذلك. هل توافق يا سيدي؟ أرجوك وافق.

- موافق يا عيد، واحفظ معك الدراهم سأعطيك مائة درهم، للمهر وأزيد عليها خمسين هديةً للعروس.

- شكرًا. الحمد لله. أنا فرحان يا سيدي، فرحان.

كانت أحوال حياتي وقتذاك قد تيسَّرت، بعدما وفَّقني الله إلى علاج كثيرين من المرضى، وصار الكبراء يسعون إلى معالجاتي وتدبيري لحفظ صحتهم. كما ازداد عدد طلابي وأقبل كثيرون على قراءة كتبي وشروحاتي، فانتشرت نُسخها في أسواق الوراقين. في القاهرة ثلاثة أسواق كبيرة للوراقة والكتب. وصار في داري خزانة بحائط غرفة نومي، فيها من المال ما يعدُّ بألوف الدنانير الزائدة عن احتياجي، فطفرت بخاطري فكرة شراء دار ملاصقةٍ للبيمارستان الناصري، لأوقفها عليه وأضمها إليه بعد وفاتي، مثلما فعل الفضلاء من قبلي.

يوم عرس «عيد» ابتهجت أسرة جاري «النحال» كأنهم يزوّجون ابنتهم الجميلة، وأقاموا وليمة العرس بدارهم وأكرموا مَنْ حضر من الجيران. وبعدما ذهب «عيد» وزوجته مساءً إلى داري، ذهبتُ إلى موضعي المعتاد خلف الجامع المهجور، الأزهر، وكان بردُ الليل محتملًا فأطلتُ الجلوس إلى ما بعد منتصف الليل.. أفكارٌ متفرقةٌ تدفقت برأسي، وأسئلة: الأحوالُ في الشام صارت هادئة، فهل يجب أن أذهب لزيارة الذين تبقَّوا من أهلي هناك؟ هل سأتحمل رؤية المكان بعد رحيل السكان، مع علمي بأنهم لن يعودوا؟ لن أترك القاهرة، فقد وجدت فيها ما أريد من الدعة والسكينة والهدوء، ويجب أن أُتم كتابي الكبير في الطب. جاري «أحمد النَّحَّال» محظوظٌ بزوجته، وابنته فاطمة فاتنة. هل الفتنة كامنة في حسن الفاتن

أم شغف المفتون؟ الليلة في العُرس، حين جاءت إلينا «فاطمة» باسمةً بطبقَي الأرز واللحم المطيب بالصَّلْص، سألتُ أباها عن سبب تأخره في تزويج ولده وابنته. فأجابني بأن ابنه «أبا بكر» خطب فتاةً يحبها، وسوف يتزوجان العام المقبل. وفاطمة خُطبت مرةً، ولم تكمل الزيجة لعدم الوفاق. فُسخت الخطبة قبل انتقالهم للسُّكنى في القاهرة، بشهر أو شهرين. المصريون، وخصوصًا ساكني المدن الكبيرة، يتأخر زواجهم، بخلاف الحال عند الشوام وأهل القرى. ستكون فاطمة زوجة جميلة، ومبهجة، لرجلٍ محظوظ. هي لم تكمل بعد العشرين من عمرها. لو عاش ولدي «عبد الله» لكان مناسبًا لها، وكانت مناسبةً له، وكانا سيُنجبان لي أحفادًا أفرح بهم. لقد كبرتُ في السِّنِّ بسرعة، وأهل الفضل يقولون إن مَنْ بلغ الأربعين، فعليه أن يعمل للآخرة. سوف أرضى بحظي الحالي من الدنيا وأعمل للآخرة، فلم يعد لي من متاع الدنيا نصيب، ولا أظن أنني سأعيش حتى أبلغ الخمسين من عمري.. لا.. لا أحد يعرف الغيب، والأعمار بيد الله.. ولكن لن أتزوَّج.. هذا أسلم.

* * *

في الأشهر التالية رأيتُ «فاطمة» عدة مراتٍ، وكثيرًا ما سمعت من الخادمة «ياسمينة» مديحًا لجمالها ورقَّتها. هي بالفعل جميلة ورقيقة. أخوها «أبو بكر» طلب مني أن يحضر درس الطب مع الطلاب في داري، ليحيط بمبادئ حفظ الصحة، فوافقتُ، فانتظم. كنتُ أيامها أشرحُ بالجلسات كتاب أبقراط «تقدمة المعرفة» وكلما وقعتْ عيني عليه وهو جالسٌ أمامي وسط الطلاب، تذكرتُ أخته. صرتُ أفكر فيها كثيرًا، لكنني حافظتُ على الوقار فلم أظهر اهتمامي بها، ولا ذكرتُ لأحدٍ أنني كنتُ أحلم بها في نومي، وأتمنى رؤيتها في الصحو.

نظرتُ مرةً من شباك غرفتي إلى صحن الدار، وقت الضحى، فوجدتها جالسةً إلى جوار «ياسمينة» على الأرض وتحتهما ملاءة مفروشة، وبين ساقَي كل واحدةٍ منهما «رحاية» تجرش بها حبوب الذرة. الملابسُ الصيفية الواسعة تكشف من جمالها ما يبهر النظر. لم تشعرا بي، ولم أستطع غَضَّ البصر من فرط انبهاري بسطوع شموس حُسنها، فتسمَّرت عيناي عندها لحظات حتى استفقتُ على زجري لنفسي بأن التلصُّص لا يصح، ولا يليق بي. تراجعتُ عن النافذة محتارًا، وجلستُ على طرف سريري أراود نفسي للتخلِّي عن خوفي المفرط من التفكير في الزواج، مجددًا، وإنجاب الأطفال. وانتهيتُ من دوار دوران الأفكار، إلى أنني سوف أستطلع بلطفٍ رأيَ «أحمد النَّحَّال» وأشيرُ للأمرِ من بعيد. تلميحًا لا تصريحًا.

نعم، يجب أن أفاتحه في هذا الأمر، حين ألقاه في المساء.. نويتُ ذلك ولكن في عصر ذاك اليوم، وقعت الواقعة.

كنا في شهر ربيع الأول من سنة سبعٍ وأربعين وستمائة، وكان الصيفُ قد انتصف. وفجأة، في غمرة غفلتي الهانئة التي لم تدم، وحلمي بإمكان زواجي ممن أميلُ إليها. دار المنادون يزعقون في الطرقات، وتصايح الناسُ من فوق أسطح المنازل، بأن الفرنج أخذوا مدينة دمياط.. دمياطُ، مرةً أخرى.. كان «الملك الصالح» قد أُبلغ سابقًا أن الفرنج ينوون أخذ دمياط، فحصَّن المدينة وزاد فيها من العسكر. لكن حماة المدينة لمَّا رأوا من فوق أبراج أسوارها جيش الفرنج الجرار، مقبلًا عليهم من البحر بقرابة ألفَي سفينة عسكرية، تحمل ثمانين ألف جندي. فزعوا، فتركوا المدينة وهربوا، فأخذها الفرنج دون أن يُستل سيفان أو يتناطح عنزان.. والأنكى من ذلك، أن ملك «بلاد الغال» الذي قاد تلك الغزوة، أعلن على الملأ أن جيش الفرنج جاء هذه المرة قاصدًا القاهرة، كي يقطع حسبما قال، رأس الأفعى. وكان يقصد بدعواه هذه بثَّ الرعب في قلوب المسلمين، لعلمه أن التتر أيضًا قادمون بجيوشهم من نواحي الشرق، وينوون دخول «بغداد» ليقطعوا دابر الإسلام والمسلمين.

اشتد غضب «الملك الصالح» على حامية دمياط الذين تركوها غنيمةً سهلة، وشنق منهم ستين رجلًا من أعيان دمياط الذين أشاروا على الحامية بالهرب، فثار عليه العسكر الذين ظنوا أنه سوف يبطش بهم، بعدما بطش بالأعيان

وكبار التجار. اجتمع جماعة من عساكره لقتله، لكنهم حين دخلوا عليه وجدوه مريضًا يلفظ أنفاسه الأخيرة، فتركوه يموت دون أن يحملوا عار اغتياله. وهكذا مات الملك الصالح «أيوب» بعد أيامٍ قليلة من إعلانه النفير العام، وهو أسير فراش المرض. وعقب وفاته تولَّت تدبير الأمور، زوجته «شجرة الدرِّ» التي استدعت هي وأمراء العسكر، ابنه الجسور الأرعن «توران شاه» الذي كان يحكم بلدة من ثغور شمال الشام اسمها «حصن كيفا».

وصل «توران شاه» إلى القاهرة وجلس على عرش أبيه المتوفى كمدًا، ووصلت تباعًا غالبية العسكر الذين كانوا بالشام، لحماية القاهرة والوقوف في وجه غزوة الفرنج. واستجاب الناس لدعوة الجهاد والنفير العام، فتوافد الفرسان من الصعيد بقيادة الشريف حصن الدين ثعلب، وتطوَّع العلماء بالدعوة على المنابر لشحذ همم الناس ودفعهم إلى الدفاع عن بلدهم وعِرْضهم ودينهم، فاستجاب الأكثرية. حتى القبط، وهم المصريون غير المسلمين، تطوَّعوا لصدِّ الهجوم. لأنهم يعدُّون الفرنج كُفَّارًا بديانة النصرانية، والفرنج بدورهم يرون القبط خارجين عن الملة. مع أن كليهما يقدِّس الصليب ويرفعه شعارًا.

في صباحٍ باكرٍ، دقَّ «أحمد النَّحَّال» باب داري وهو مكشوف الرأس من فرط الفزع وأخبرني وهو يلهث بأن ابنه أبا بكر، يعتزم التطوع للقتال استجابةً للنفير العام. وطلب مني، بل ألحَّ عليَّ في الحديث مع ابنه لصرفه عما

اعتزم، لأنه هو وأمه يشعران بأنه إذا ذهب إلى القتال فلن يعود، فهو لا يعرف شيئا عن الحرب. وهو لا يستمع إلى نصحهما. ذهبتُ معه فوجدتهم في وسط الدار مجتمعين، أبو بكر يجلس مستنفراً محمرَّ الوجه من فرط الانفعال، وأمامه مخلاة من الكتّان الخشن. وإلى جواره تجلس أمه محمرَّة العينين من فرط البكاء، وأمامهما تقف «فاطمة» وتنظر إلى أخيها بجزعٍ وهي صامتة.. وقف أبو بكر احترامًا لدخولنا، فسلَّمتُ عليه وأجلسته على الدكَّة إلى جواري، وجلس أبوه بجوار أمه التي افترشت الأرض وراحتْ تهز رأسها براحتيها، وتئنُّ بنحيبٍ مكتوم.

سألتُ أبا بكر بهدوء عما دسَّ في مخلاته ليأخذه معه، فأجابني بأنه طعامٌ للطريق وملابس وبعض المال.. قلت له: الذي يذهب إلى القتال يأخذ معه عدة الحرب، فالمال تذهب به إلى السوق، ولا شيء يباع ويشترى في ساحة الحرب. وطعامك هذا سوف ينفد بعد أيام، وتبلى ملابسك، فكيف يمكنك أن تقاتل وأنت تعاني الجوع والعري، ولم نتعلم سابقًا فنون القتال. فماذا ستفعل هناك؟.. قال:

ـ أفعل ما يُطلب مني، أبني الجسور أو أنقل المؤن. أي شيء. المهم ألا أبقى في الدار مع النساء، حتى يدخل علينا الفرنج.

ـ اسمع يا ولدي. لقد جاء الفرنج هذه المرة بجيش قوامه ثمانون ألف مقاتل، ويقال بل مائة ألف، فهذه حرب لابد

لها من تدبيرٍ ونظامٍ وفنون قتال..

«يا سيدي الحكيم، يا سيدي..» دخل علينا الدار الخادم «عيد» مهرولًا، وهو يصيح مناديًا عليَّ، وعندما رآني قال لاهثًا إن فارسينِ جاءا يطلباني، وهما قادمان خلفي. ما كاد يتم كلامه حتى دخل علينا الجنديان العابسان، فسألتهما: ما الخبر؟

- أنت الحكيم علاء الدين عليّ؟

- نعم.

- الأمير «بيبرس البندقداري» يريدك الآن عند بوابة القلعة.

- أي قلعة؟

- قلعة الجبل، سنذهب بك إلى هناك.

وقفتُ متأهبًا للخروج فشخصتْ إليَّ عيونُ النَّحَّال وزوجته، وتعلَّقت «فاطمة» بكُم طيلساني وقالت متوسلةً: لو ذهبت الآن، سيذهب أبو بكر عنا ولن يعود.. قلت لها: اهدئي.. وقلت لأخيها: اترك مخلاتك هنا، وتعال معي لمقابلة أمير الحرب.

خرجنا خلف الفارسين، فوق بغلتين، واخترقنا شوارع وأزقة القاهرة مسرعين إلى القلعة من أقرب الطرق إليها. كل ما مررنا به مضطربٌ وهائج، حتى الهواء وغبار الطرقات. فأهلُ القاهرة في هَمٍّ وهَرَجٍ مريع، يعلو زعيق

المتحلِّقين في الأزقة والدروب والميادين، وكل حينٍ وحين يعلو صياحُ أطفال وصراخُ نسوةٍ من داخل البيوت، وفوق السطوح. كأن القيامة آذنتْ واقترب حسابُ الناس فصاروا في فزعٍ مريع، لا يدرون إلى أين يفرُّون من هول اليوم العظيم.

في السفوح المنبسطة بين جبل المقطم وقلعة الجبل، خيامُ معسكرات حولها مئاتٌ من الجند المدجَّجين بعُدة الحرب، يقفون في صفوفٍ يحيط بها الغبار، أو يتحرَّكون فترتجُّ الأرضُ على وقع خطاهم ودقَّات الطبول. وحول المقطم معسكراتٌ أخرى يُجلِّلها الهواء المغبَّر، تستقبل المتطوعين للحرب ونداء الجهاد. المشهد مهيب. صعد أمامنا الفارسان واخترقا الزحام إلى خيمةٍ كبيرة بلا جوانب، تقف على أعمدةٍ قريبة من بوابة القلعة. في الجانب الأيمن للخيمة كان يقف «بيبرس» بملابس أمراء الحرب، ومعه ساعور البيمارستان الناصري «الشيخ عبد اللطيف الجرائحي» مذهولًا، وحوله جماعة من مشايخ الأطباء يرتعدون. حين رآني «بيبرس» أقبل نحوي وتبعه أمير حرب أسنُّ منه، وقال لي بيبرس بسرعة وهو يسلم عليَّ: مرحبا يا حكيم، هذا أخي القائد قلاوون، مَنْ هذا الشاب الذي معك؟

ـ مساعدٌ لي، موثوقٌ فيه.

ـ حسنًا. اسمعني يا حكيم، رئيسُ الأطباء هذا رجلٌ خَرِفٌ، وسوف أوصي بعزله. هو لا يريد إغلاق البيمارستان، وإرسال الأطباء مع الجند للميدان..

تدخل «قلاوون» قائلًا بلكنة أعجمية، وغضب: سوف نحتاج هناك عددًا كبيرًا من الأطباء، ولا يوجد منهم هنا إلا مائة وخمسون، وهذا لا يكفي، لابد من حلٍّ.. قال له بيبرس: سوف أجد حلًّا، أسرع أنت الآن إلى الأمير «أقطاي» وأخبره بأنني سأتحرك من هنا عصرًا بالسبعة آلاف جندي.

انصرف القائد «قلاوون» ورأيتُ حجرًا قريبًا من الخيمة، لا يوجد عنده ازدحام، فدعوتُ «بيبرس» للجلوس هناك لحظةً حتى نجد الحلَّ الذي يبحث عنه. سار معي يتلفَّت بوجهٍ جامدٍ متجهِّم، وعند جلوسنا منفردين خلع عن رأسه الخوذة فبدا شعر رأسه مهوَّشًا، وملامح وجهه مكفهرةً من فرط الإرهاق والحماس. قال متحدثًا بسرعة: ستكون حربًا كبيرةً وخطيرة، ولا أحد يدري كيف ستنتهي، سوف يصطدم بميدان القتال قرابة مائتي ألفٍ من عسكر الجانبين، ولابد لنا من أطباء ومُسعفين لعساكر جيشنا، فنصفه من المتطوعين الذين لا خبرة لمعظمهم بالقتال، وسيكون فيهم مصابون كثيرون.. سألته عن العدد الذي يحتاجه من الأطباء في هذه الحرب، فأجاب وهو يهز رأسه متحسرًا: ثلاثة آلاف، وإذا طال زمن الحرب سنحتاج أكثر، فهل لديك حلّ؟

- نعم. ولكن أولًا، لا تعزل رئيس البيمارستان، فهذا سوف يزيد الأمور سوءًا واضطرابا. وميدانُ القتال لا يصلح له مشايخ الأطباء من أمثال هؤلاء الأطباء، وإنما

يلزمه الجرَّاحون والمُسعفون. وكلما كانوا شبابًا، صاروا أصلح وأفضل.

ـ ما قصدك يا حكيم؟

ـ اترك بيمارستانات ومشافي القاهرة مفتوحة، كما هي الآن، ولا تأخذ منها الأطباء. فالحروب يصحبها إذا استطالت، الطواعينُ وجوائح الوباء، ولابد من مراعاة ما يلزم لذلك من الوقاية ومن العلاج، إذا حدث شيءٌ من ذلك أثناء الحرب، حتى لا يعظم الضرر.

ـ وميدان الحرب.. كيف؟

ـ لو سُمح لي بتنفيذ فكرتي، فسوف أمدُّ الجيش كل أسبوعين بخمسمائة جرائحيّ ومُسعف..

ـ سُمح يا حكيم، سُمح. ولكن كيف ستفعل ذلك؟

ـ سأجمع من الجرائحيين والمسعفين أفضلهم، ومن المتطوعين خمسمائة يتعلمون منهم المهارات وأصول المعالجات، وأرسلهم مع بعض المعلِّمين للإشراف عليهم. ثم أجلب خمسمائة من بعدهم، وهكذا. وأجعل مدارس القاهرة مقرَّاتٍ لهذه الدروس، يبيت فيها الدارسون والمدرِّسون، فيواصلون عملهم في الليل والنهار حتى يتأهلوا للعمل، ويذهبوا للميدان في أقرب وقتٍ ممكن.

ـ هذا جيد. تعال معي الآن يا حكيم.

ـ اصبر لحظة يا أمير. فقد قيل لي عنك، إنك عند القتال

نتقدم الصفوف. فهل هذا صحيح؟

ـ نعم. غليان دمي يمنعني من البقاء بخيمة الأمراء والقادة في الخلف، فالقائد يجب أن يقود من أمامٍ إلى الأمام.

ـ طيب. هل تنام جيدًا؟ وهل تشكو من شيءٍ في عينك أو جسمك؟

ـ من عيني، لا. ولكن لا أنام بشكل جيد، وأخُور في منامي كالثور، وأتفزَّع كثيرًا.

طلبتُ منه أن يرافقني إلى الدار أحدُ عساكره، وسأرسل معه أقراصًا للمساء سوف تُريح النوم، ومسحوقًا يسفُّ منه قليلًا في الصباح ويشرب بعده ماءً كثيرًا، وسوف يجده مفيدًا. وافق «بيبرس» وأخذني إلى حيث يقف الأطباء مع ساعور البيمارستان، وقال له بحزمٍ قبل أن يذهب عنا مسرعًا: نفِّذ كل ما يقوله لك الحكيم علاء الدين.. قال الرجل بلسان الاستسلام، وهو يرتجف: حاضر يا سيدي، سمعًا وطاعة.

* * *

في طريق عودتنا إلى الدار، قلت لأبي بكر الذي كان مبهورًا بما رآه عند القلعة: الآن ستذهب إلى الجهاد، على النحو الصحيح الواجب.. واتخذته من يومها معاونًا لي، فكان يساعدني في إعداد فرق الذاهبين إلى الميدان طيلة الأشهر التالية. وأدرك الشابُّ المتحمِّس بعد وقت قصير من العمل المجهد، أن الجهاد، ليس فقط قتالًا في ميدان الحرب.

الله.. اليوم مرت أربعون سنة على تلك الأيام العصيبة، ولازلت أشعُر بها كأنها كانت بالأمس القريب. وأتذكَّر بنصوعٍ تلك الفرحة التي عمَّت قلوب العباد في أنحاء البلاد، حين استطاع المماليك والعربان وعموم المصريين دَحْر الغزوة، وأَسْر ملك الغال «لويس» وحاشيته واثني عشر ألفًا من عساكر الفرنج.. وكان مجموع قتلى المعتدين الفرنج، بحسب ما ورد في الدفاتر الديوانية، قرابة الخمسة عشر ألفًا.

وكان لانتصار أهل مصر على الفرنج، بعد معارك استمرت لعام كامل، أسبابٌ رئيسة، متعدِّدة. أهمها أن المتطوعة الذين جاءوا من أنحاء مصر، خصوصًا من الصعيد، كانت شجاعتهم في القتال وحماستهم المتهوِّرة، مفاجئة للفرنج، وكانت جرأتهم في الهجوم على معسكرات الفرنج ليلًا، مثيرة للرعب. وكان من أسباب انتصار المصريين، أنهم قطعوا عن الفرنج الإمدادات البحرية وأحرقوا سفنهم ومراكبهم ليلًا، باستعمال السائل

الحارق المسمى «النار الإغريقية» وهو مزيجٌ من النفط والكبريت، يُضخُّ في الخفاء على جوانب مراكب الأعداء، بأنبوب طويل، ثم توقد فيه النيران فيشعلها ويطفو باللهب فوق الماء المحيط بها.. كما انتشر الوباء بين جند الفرنج، وفتك بكثير منهم وهم محاصرون من المصريين، ولا سبيل لهروبهم من الحصار عن طريق البحر، لعطب سفنهم واحتراقها.

لكن حَسْم تلك الحرب المريرة، بحسب أخبارها التي كانت وقتذاك ترد إلينا في القاهرة يومًا بيوم، وعلى مدار ساعات اليوم الواحد أحيانًا، اقترن بثلاثة وقائع اقترنت بأسماء ثلاثة من الرجال. الأول منهم، هو «توران شاه» الذي استغل فرصة اندفاع الفرنج بجيشهم من قاعدة غزوتهم «دمياط» متجهين نحو القاهرة، لتحقيق حلمهم بمحوها، فقام بحيلة حربٍ ذكيةٍ كان جده «الملك الكامل» قد استعملها في حربه مع الفرنج. إذ أمر «توران شاه» بتفكيك المراكب المصرية في عموم مجرى النيل، ونقلها برًّا على ظهور الجمال، ثم إعادة تركيبها عند دمياط خلف مراكب الفرنج. فصارت السفن المصرية سدًّا مانعًا أمام إمدادات جيش الفرنج وعودة المصابين منهم إلى قاعدة الغزوة بدمياط. فلما عطش الفرنج شرب عسكرهم ماء النيل من غير تنقية، فمرضوا وفشا فيهم وباءُ «الهيضة» وفتك بكثيرٍ منهم.. وكان الرجل الثاني، هو «بيبرس» الذي استغل زهو الفرنج بحصولهم على «دمياط» بلا

جهد، بعد هروب الحامية، وناوش جيش الفرنج ثم فَرَّ من أمامه فلاحقوه. وفي طريق مطاردتهم له، رأوا بلدة «المنصورة» خاوية على عروشها، فانخدعوا ودخلوها ظنًّا منهم أنها ستكون غنيمة سهلة مثل دمياط. وعندما تفرَّقوا في طرق البلدة، كرَّ عليهم «بيبرس» بهجمةٍ عارمةٍ عتية، وظهر عسكره الذين كانوا يختبئون بالمنصورة، وهجموا جميعًا على الفرنج بضراوةٍ شديدة فأشبعوهم تقتيلا. فكان جملة خسائر الفرنج من العسكر في ذاك اليوم، أكثر من عشرة آلاف.. والرجل الثالث، هو فارس الدين «أقطاي» الصالحي، الملقب بالجمدار، أي المسئول عن ملابس الملك. لأن تلك كانت مهمته في زمن الملك الصالح. وهو زعيم المماليك البحرية، وتولى قيادة الجيش قبيل موقعة المنصورة بدلًا من «فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ» الذي قتل على يد الفرنج في بداية الحرب وكان وقتها الأتابك، أي القائد الأعلى للجيوش. وقد استغل «أقطاي» فرصة الهرج الذي كان فيه الفرنج وهم يفرون من مقتلة المنصورة، فأمر بملاحقتهم إلى دمياط، وكان من حسن حظه وتوفيق الله له. أن الفرنج في غمرة اضطرابهم، لم يدمروا الجسر الذي عبروا من فوقه وهم يهربون، فعبر عليه «أقطاي» بجيش المصريين لحصروا الفرنج عند بلدة تقع إلى الجنوب من دمياط، اسمها «فارسكور» وهناك استسلم لويس، ملك الفرنسيس ومعظم الذين كانوا معه، وارتضوا بمهانة الاستسلام وذلِّ الأسر.

* * *

لم يفارقني الفتى «أبو بكر» ابن جاري النَّحَّال، طيلة سنة الهول هذه إلا عند ساعات النوم، القليلة. وكنا خلال النهار وأول الليل، نمرُّ على قاعات الدرس في البيمارستان الناصري، والمدارس التي أُخليت وأُعدَّتْ على عجلٍ لإعداد جماعات المعالجين الداعمين للجيش. ومما أثار دهشتي أيامها، أن كثيرًا من طلاب علوم اللغة والدين، الذين كانوا يتعلَّمون في تلك المدارس التي أخليت، تطوعوا للحرب وتركوا ما يدرسون. وانخرطوا في الدرس الطبي والصيدلاني المكثَّف، الذي وضعته للمتطوعين للجهاد، ثم ذهبوا معهم إلى الميدان وصبروا هناك حتى تم النصر. كان المقرر عليهم من دروس الطب والجراحة والصيدلة، يشتمل على مجالس تعليمية مطوَّلة في التشريح والمفردات الدوائية، خصوصًا المطهرات للجروح، والجراحة وعلاج الكسور والخلع والوثي، بالإضافة إلى أصول وقواعد حفظ الصحة.

وخلال ذاك العام المشهود كان أحمد النَّحَّال وزوجته «مروى» سعداء بانهماك ابنهما معي في العمل، إذ صارا في طمأنينةٍ عليه لوجوده بقربهما. وكانت «فاطمة» تأتي إلينا بالطعام، وتنتقل معنا أحيانًا بين المدارس والبيمارستان، وكثيرًا ما تأكل معنا.. بعد إرسالي أول جماعة من المعالجين المتطوعين، صدر مرسومٌ سلطانيٌّ ينص على منحي منصب «رئيس أطباء» ويقرِّر لي جامكية، أي

راتبًا شهريًّا. لكنني لم أستعمل أحدهما، فلا توليتُ عملًا بالبيمارستان، ولا تسلَّمت شيئًا من الراتب. لكن «فاطمة» كانت تلاطفني بذلك، فإذا قدمت لي طعامًا أو شرابًا تقول بظُرف الأطفال: تفضل يا رئيس الأطباء.. وحين تراني عائدًا للدار، تجري إليَّ وتلقاني أمام باب دارهم وتقول لي باسمةً: حمدًا لله على سلامتك يا رئيس الأطباء.. تمنيتُ لو كانتْ أكبر سنًّا بعشر سنوات، أو كنتُ أنا أصغر، أو كانت حياتنا بلا ويلاتٍ كتلك التي تصرفني عن التفكير في الزواج والإنجاب.. لكن التمني لا يكون، إلا للمستحيلات المستبعدة.

عمَّت فرحةُ النصر نواحي مصر والشام، بل عموم بلاد المسلمين، وتزوج «أبو بكر» الفتاة التي كان قد خطبها سابقًا. وكان حفل عُرسه، يوم أُطلق ملك الغال «لويس» والذين معه من أمراء الفرنسيس، من محبسه بالمنصورة. ورحيلهم مع بقية الأسرى الفرنج، بعد سداده نصف الفدية المتفق عليها.. ويوم العُرس، الذي كان في بداية صيف العام الثامن والأربعين وستمائة، أجلسني أحمد النَّحَّال إلى جواره احتفاءً بي، وهمس في أذني وسط صخب الزغاريد من حولنا، بما شعرتُ بأنه مثل قصديرٍ ذائبٍ صُبَّ في صدري، فأحرقه. قال: الفرحة اليوم فرحتان، فصباح اليوم خُطبت «فاطمة» إلى شابٍّ من أقاربنا بالجيزة، وسوف يتزوجان الشهر القادم.

* * *

أحيانًا تقسو على المرء الحياةُ، وتزدحم عليه المؤلمات، فلا يستطيع معها صبرًا أو احتمالًا. لله الأمر. استأذنتُ من «النَّحَّال» في مغادرة العُرس للذهاب إلى داري لأرتاح، لكنني لم أر في ليلتي أيَّ راحة. فقد وجدتُ عند باب داري مرسالًا من «بيبرس» يجلس عند العتبة، ولما سألته عما جاء به قال إنه دقَّ الباب كثيرًا فلم يفتح له أحد، فجلس ينتظرني. كانت داري خاوية، لأن «عيد» وزوجته الضحوك «ياسمينة» كانا ينهلان من البهجة في حفل العرس.

أخبرني مرسال «بيبرس» بأنه يحمل لي رسالةً منه، مفادها أنه وصل إلى القاهرة صباح اليوم، ولكنه سوف يرحل عنها فجرًا، ويريد أن يراني الليلة في داره بالروضة.

تنهَّدت يائسًا من نوال الراحة وصفو البال، وركبتُ بغلتي وسريتُ بها إلى «بيبرس» وأنا في حالٍ حالك.. وجدتُ عند بوابة داره الأمامية، عديدًا من عسكر المماليك. وقد عرفوني حين رأوني، وأفسحوا لي الطريق فدخلت إلى المضيفة لأجد فيها «بيبرس» جالسًا ومعه صاحبه «قلاوون» وأميرٌ آخر من المماليك البحرية، يدل اسمه «سنقر الأشقر» على شكله وملامحه. تهلل بيبرس حين رآني وقام إليَّ مسلِّمًا باليد، واحتضنني بمحبةٍ صادقة وفرحةٍ كبيرة.

هنَّأته بالنصر ثم سألته إن كان قد أُصيب في الحرب بجروح، فقال إنها بعض الخدوش والجروح الطفيفة،

ولكنْ في فَخذه اليسرى جرحٌ غائرٌ أصابه من طعنة رُمح. طلبتُ أن أرى الجرح فكشف عن فخذه، وحين فككتُ عن الجرح الضمادة اقترب صاحباه ونظرا في جُرحه، وضحكا، كأنهما شاهدا منظرًا لطيفًا. وحتى هو ابتسم. وجدت الجرح غائرًا بمقدار عقلة إصبع، لكنه نظيف ومضمَّد بشكل جيد، فطمأنت «بيبرس» وأعدتُ التضميد وأنا أوصيه بالراحة أيامًا، حتى تلتئم على خيرٍ جراحه، فقال: لا فرصة للراحة، فلا بد من ذهابي الليلة لإتمام أمر مهم.

زجر واحدٌ من صاحبيه محذرًا له من الإفصاح، فضحك «بيبرس» غير مكترث.. قال له صاحباه وهما يخرجان من المضيفة، إنهما سينتظرانه أمام بوابة الدار، فردَّ عليهما بأنه لن يتأخر. وعندما خلا المكان قال لي: ما بك يا حكيم؟ تبدو حزينًا ومنهكًا، هل جرى لك شيء؟

ـ لا يا أمير. ولكن يومي كان طويلًا، وشاقًّا.

ـ ولماذا لم تتسلم العمل بالبيمارستان، ولم تأخذ رواتبك المقررة؟

ـ لا حاجة عندي إلى هذا أو ذاك، وقد تطوَّعتُ بما فعلتُ، ولا يصح الأجر بعد التطوع.

ـ لكن كل المتطوعين للحرب نالوا من الغنيمة.

ـ لم أكن أنتظر الغُنم ولا أريده، وقد أغناني الله بفضله عن كل شيء.

ـ لا يا حكيم. قولك هذا لا يعجبني، وسوف نتحدث فيه ثانيةً بعد رجوعي إلى القاهرة.

دعوتُ له بالتوفيق، لأنني لم أعلم بما كان ينوي فعله. وهل يعلم الغيب إلا الله؟ كان «بيبرس» يريد مني المسحوق المقوِّي للعصب، المفرِّح للقلب، الذي أعطيته له يوم ذهابه إلى الحرب. فقد وجده موافقًا له ومفيدًا، فعاد معي المرسال إلى داري وأعطيته بعضًا منه.

وصلتُ مع المرسال إلى داري بعدما انتصف الليلُ وانفضَّ الاحتفالُ بالعُرس، فسكنت الأنحاءُ وخيَّم على الدُّور ظلامٌ ثقيل الوطأة، حالك الاسوداد، لاحتجاب النجوم خلف الغيوم مع غياب القمر بالمحاق. متثاقل الخطو ومنهكًا، صعدتُ إلى غرفتي متحسسًا في الظلام طريقي. الوحدةُ رَحَايةٌ تطحن الأرواح. فقدت فاطمة، وفاطمة. ما كُلُّ هذا الفراغ المُعتم؟

نمتُ على سريري مثلما كنتُ أفعل في صباي عقب رحيل أحبتي، متقوِّسًا، مضموم المرفقين إلى الركبتين، شاعرًا بانفصام نفسي وبدني وبأنني أنا لستُ هنا، ولا في أيِّ مكان.

بقيتُ مسهَّدًا حتى سمعتُ أذان الفجر، ولم أقدر على القيام لأداء الفريضة، ولما وصلني صوتُ العصافير الصاخبة خارج غرفتي، نمتُ. كأنني كنتُ أنتظر أصواتًا أطمئن بها، وإليها. طَرَقَ «عيد» باب غرفتي ظهرًا،

فأيقظني من نوم غير معهود، على تعب غير معتاد. قلتُ له إنني متوعِّكٌ وفي ساقيَّ خدرٌ، ولن أخرج من غرفتي اليوم، فأحضر لي الطعام لكنني كنتُ فاقدًا للشهية. ألحَّ عليَّ كي آكل، فشعرتُ بمرارةٍ في اللقيمة التي مضغتها، وابتسمتُ بأسى متعجبًا من فصل الشيخ الرئيس «ابن سينا» بين النفس والبدن. كيف يصح ذلك، وهل تلك المرارة التي أشعر بها في حلقي، والمرار الذي في قلبي، من البدن أم النفس! رحم الله الشيخ الرئيس. تركت الطعام المرّ وعدتُ إلى النوم، هربًا من دوران الخواطر في رأسي التي صارت كحجر الرَّحَاية الطاحن. أنا الحبوب المجروشة.

أفقتُ من نومي القَلِق قُرب الغروب، وبرأسي تسكن فكرةٌ غريبةٌ عني، لا أدري من أين أتتْ. إذ كنتُ أقول للطلاب أثناء شرح كتاب أبقراط «الفصول» إن المشايخ يكثر عندهم السهرُ وغلبةُ الهموم والأفكار، لكن النعاس يغشاهم كثيرًا لما تقدَّم من سهرهم. وإذا طرحوا أبدانهم لم يناموا، لثوران أبخرة المواد بأبدانهم. كنتُ أقول ذلك دون أن أشهده، فصرتُ اليوم أعيشه. صرتُ شيخًا، وأنا بعدُ في الأربعين من عمري. لله الأمر.

لم أستسلم وأنهزم لهذه الخواطر الكئيبة، ونازعتُ نفسي بأنني الآن في سن الكهولة لا الشيخوخة، وبالكاد تخطيتُ بعمري الأربعين عامًا. وفاطمة ابنة النَّحَّال لم تبلغ بعد العشرين من عمرها، والشهر القادم سوف تتزوج ولدًا في مثل عمرها. لا بأس. لا شأن لي بذلك، ولا دخل.

الله أكرمني بعميم أفضاله وأقامني حيث رجوت، وأعانني برحمته على العبور من المحن القاصمة القاصفة، فصرت مُصنِّفًا معروفًا وطبيبًا مرموقًا، ونفعتُ الناس. الناسُ مساكين ويستحقون العون وتخفيف عذاب المرض، ومعظمهم بسطاء وأبرياء. وكذلك «فاطمة» فهي بسيطة، وبريئة، وكذلك أخوها «أبو بكر» الهانئ الآن في حضن عروسه، ولم يُضحَّى به على مذبح الحرب. المئات الذين أرسلتهم للميدان، مسعفين ومعالجين للجرحى، لابد أنهم اليوم قد عادوا إلى ذويهم متفاخرين بأنفسهم ومتباهين بالنصر، وسوف يفيدهم في مقبل الأيام ما تعلَّموه من فنون المعالجات والإسعافات، والعناية بعموم المرضى والمجروحين. مبادئ الطب وقواعده مفيدة لجميع الناس، في السلم وفي الحرب. وربما كان من النافع للجميع أن يتعلموا شيئًا في الطب، لحفظ الصحة ومداواة المرض عند اللزوم، أو على الأقل يقرءون عن ذلك. كُتب أبقراط وجالينوس مفيدة، لكنها كثيرة ويصعب الجمع بينها، وكتاب الشيخ الرئيس ابن سينا «القانون» عظيم النفع، جليل القدر، لكنه ضخم ومهجور ويحتاج شروحًا كثيرة. لابد للناس من مختصر في الطب، بإمكان كل إنسان قراءته والانتفاع بما فيه.

لن أتفرَّغ لاجترار الألم تحسُّرًا على فوات أملٍ تمنيته في فتاةٍ فاتنة اسمها «فاطمة» فقد كان لي يومًا زوجة مثلها ولها مثل اسمها، فأماتها الله وأبقاني حيًّا لنفع الناس.

سأكتبُ مختصرًا نافعًا للجميع، وأجعله جامعًا للمعارف الطبية العامة، وصغير الحجم سهلَ العبارة. لن أسميه «المختصر» كي لا يلتبس عنوانه مع شروحي الكثيرة لكتاب «القانون» ويُظن أنه مختصرٌ له، سأجعل عنوانه: الموجز في الطب.. نعم، سأكتبُ.. فالكتابُ يبقى نافعًا من بعد ذهاب صاحبه، لمئات السنين، وبذلك أطرحُ عني الأحزان والحسرات التي لا طائل من ورائها، إلا ضياع أيامي سُدى.. لا فائدة من الأسى على فوات حظٍّ من مبهجات الحياة، فلا حَظَّ لي أو ابتهاج، إلا في الدواة والقلم. نعم. أنا قلمٌ، وأوراقٌ مكتوبةٌ لتبقى من بعدي.

بهمةٍ عالية قمتُ من فوق سريري إلى الطاولة، وغمستُ القلم في الدواة وكتبتُ عنوان الكتاب «الموجز» ولم أسهب في ديباجته، أو أسرف في زخرفة مفردات البسملة والحمدلة. وجعلتُ مقدمته استعراضًا لما يحتويه، ليعرف قارئه ما فيه، ويسهل على الناظر فيه الوصول إلى ما يريده بيسر. ومن بُعيد الظهر إلى قُبيل المغرب، كتبتُ الصفحات العشر الأولى من «الموجز» وكنتُ سأستكمل الكتابة ليلًا، لولا نزول الخبر الصاعق. إذ دَقَّ «عيد» بابي ودخل عليَّ لاهثًا وهو يقول: يا سيدي، يا سيدي، وقع أمرٌ مريع.

- خير يا عيد؟ خير؟

- ليس خيرًا. المماليك البحرية، قتلوا صباح اليوم الملك المعظم توران شاه.

* * *

في ذاك اليوم البعيد، أعني يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر المحرم عام ثمانية وأربعين وستمائة، كان «توران شاه» يتناول فطوره في خيمته المشرفة على فرع النيل ببلدة «فارسكور» وكان مطمئنًا، لظنه أن أمراء المماليك البحرية عادوا إلى القاهرة، وسعيدًا لأنه انتصر على الفرنج ونال منهم الأموال الطائلة فديةً.. وفجأةً تبدَّد شعوره بالطمأنينة والسعادة، عندما دخل عليه أمراء المماليك البحرية الكبار الأربعة: أقطاي، وبيبرس، وقلاوون، وسُنقر الأشقر. وسيوفهم مسلة من غمدها ومشهرة، وعيونهم تقدح بالحقد وتُفصح عن نية الغدر والفتك. ضربه «بيبرس» ضربةً قويةً بسيفه، فتلقى «توران شاه» الضربة بيده. بتر السيفُ أصابعه. وعندما رأى أن حراسه المحيطين به وبخيمته، قد اختفى معظمهم ولم يتدخل الباقون لنجدته، أدرك أنهم ارتشوا وتركوه لقاتليه، فقام يجري من أمام مغتاليه الأربعة.

دخل «توران شاه» إلى برج خشبيّ يشرف على النهر، فرشقه قاتلوه الأربعة بكرات النفط المُشتعلة، حتى شبَّت النار فيه وفيما يحتمي به. فخرج يجري نحو الماء وبثيابه الحريق، فلاحقوه بالرماح وبالسهام. خاض في النهر حتى وصل الماء إلى رقبته، فوقف، فنزل خلفه «بيبرس» وطعنه بالسيف طعنةً نافذة، فمات الملك «توران شاه» آخر ملوك الأيوبيين، حفيد الملك الناصر صلاح الدين، بيد عسكر المماليك الذين كان جده يستكثر منهم. مات مطعونًا،

محروقًا، مجروحًا، مرشوقًا بالنار وأسِنَّة السهام والرماح.

* * *

لم أستسلم أيامها لمآسي الصخب الدنيوي، والصراع العنيف بين الحاكمين والطامحين والطامعين في السُّلطة. ولفترةٍ امتدت عدة أشهر، شغلتُ نفسي خلالها عن الهرج الجاري في عموم البلاد، بالتصنيف والتأليف. انتهيتُ من كتابة «الموجز في الطب» ومن شرح كتاب أبقراط «المرض الوافد» أي الوباء، وهو الكتاب المعروف عند الأطباء بعنوانه اليوناني: إبيديميا. ولم ألتق قط خلال تلك الفترة بالأمير «بيبرس» ولا بحُلمي الذي انطمر، أعني فاطمة. ثم شاءت المقادير أن التقي بكليهما في يومٍ واحدٍ، فجأةً، وبلا تمهيد سابق. في الصباح مررت في طريقي إلى البيمارستان، أمام باب جاري النَّحَّال، فوجدت هناك «فاطمة» واقفةً وقد انتفختْ مثلما يحدث للحبالى في الشهر الثامن. مع أن حملها كان في شهره الخامس. ولمحت في وجهها المصفرِّ عروقًا زرقاء، تظهر بوضوح تحت عينيها، وتلك علامة رديئة. سألتها عن حالها، فقالت بوهنٍ إنها لم تسترح في القرية التي يعيش فيها زوجها، فجاءت لتكمل أيام حملها وتلد عند أمها. دعوتُ لها بالتوفيق، ومضيتُ في سبيلي وأنا أُسائل نفسي: أهذه هي الفتاة التي فُتنتُ بها قبل شهور؟ شيء عجيب، يبدو أن معظم الأماني أوهام.. دعوتُ لها مجددًا في سرِّي، ومضيتُ في طريقي خالي البال مما كان ومما سيكون. وفي المساء، انتهيتُ من مجلس

الطلاب بمضيفة داري، وكنتُ في تلك الفترة أعقد جلسات الدرس لطلاب الطب في مضيفة داري، يومًا من بعد يوم. وبعدما خرج الطلابُ اقتربتُ من «عيد» لأسأله عن سبب وقوفه عند باب المضيفة وهو ينظر لي باضطرابٍ، أثناء ختامي الدرس. همس لي قبل أن أسأله، قائلًا إن رجلًا يرتدي ملابس القرويين طَرَقَ الباب الخلفي للدار، وعندما فتح له «عيد» وجد معه رجلين كأنهما حارسان له، يلبسان مثله. سأله عما يريد، فقال: أخبر الحكيم بأن الرجل الذي كان مطعونًا بالرمح في فخده اليسرى، يريده، ولا تخبره بذلك وهو يلقي الدرس.. سألته: وأين هم الآن يا «عيد»؟

ـ الرجلان بقيا عند خارج الباب، ودخل هو إلى الفناء الخلفي ينتظرك هناك. أنا قلقان يا سيدي، ومتأكد من أنهم يخفون تحت ملابسهم سيوفًا. فماذا أفعل؟

ـ لا تفعل شيئًا، وابق هنا. سأذهب إليه.

وجدتُ «بيبرس» بالفناء الخلفي جالسًا على كرسيٍّ قديم، مهمومًا، فألقيتُ عليه السلام ودعوته للدخول إلى حجرةٍ قريبةٍ من الفناء. وبعدما أغلقتُ علينا الباب، قلتُ له: أراك يا أمير قد عدت إلى التخَفِّي. فأجابني بأنه يتخَفَّى عندما يشعر بالخطر ولا يريد أن يرصد أحدٌ خطاه. ثم قال لي: أريد مشورتك في أمرٍ، لكني أراك متحفظًا معي، وأظنك غاضبًا عليَّ. مع أنك لم تعد محزونًا، مثلما رأيتك آخر مرة، فأخبرني يا حكيم بما في نفسك.

ـ لا شيء في نفسي، إلا..

ـ إلا ماذا يا حكيم؟ تقصد، مقتل الكلب «توران شاه»؟

ـ أستغفر الله العظيم، من كل ذنبٍ عظيمٍ. يا أمير، لن أجاملك في حدٍّ من حدود الله. أنت قتلتَ نفسًا مسلمةً بغير نفسٍ، وأزهقت روحًا في شهرٍ حرام.

لم يكن من عادة «بيبرس» الإفاضة لكنه فعل، فقال ما مفاده إن «توران شاه» كان يستحق القتل. فقد استجلب إليه بفساده ونزقه غضب الجميع، حتى أبوه «الملك الصالح نجم الدين» كان ناقمًا عليه، وأبعده إلى آخر بلاد المسلمين. ولما مات أبوه وتولَّت زوجته الخاتون «شجرة الدر» الأمور، لم تنفرد بالحكم وأرسلت إليه مَنْ جلبه من «حصن كيفا» البعيد. فوصل إلى مصر، بعدما كسرنا شوكة الفرنج وخاطرنا بأرواحنا حتى هزمناهم شرَّ الهزائم، وألجأناهم إلى الهرب. وكل ما فعله أنه كبس عليهم وهم يهربون، فأوقع في الأسر ملكهم وأمراءهم واستسلم على الفور عساكرهم، وافتدوا أنفسهم بقناطير الذهب. وكان معه في ذلك القائد «أقطاي» وأمراء المماليك. وبدلًا من ردِّ «توران شاه» الجميل لمن قدَّموه وجعلوه ملكًا، وأجروا بين يديه نهر الغنائم، ورفعوا من قبل وصوله رايات النصر. انغمس في النكران لهم، وفي السّكر كل ليلة، والعُهر علنًا بالغلمان والمردان. ولم يحمد طيشه حين تركت «شجرة الدر» مصر بسببه ورحلت إلى «القدس» فلاحقها بالمطالبات وبردِّ

كل الهدايا والأموال التي حصلت عليها من أبيه، كأنها جارية كان أبوه يلاعبها. وليست أم «خليل» أخيه، التي تنازلت له عن المُلك ونفت نفسها بعيدًا، ليصفو له الحال. وهو لم يرتدع عن الطعن في المماليك البحرية الذين جلبوا النصر، وملَّكوه عليهم إكرامًا لأبيه المتوفى. فكان إذا شرب وسكر، أمر الخدم بوضع الشموع أمامه فيقصفها بسيفه وهو يقول: هكذا أفعل بالبحرية.. ونحن يا حكيم، لسنا شموعًا يقصفها هذا الأخرق الأرعن، نحن نحمي حرمة البلاد وعِرْض العباد، ونبذل في سبيل ذلك أرواحنا.

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

- طبعًا، لله الأمر. والأمر الذي أريد مشورتك فيه، مُربك، لكنك من القلائل الذين أثق فيهم.

- خير يا أمير، ما الأمر؟

- حصن الدين ثعلب.

تفوَّه «بيبرس» باسم الأمير العربي الشريف «ثعلب» ثم رفع نظره إلى سقف الحجرة، كأنه يبحث عن مفرداتٍ تعبر عما يعتمل برأسه.. اختلج جفناه وتحيَّرت عيناه قبل أن يفيض بما بداخله، فيقول مسترسلًا إن المعارك الطاحنة التي جرت مع الفرنج، كان رجال «ثعلب» خلالها يقاتلون تحت قيادته بجسارة الذين لا يهابون الموت، وقد أرهقوا عسكر الفرنج وقتلوا منهم كثيرين، مع أنهم غير مدرَّبين جيدًا على فنون القتال. لكنهم شجعان، وعندهم عزيمة لا

تلين، وصدق في الاستجابة لداعي الجهاد. وبعد هزيمة الفرنج بدأت المشكلات، لأن «ثعلب» عقب مصرع توران شاه، لم يعجبه أن تحكم البلاد شجرة الدر، ولم يعجبه أنها تزوَّجت الملك المعز «أيبك» وتنازلت له عن الحكم. هو يزعم أن أمثاله هم الذين يستحقون حكم مصر، وليس المماليك الذين يسميهم العبيد، وقد جمع حوله من الأتباع ألوفًا ليفوز بعرش مصر. أو على الأقل بحكم الصعيد. لكن الذين حوله اليوم، معظمهم لا دراية لهم بفنون الحرب وحيل القتال وتحريك العساكر، وقد كلَّف الملك المعز «أيبك» وزوجته شجرة الدر، فارس الدين أقطاي «الجمدار» وفارس الدين أقطاي «المستعرب» بأن يقوما على رأس العسكر بقمع ثورة «ثعلب» وقتل الذين معه. وهم يا حكيم مسلمون، وسوف يُذبحون بسيوف المماليك كما تذبح المعزات. وليس بمقدوري اعتزال هذا القتال المرتقب وشق صفِّ الجيش، وأنا من كبار أمراء البحرية، وتربطني بهم الخشداشية ومصلحة البلاد.

ـ وما هي مصلحة البلاد هنا؟ وأنت تعلم يا أمير أن دم المسلم على المسلم حرام.

ـ وأعلم أيضًا يا حكيم أن «مَنْ شقَّ عصا الطاعة فاقتلوه» وإذا لم نُسرع بإخماد هذه الثورة، فسوف تعم البلاد الفوضى.

ـ الأعمالُ بالنِّيات يا أمير، فانظرْ في نيَّتك. هل هي لحماية البلاد من الفوضى، أم هي سعيٌ إلى الإمارة والسلطنة.

هذا اختيارك، والثواب لك والعقاب عليك. وما دمت قد طلبت مشورتي، فالرأيُ عندي أن تعتزل هذا القتال بين المسلمين والمسلمين.

ـ حسنًا، سأبحث عن وسيلة مناسبة لاعتزال هذه الحرب.

لم يجد «بيبرس» تلك الوسيلة المناسبة، وساعد بحكم منصبه العسكري في قمع ثورة «ثعلب» والعربان الذين ثاروا معه، وأيامها سالت دماءٌ كثيرة لغير وجه الله. وليت اندفاق الويلات توقف آنذاك عند قتل الآلاف من الثائرين، فقد جرى من الويل والهول خلال الأعوام العشرة التالية، ما لم ير الناس مثيلًا له من قبل. وأرجو ألا يروا مثله من بعد. لأن أقطاي الجمدار بعد الانتصار على غزاة الفرنج، وإخماد ثورة ثعلب، افتتن بنفسه وأخذه الزهوُ إلى العتوِّ فصار يتصرف كالملوك الجبابرة. وفعل رجاله بأهل القاهرة ما لم يفعله أعتى الأعداء، حتى إنهم راحوا ينهبون بيوت الآمنين جهارًا، نهارًا، ويكبسون على حمامات النساء.. كان بالبيمارستان الناصري رجل اسمه «حميد» يداويه الأطباء من قطعهم أصابع قدمه بسبب الغانغرينا، فرفض تناول العلاج وطلب من معالجيه سُمًّا. الأطباء أخبروني بحال الرجل فذهبت إليه وسألته عما دهاه، فقال إنه يريد أن يموت.

ـ لماذا؟ استغفر الله يا رجل، وعُد إلى رشدك.

- لن أستغفره، ولن أعبده بعد ما جرى.

- ما الذي جرى؟

انفجر بكاء الرجل وعلا نشيجُ نحيبه، وأخذ يرتعد، وبعدما هدأ قليلًا أخبرني بأنه أثناء احتجازه بالبيمارستان لعلاج أصابع قدمه بسبب ديابيطس، ذهبتْ زوجته مع جارةٍ لها إلى حمّامٍ مجاور لمنزلهم، فكبس عليه خاصكية أقطاي. يقصد حاشيته ورجاله المقربين. وأخذوا المرأتين إلى منزلٍ بالجيزة، وتناوبوا عليهما فعل الفاحشة ليلًا ونهارًا طيلة يومين، ثم أطلقوا سراحهما. فامتنعت زوجته عن تناول الطعام، حتى ذوت وقضت نحبها، وهو يريد أن يلحق بها. وقد مات الرجل فعلًا بعد أيام. مضى على ذلك اليوم عشرات السنين، ولازلتُ أحزنُ بشدة كلما تذكرتُ هذا الرجل، وتوجع قلبي قصته المؤلمة.

ثم تعدَّى عتوُّ «أقطاي» وزاد حتى وصل إلى حدِّ الخبَل، فخطب امرأة وأراد أن يدخل بها في قلعة الجبل، لإظهار سطوته وقدرته. وأرسل إلى شجرة الدر وزوجها «أيبك» يطلب منهما إخلاء القلعة له، هو وعروسه، فلم يصبرا عليه واستدرجاه بالحيلة إلى القلعة وقتلاه هناك، وألقيا رأسه المقطوع من فوق السور فتدحرج حتى وصل إلى مماليكه والخاصكية المتجمهرين عند سفح القلعة.

وعندئذٍ شعر بيبرس بأن المعز «أيبك» ومماليكه «المعزية» قد أزمعوا الغدر بالمماليك البحرية، فهرب ليلًا من مصر

ومعه جماعةٌ كبيرة. وبقي من «البحرية» بالقاهرة جماعةٌ أخرى، فقتلوا غدرًا أو أُلقي بهم في غياهب السجون. وبعد أن استقام حالُ السُّلطة والملك للأمير «أيبك» وتمكَّن، اغتاظ من سطوة زوجته شجرة الدر «أم خليل» وتدخُّلها في شئون الحكم، ثم إنه أراد الزواج من ابنة أمير الموصل «بدر الدين لؤلؤ» التي قيل إنها ساحرة الحُسن، فلما شرع في إتمام الزيجة ليكون بين يديه ثلاث زوجات. حاشا الجواري. ثار غيظ «شجر الدر» فقتلته غيلةً ومكرًا، مثلما قتل هو «أقطاي» غيلةً ومكرًا، مثلما قتل أقطاي «حصن الدين ثعلب» غيلةً ومكرًا.. فلما قُتل «أيبك» على يد شجرة الدر «أم خليل» اغتاظت منها زوجته الأولى «أم علي» ونقم عليها فرسانه، فتعاهدوا فيما بينهم على النيل من شجرة الدر. وقد انتقم المماليكُ المعزيةُ، بقيادة أميرهم «قطز» من شجرة الدر شرًّ انتقام وفعلوا بجثمانها بعد قتلها غيلة، ما فعلته هي سابقًا بجثة كبيرهم المغدور به. وبعد ذلك جلس كبيرهم «قطز» على عرش مصر استنادًا إلى قاعدة «الحكم لمن غلب».

وفي ذاك العام العصيب، السادس والخمسين بعد الستمائة، اقتحم التتر بقيادة «هولاكو» بغداد، وقتلوا من أهلها والساكنين حولها، قرابة ثمانمائة ألف إنسان. ولمدة أربعين يومًا مريعة، استباح عسكرهم بغداد نهبًا للبيوت، وقتلًا لمن يرونه من الرجال والصبيان، وافتضاضًا للعذراوات واغتصابًا لمن كُن متزوجات، وبقرًا لبطون

الحبالى. ثم زحف التتر إلى الشام، واستولوا عليها، وفعلوا بمُدنها وقُراها مثل الشنائع التي فعلوها ببغداد.

وخلال جريان هذه الأهوال، كان «بيبرس» وفرسان المماليك البحرية ومئات من عساكرهم، ببلدة «غزة» الواقعة في منتصف الطريق بين مصر والشام. ومن هناك أرسل بيبرس مكتوبًا إلى «قطز» يقترح فيه توحيد الصفوف لمواجهة غزو التتر، وصدّهم عن مصر. فوافق قطز على ذلك، وأعاد «البحرية» إلى مصر وأكرم بيبرس، وأقطعه بلدة «قليوب» القريبة من القاهرة.

وكان لقائد جيش التتر «هولاكو» ابن عمٍّ اسمه «بركة خان» يميل إلى المسلمين وأسلم لاحقًا، وكان زعيمًا للقبيلة الذهبية من التتر، وبينه وبين الخليفة العباسي عهود ومواثيق. فلما خرق «هولاكو» ما كان قد أبرمه «بركة خان» مع خليفة المسلمين من مواثيق، واقتحم بغداد وفعل فيها الويلات وقتل الخليفة العباسي قتلةً شنيعة، نقم «بركة خان» على هولاكو وقطع عنه الإمدادات، فاضطر هولاكو للعودة بجيشه إلى بلاده لمواجهة ابن عمه الناقم عليه، وترك مؤخرة الجيش بالشام تحت إمرة واحدٍ من دُهاة قادة العسكر اسمه «كَتْبغا نوين» وفي لغة التتر، يُقصد بكلمة «نوين» أمير الحرب الذي يعمل تحت قيادته أكثر من عشرة آلاف شخص من الفرسان والراجلين. وكان ثمانية عشر ألفًا من عساكر التتر، يعملون بأوامر هذا الداهية «كتبغا نوين» الذي يعد من قدماء قادة العسكر

التتريّ. فقد شارك في حروبهم الأولى ضد المسلمين، تحت قيادة «جِنكزخان» ثم صار من أمراء الجيش في زمن حفيده «هولاكو». وهو معروفٌ، على الرغم من كِبر سنه، بقسوته المفرطة وميله الهمجي إلى السفك والفتك بلا رحمة. ولم يكن يقاتل بشرفٍ، وإنما يلجأ في حروبه إلى أخسِّ الوسائل وأحقر الحيل، حتى إنه لا يتورع عن خداع المعتصمين منه في الحصون، ويحتال عليهم حتى يتمكَّن من تسميم الآبار التي يشربون منها، فتموت الحامية ويأخذ الحصن بغير قتال. ثم يقود الأسرى إلى الحصن التالي ويدفعهم إلى دخوله طلباً للأمان، فإذا قبل قائد الحصن بهؤلاء اللاجئين إليه، بدافع الرحمة وشفقة المسلمين على المسلمين، حاصر «كَتْبغا نوين» الحصن الذي اكتظ بالناس، ثم أرسل إلى الحامية يدعوهم للاستسلام، لأن عدد المحاصرين كبير وليس لديهم من المؤن والماء، ما يكفي لبقائهم تحت الحصار مدة طويلة. فإذا ردَّ عليه قائد حماة الحصن بأن لديه من المؤن وآبار الماء، ما يكفيهم لفترة طويلة. كتب له «كتبغا نوين» بأنه إذا تأكَّد من وفرة المؤن والماء في الحصن، فسوف يفك عنه الحصار ويرحل بعساكره إلى حال سبيله، حفظًا للوقت والمجهود من الضياع بغير طائل. ويُرسل المكتوب مع نفر من التتر، في حدود الخمسة أفراد، للتأكد من وفرة المؤن بالمخازن وكفاية الماء في آبار الحصن المُحاصر، بحراب طوال لسبر عمق الماء في الآبار. فينخدع الحامية ويُدخلون الوفد التتري، وهم لا يعلمون أن الحراب التي معهم مجوَّفة، وفيها

بالتجويف سمٌّ زعاف.. وهكذا يسبر التتر الماء ويرحلون وقد سمَّموه، فيموت الحامية والناس المحاصرون حين يشربون، ويسرعون من فرط الفزع إلى ترك حِصنهم بالاستسلام للتتر. حيلة حقيرة. لكن تلك هي طبيعة الحروب. رخيصة. وتلك هي طبائع معظم المتحاربين، الساعين إلى النصر وربح الغنائم، ولو بالخديعة وخسيس الوسائل. والحربُ في عمومها، إما دفاعٌ مشروع أو ربحٌ حقير.

* * *

الله.. في تلك الأيام المريرة كنتُ قد تخطيتُ الخمسين من عمري واشتدَّ بداخلي الوهم القديم بقُرب المفارقة، خصوصًا عندما يتوفى أحد معارفي فأذهب للعزاء فيه، ويملؤني آنذاك الظن بأنني سألحق به عما قريب. كما كثر آنذاك التشاؤم في نفوس معظم الناس، نظرًا لشُحّ المعايش واضطراب أحوال القاهرة، مع انعدام الأمن فيها بسبب تراخي الشرطة وازدياد عدد الشُّطار والعيَّارين والمشرَّدين والحرافيش. وبسبب قتامة الأخبار الواردة من بلاد العراق والشام، التي صارت مرتعًا للرعب وملعبًا لعنف وهمجية التتر. فلما جاءت الأنباءُ باقتراب «كتبغا نوين» من مصر، عمَّ الفزعُ أنحاء البلاد وارتعب أهل القرى والمدن، واستعد كثيرٌ منهم للنزوح من ديارهم واللجوء إلى نواحي الصعيد، لأنها الأبعد عن الخطر القادم. ولو إلى حينٍ قد لا يطول.

أيامها كان معي واحدٌ من طلاب الطب، اسمه أحمد بن نوح، أصله من بلدة عامرة بقلب الصعيد اسمها قِفْط. وكان يميل إلى بلدته هذه مثل معظم الأسوياء من الناس، وكثيرًا ما يمتدحها ويصف لي عُمرانها وعِمارتها وأسواقها، وكرم أهلها. ولما ادلهمَّت الأمور داخل القاهرة واسودَّتْ الدنيا بخارجها، عزم تلميذي النابه «أحمد بن نوح» على العودة إلى الصعيد، ودعاني بإلحاح مهذَّبٍ إلى الذهاب معه للعيش هناك، ولو إلى حين استقرار الأمور بالقاهرة إن كان مقدَّرًا لها الاستقرار يومًا.

لوهلةٍ لم تمتد طويلًا، راودتني نفسي للاستجابة إلى فكرة اللجوء إلى الصعيد، ولو مؤقتًا. كان يمكنني الإقامة في «قِفط» أو في غيرها من البلدات الكبيرة، ، فعندي معارف وتلامذة في «البهنسا» و«قوص» وغيرهما من عواصم الصعيد. وقيل لي إن «سيوط» أيضًا، بلدة مناسبة للعيش فيها. الأحوالُ هناك أهدأ، وقد أهنأ بالإقامة بإحدى بلدات الصعيد خلال البقية القليلة من سنوات عمري.. ما كان ليخطر على بالي وقتذاك، أو أتوقَّع، أنني سوف أعيش ثلاثين سنة تالية.

أبعدتُ عن ذهني سريعًا، فكرة مغادرة القاهرة إلى غيرها، ولو إلى حين. فقد استرحتُ هنا، وليس مضمونًا أن أستريح هناك. والخطرُ المحدق بالقاهرة، لا يبعد كثيرًا عن الصعيد. وقد تجاوزت الخمسين، ولم يعد بمقدوري أو طاقتي، قضاء ما بقي لي من العمر في التنقل بين البلاد.

ولهذا، قررتُ البقاء في القاهرة مستسلمًا لقضاء الله، وراجيًا رحمته.

* * *

وعندما اقترب «كتبغا نوين» من مصر وحام حول الحمى بعساكره، أُعلن النفير العام في النواحي المصرية، وخرج لصدِّ جحافل التتر المماليكُ ورجالُ الدين وفرسانُ العربان وجموعُ الناس، بل برزوا لقتالهم خارج حدود مصر. وقاد «بيبرس» الهجوم بنفسه متقدمًا كعادته الصفوف، ومنفِّذًا الحيلة الحربية التي قهر بها «الفرنج» من قبل في موقعة المنصورة. فقد اندفع نحو التتر موهمًا إياهم بأنه أخرقُ وغيرُ منظم الصفوف، ثم فرَّ من الميدان بعساكره مستدرجًا التتر إلى مصيدةٍ كانت كامنة في الخفاء بقيادة «قطز» فلما وقع التتر في الفخ، أطبق عليهم جيشُ «قطز» الذي كان مختبئًا، وجيش «بيبرس» الذي كان يوهمهم بهروبه، فانطحن عسكر التتر بين شقّي الرحى. وهكذا انتصر المصريون على التتر سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة، بعد حربٍ ضروسٍ جرت عند بلدة بأرض اليهود، اسمها «عين جالوت».. وجالوتُ هذا، المذكورُ في القرآن، هو زعيمٌ قديم حارب «النبي داود» في غابر الزمان، فقتل داودُ جالوت.

عقب موقعة «عين جالوت» وكما هو معهود من المماليك، قتل بيبرس «قطز» غيلةً ومكرًا لأنه توجَّس منه، فقال أمراءُ المماليك وكبارُ فرسانهم لبيبرس: اجلس على العرش مكان السلطان المقتول، فإنه كان يقول «الحكم لمن غلب».. أما هولاكو، الذي كان قد عاد بجيشه الجرّار إلى بلاده، لمنازعة ابن عمه «بركة خان» الناقم عليه، فقد

صدمه خبر انتصار المصريين على عساكره، ومقتل قائده المحنك «كتبغا نوين» على يد أمير الحرب «جمال الدين آقوش» أحد مماليك سنقر الأشقر، بطريقة مفزعة، إذ اندفع «آقوش» بشجاعةٍ فائقة فاخترق صفوف التتر حتى وصل إلى «كتبغا نوين» وصرعه بطعناتٍ سريعة متتالية، أسقطت الهيبة التي كانت سابقًا لعسكر التتر وقادتهم.

فلما علم «هولاكو» بما جرى في عين جالوت، لم يستطع العودة بجيشه الجرَّار إلى الشام، قبل حسم أموره مع «بركة خان» وجيشه. وجرت مناوشات عديدة ومطاردات بين الجيشين التتريين ببلاد التتر، وفي ختام تلك المناوشات والمصادمات التي دارت بنواحي صحراء «قرة قورم» الواقعة شرقيّ البحر الأسود، احتدمت الحرب بين الجانبين التتريين، اللذين كانا سابقًا جانبًا واحدًا، متحدًا ضد العالم أجمع. وعندما اصطدم الجيشان انهزم جيش «هولاكو» أمام جيش «بركة خان» الذي كان آنذاك قد أعلن إسلامه، وسلَّم قيادة جيشه لابن أخيه «نوغاي» الذي كان قد أعلن إسلامه هو الآخر. سبحان الله. وفور انهزام «هولاكو» أطلق «بركة خان» عفوًا عامًّا لمن حاربوه فانهزموا، وخيَّرهم بين الانضمام إليه أو اللجوء إلى حليفه وصهره «بيبرس» سلطان مصر والشام. وكانت هزيمة «هولاكو» هذه، في مطلع العام الحادي والستين بعد السبعمائة، بعد عامين ونيِّفٍ من موقعة عين جالوت. وبعد عامين ونيِّفٍ على هزيمته، مات «هولاكو» ببلاده

الأولى، وله من العمر ثمانٍ وأربعون سنة. مات قبل أن تبلغ سنوات حياته الخمسين، وبعد أن أرعب العالم وأمات في حروبه المتتالية قرابة ألفَي ألف إنسان، وربما أكثر من ذلك.

وكان «بيبرس» وقتذاك يجلس على عرش مصر، سلطانًا، منذ سنة ونصف. وبينه وبين «بركة خان» مراسلات وتجارات وتحالفات، ما لبثت أن صارت صلة مصاهرة. إذ تزوج بيبرس ابنة بركة خان، وأنجب منها ولدًا أسماه على اسم جده «السعيد بركة خان» ومع جريان أنهار المودة بينهما، استجاب بيبرس لدعوة بركة خان باستيعاب عسكر التتر، الذين كانوا مع المهزوم «هولاكو» وصاروا بالعراق والشام، حائرين، فاستقدمهم بيبرس إلى القاهرة وأسكنهم بأرض اللوق، وخلع عليهم وأسند إليهم الوظائف.

* * *

الأحوالُ تتحوَّلُ.. لم تدم الأعوام العصيبة طويلًا بعد سلطنة «بيبرس»، وصدق مجددًا مطلع قصيدة ابن النحوي: اشتدي أزمة تنفرجي، قد آذن ليلُك بالبَلَج. فقد أعقب انتزاع «بيبرس» للحكم شدائدُ وأزماتٌ كثيرة، بسبب المنازعات العسكرية بين جماعات المماليك، والهجمات اليائسة من فلول جيش «هولاكو»، والكساد الكبير بسبب الحروب. وأدى ذلك كله، إلى صعوبة العيش في مصر والشام. فلما اشتدت الأزمات وطال

ليلها، انفرجت وأطل ضوء النهار وانتظمت بعد حين أحوالُ البلاد والعباد.

وفي زمن العتمة جعلت عزائي محصورًا بين القلم والأوراق، ومداواة الناس، فاستغنيتُ بالعلم عن العالم الذي انتابه الجنون واجتاحه الصراع على الرياسة. وفي ذاك الزمان تيقنتُ من صدق قول الأولياء: آخر شهوة تخرج من قلب الإنسان، هي حبُّ الرياسة.. فمن أكرمه ربه، وحرّره بالحكمة من الرغبة في التسلُّط على غيره، صار فاضلًا وكاملًا. فكان الفضل والكمال، هما مطلبي الذي استوحيتُ منه العنوانين اللذين أسميتُ بهما قصتي الرمزية «فاضل بن ناطق» أو «الرسالة الكاملية» وهي كما أسلفت، ردٌّ على رأي الشيخ الرئيس «ابن سينا» في قصته الرمزية «حي بن يقظان» وقد كتبتُ قصتي الرمزية هذه في حدود سنة سبعين وستمائة، أيام كانت الأمورُ قد استقرت في القاهرة وفي عموم مصر، ونواحي الشام.

انشغل «بيبرس» خلال سنوات حكمه الأولى بتثبيت دعائمه، وسلك في سبيل ذلك كل السُّبل. فرفع عن فقراء الناس ما رسمه سابقوه من المكوس والضرائب الباهظة، وألزم نفسه وغيره من الأمراء والأثرياء بإطعام المُعدمين، وسداد نفقات إعاشتهم. وصادر أموال الأغنياء للإنفاق على الفقراء، واعتنى بمدِّ وتعمير الطرق، وأكثر من بناء المدارس والمساجد. كما قمع الثورات التي اندلعت ضده من فلول الأيوبيين، وتصدّى للمكائد التي حيكت للإضرار

به، والمؤامرات التي سعى مدبّروها للنيل منه. فنال هو منهم، وسلب ما كانوا يملكونه. وهكذا انشغل بما هو فيه، مثلما انشغلتُ بما أنا فيه، فلم يجمعنا إلا لقاءٌ وحيدٌ جرى في صيف العام الثاني والستين بعد الستمائة، وكان عمري آنذاك في حدود الخمس والخمسين سنة.

يومها، ساعة الضحى، جاء بيبرس إلى بوابة داري الأمامية متخفيًا بملابس التجار، ومن خلفه عددٌ قليل من حُرّاسه يلبسون أردية العوام. فقد ظلَّ يحب هذا التخفي حتى وهو السلطان، وصار معروفًا عنه أنه كثيرًا ما يفاجئ الجميع بوجوده بينهم في كل حين، حربًا كان أم سلامًا، وهو يرتدي ما يموّه به. دقّ الحراسُ بابي ومندهشًا خرجتُ إليه من الدار، وبعد تبادل التحيّات المعتادة، قلت له همسًا ونحن متقاربين: ظننتُ يا سلطان أنك نسيتني. فقال: أنت لا تُنسى يا حكيم، تعال معي إلى القلعة وسوف نتحدث هناك.

سلكنا الطرق المطروقة متجاورين، على ظهر البغلتين، وخلفنا بخطواتٍ قليلة الحراسُ، فرادى. لم يفطن له معظم الذين عبرنا بهم في طريقنا، فكانوا يلقون عليَّ التحية الحارة كالمعتاد، ويغفلون عن السلطان الذي كان يبتسم لذلك خفيةً. والذين عرفوه من الأكابر الذين مررنا بهم، غضُّوا النظر عنا وتواروا عنه، لعلمهم بقسوته على مَنْ يكشف تنكُّره واستتاره.. قبل لقائنا هذا بشهور، اشتهر بين الناس أن «بيبرس» أراد أن يذهب إلى مكة حاجًّا، وهو متخفٍّ،

ولما بلغه أن أحد أعوانه باح لبعض أصحابه، بأنه يتمنى أن يصحب السلطان في سفره إلى الحج. نقم عليه بيبرس، وأمر بقطع لسان الرجل عقوبةً له على إفشاء السر، ومع ذلك ذهب لأداء الفريضة متخفيًا، فلم يُعلن عن نفسه إلا بعد وصوله، عندما قام بتوزيع عطاياه على فقراء الحجاز، وعلى المساكين الساكنين بمكة والمدينة المنورة.

عندما وصلنا قلعة الجبل، دخل بي بيبرس إلى قاعةٍ سلطانيةٍ مزدانة بالزخارف الدنيوية الزاهية، الزائلة، وجلسنا في زاويةٍ وثيرة الفرش. همس لي «بيبرس» قبل أن يدخل علينا صاحبه القديم «قلاوون» بأنه يريدني في أمر مهم. هو أن أقيم معه في القلعة، لأكون طبيبه الخاص والمشرف على الجاشنكير، كما أتولَّى عند الحاجة علاجه والعناية بصحة أولاده وزوجاته وحريم قصره. كان وقتذاك متزوجًا من أربع نساء، منهن ابنة «قلاوون» الذي جعله بيبرس أَتَابكًا، أي قائدًا للجيوش، وابنة «بركة خان» الذي جعله بيبرس صديقًا له وحليفًا قويًّا، خصوصًا بعدما أسلم الملكُ التتريُّ وحسُن إسلامُه. وكان لديه عدد كبيرٌ من الجواري والإماء والمحظيات، مع أنه لا يميل إلى صحبة النساء ولا صبر له عليهن، أو احتمال لطول العشرة معهن والمسايرة لأمورهن.

لم يقطع «بيبرس» كلامه معي عندما دخل علينا «قلاوون» وسلَّم وجلس، وختم ما سبق من كلامه لي بأنه يثقُ فيَّ. نظر إليه «قلاوون» لحظتها مستغربًا. ثم أخذ

«بيبرس» الحديث إلى وجهة أخرى، فجأة، قائلًا لي إنه عاهد نفسه على قطع شأفة الفرنج من الشام ومحو كل ممالكهم من هناك، لأن حال المسلمين لن يستقيم مع بقاء هذه الممالك.. ثم عاد إلى حديثه الأول، وقال لي ملاطفًا وهو شبه مبتسم: سأكون في غاية الانشغال خلال الفترة المقبلة، ولذلك أريدك بصحبتي في الحلِّ والترحال، في القصر وميدان القتال.

تذكرت لحظتها ما أوصاني به أستاذي الفاضل «عمران الإسرائيلي» في غور الشام قبل ثلاثين سنة، وأطرقتُ لحظةً متفكرًا ثم هممتُ بالكلام، فما كدتُ أقول: ولكن يا سلطان.. حتى قطع «قلاوون» حديثي قائلًا لي برفق، وبلهجة تخلو من اللكنة والعُجمة التي سمعتها منه قبل سنوات: مهلًا يا حكيم، ولا تقطع برأي قبل أن تجرِّب صحبة السلطان الظاهر، لمدة شهر أو نحو ذلك، ثم احسمْ أمرك.

ـ هذا كلامٌ معقول، ومقبول.

* * *

لم أستطع البقاء شهرًا في صحبة «بيبرس» مع أنه كان كريمًا معي ويعاملني بمودةٍ وتقدير، لكن معيشة القصور وصُحبة الملوك لم تكن مناسبة لي. في يومي الأول بالقصر، أخبروني في الصباح الباكر بأنني سأكون بصحبة السلطان في رحلته للصيد. ما شأني أنا بصيد الغزلان الآمنة في

الصحراء، وما الذي عليَّ من صخب تلك الطبول وسُخف هؤلاء الأمراء بملابسهم الموشاة، وأسلحتهم اللامعة، وعيونهم المليئة بالتوجُّس. كنتُ أريد استكمال شرحي لكتاب حنين بن إسحاق «المسائل في طب العين» وليس قنص حيوان البر بقسوةٍ لا مبرِّر لها إلا الزهو.

ضاع مني في رحلة الصيد هذه يومان، وبعدهما عدنا إلى القصر فكان يتوجب عليَّ النظر في مناسبة أنواع الأطعمة التي سوف يتناولها السلطان ونساؤه وعياله، والنظر في فائدتها لأبدانهم. ثم جسّ نبضهم جميعًا وفحص القارورة، أي النظر في أبوالهم. ومعالجة مَنْ يتوعَّك منهم أو يشكو أيَّ عَرَض لأي مرض، مهما كان هينًا، وهذا يخالف منهاجي في تدبير الأبدان، كما أنه يبدِّد أوقاتي.

في اليوم الرابع ذهبت مع «بيبرس» إلى دار العدل القريبة من قصره بالقلعة، حيث يقوم بالنظر في المظالم الكبرى، والحكم فيها بعد مشورة القضاة. فضاع عليَّ النهار بطوله بلا فائدة، وأثار امتعاضي الاطلاعُ على عورات المتخاصمين، ورداءة أخلاق الناس عند احتدام الخصام، فتكدَّر ذهني بهذه المنغِّصات وغاب عن عقلي صفاؤه.. وفي اليوم الخامس جالستُ «بيبرس» ساعاتٍ طوالًا، من أوان العصر إلى ما بعد ميقات العشاء بساعتين أو أكثر. كان يقابل الأمراء ورجال القصر في حضوري، ويتحدث أمامي بلا تحفُّظ مع جميع الداخلين عليه، ويسبُّهم أحيانًا. وبعد ذهابهم يسألني المشورة فيما سمعته، ويستطلع رأيي

فيمن رأيتهم. لم أكن أدلي إليه بأيِّ رأي، فهم أناس لا أعرفهم، ومن أخطر الأمور الإدلاء بالرأي فيمن لا نعرفهم جيدًا. كان كلما سألني عن شخصٍ منهم عقب ذهابه، قائلًا لي: كيف تراه يا حكيم؟ أقول العبارة ذاتها، دون زيادة أو نقصان: أراه مرعوبًا منك.. فيبتسم «بيبرس» أو يضحك.

يومها، بعد أدائنا صلاة العشاء، هدأت من حولنا الأجواء. وسنحت لي الفرصة للاستفهام منه عن سرِّ حرصه طيلةَ اليوم، على بقائي معه لتعريفي المقربين من رجاله، وإطلاعي على مجريات الأمور في القصر والقلعة وعموم البلاد. أجابني «بيبرس» بأنه لا يفعل ذلك عادةً، لكنه أراد أن يُعلمني بمقدار ثقته الكبيرة فيَّ. وكان سيكمل كلامه، لولا دخول واحد من حُرَّاسه المقربين وهمسه إليه وهو مطأطئ الرأس، قائلًا: وصل يا مولاي السلطان.. قال «بيبرس» له: أدخله. وقال لي، ما انقبض له قلبي: الآن سوف ترى أخطر شخص في البلاد.. قلتُ له:

- من بعدك يا سلطان، لا أظن أن هناك مَنْ هو أهمّ وأخطر، من رفيق عمرك الأتابك قلاوون. أم تراك تقصد ولدك، الأمير «السعيد بركة خان» حفظه الله؟

- لا يا حكيم، هؤلاء مشهورون ومعروفون، والخطيرُ دومًا خفيٌّ ومستور.

- فهمت، هو إذن متولي العسس والشرطة، الأمير سُنقر

القصير.

- لا، هذا رئيسهم المعروف. ويعلوه رئيسٌ، لا أحد غيري يعرف بوجوده، ها هو.

دخل علينا الرجلُ الغريبُ يلفُّ كتفيه بعباءة قديمة سوداء، ويحيط رأسه بقلنسوة تستر أعلى وجهه. الرجل أميلُ للقِصَر والنحول، وليس فيه ما يلفتُ إليه النظر. جلس على الأرض أمام قدمَي بيبرس، وأخرج من مخلاته الصغيرة أوراقًا مكتوبة بحروفٍ مقطعة، وفقًا للطريقة المسماة «المعمَّى» وهي طريقة كتابةٍ مرموزةٍ غير معروفة عند معظم الناس، ولا يستطيع قراءة المكتوب بها إلا أفرادٌ قليلون. أمسك الرجل الورقة بكلتا يديه وهو مطرق، وأخذ يقرأ منها للسلطان بصوت خفيض دون أن يزيح عن رأسه القلنسوة الساترة، أو ينظر نحوي. قال بسرعة و«بيبرس» يستمع إليه باهتمامٍ: الأتابك مقيمٌ على العهد. والكَرَكيُّ الذي كان يراسل هولاكو، يدبر مؤامرة جديدة. والأمير «كولي» يهمل مهامه، ويُمعن في المجون بقصره كل ليلة. والأسعار في الأسواق ثابتة والغلاء غير متوقع. وعسكر الإسكندرية يتذمرون لتأخر رواتبهم. والحرافيش في حاجة لمزيد من الإعانة.. قاطعه بيبرس بسؤاله عن المستترين من الحرافيش، فأجابه الرجل بأنهم هادئون ولا يُخشى منهم خطر، وليس بينهم اتصال. وثلاثة منهم نزحوا للإسكندرية للسُّكنى هناك، بعيدًا عن الأنظار.

- هل ذهبوا معًا؟

ـ لا يا مولاي، وهم لا يعرفون بعضهم البعض. والشابُّ المستتر بوكالة «فلتة الوراق» تحت اسم «سفير» سوف يتزوج بابنة «فلتة».

ـ عجيبٌ أمر هذا الشاب الأحمق، يستتر خلف اسم يلفت الأنظار. وعجيب أمر صاحب الوكالة، لماذا يزوّج ابنته، من شخصٍ يستتر ويخفي أصوله؟

ـ هو لا يعرف أنه يتخفّى، والشاب نفسه لا يعرف أصول أسرته يا مولاي.

ـ وهل تعرف أنت؟

ـ نعم يا مولاي، هو ابنٌ وحيد لواحدٍ من فرسان «ثعلب» وأبناء عمومته، ولم ينشأ مع أبيه الذي شارك بشجاعة في القتال ضد الفرنج. وقد اعتزل بعد ذلك الثورة، ولم يشارك فيها. ومع ذلك ذهب مع المرحوم «ثعلب» لمقابلة المرحوم «أيبك» فهلك مع الذين هلكوا.

ـ وما أحوال ابن بنت الأعزّ؟

ـ مضطربةٌ يا مولاي. وكذلك أحوال المحتسب بناحية البهنسا، ونائب غزة، والشكايات تكثر ضدهم. وضد قاضي الشافعية بدمنهور، والناس هناك يقولون إنه يرتشي.

ـ وهل يرتشي؟

ـ لا يا مولاي، لكنه يميل مع هواه ولا يعدل في أحكامه.

شردتُ بخواطري بعيدًا عما يتحدثان فيه، فلا ناقة لي ولا جمل في هذا التجسُّس على الناس، وأخذت أتأمل في تباعد الدلالة بين كلمتَي الجسِّ والتجسُّس، مع أنهما من جذرٍ واحد.. ثم استفقت مما يدور برأسي، عندما قام الرجل الغامض وترك مجلسنا، فاستكمل بيبرس كلامه الذي انقطع، بقوله إنه أعرب لي عن ثقته وعرفني بالمجريات، لأنه يريدني أن أكون «أستادار» قصره، أي مشرفًا عليه في غيابه. لأنه حسبما أكَّد لي، لن يستأمن على عياله وأحواله إلا مع حكيم زاهد، ولن يجد من هو أفضل مني لذلك.

ابتسمتُ في وجهه، وقلتُ ملاطفًا: كنتَ تدعوني دومًا «الحكيم» والآن تُضيف الزاهد. فضحك وهو يقول: أنت زاهدٌ فعلًا في المال والمناصب وصحبة الكبراء، بل وفي النساء، فأنت لا تتسرَّى وليس في دارك زوجة ولا جارية.

ـ وكيف عرفت بذلك يا سلطان؟.. نعم، فهمتُ. إنهم العسس والبصَّاصون، الذين لا يعرف بهم العسس والبصَّاصون.

ـ مثلك يا حكيم، لا يُحوج للتجسُّس عليه، لحياتك وكل أمورك واضحة وضوح النهار. المهم، ما قولك فيما ذكرته لك؟

ـ هذا شرف عظيم. لكن الله أقام العباد فيما أراد، وقد

أقامني فيما أنا فيه من معالجة الناس وتدريس الطب، وتصنيف الكتب لنفع الذين يأتون من بعدنا.

- حسنًا يا حكيم، لن أثقل عليك. لكنني قبل ذهابي بالجيش إلى الشام، سأوقِّع مرسومًا سوف يسعدك، ولن تجد لنفسك فكاكًا منه.

عدتُ إلى داري، في اليوم التالي صباحًا، وبعد العصر جاءني كاتبٌ من ديوان الإنشاء، وأعطاني صورة من المرسوم السلطاني الموقع من «الملك الظاهر ركن الدين بيبرس» فيه بعد الديباجة المعتادة، إعلانٌ بتوليتي رئاسة أطباء مصر والشام، وقيامي بمهام الإشراف على البيمارستانات ودُور العلاج، وتخصيص جامكية ديوانية لي قدرها خمسمائة دينار كل شهر.. وهذا المال كثيرٌ، ويزيد جدًّا عما أريد، وما كنتُ أتوقع.

* * *

بعد انقضاء الأعوام العجاف المريعة، التي امتدت بنا عشر سنوات حتى دخل علينا العام الستون بعد الستمائة، ووقعت خلالها من الفظائع ما يصعب حصره. هدأت أحوال مصر ثم الشام والحجاز، مع أعمال «بيبرس» التي توالت وتتابعت، إعمارًا وشقًّا للطرق وتحصينًا للثغور ورفقًا بالرعية، خصوصًا الفقراء منهم. كما برَّ «بيبرس» بما وعد به من تطهير ساحل الشام من ممالك الفرنج، فجاهد مجتهدًا عدة أعوامٍ حتى أزال معظمها، ثم استكمل «قلاوون» من بعده تلك المهمة. واليوم، لم يبق اليوم من تلك الممالك، إلا مملكة «عكا» وهي محصورة ومحاصرة، وأعتقد أنها سوف تسقط خلال الأشهر القادمة، فيختفي تمامًا من بلاد الإسلام، الغزاة الذين رفعوا شعار الصليب وتوسَّلوا به لبسط سلطانهم وسَلْب الناس الآمنين، وارتكاب المخازي التي لا يقبل بها المسيح ولا يرضى عنها أيُّ نبيٍّ، ولا يفعلها إلا جهول غبيّ.

لم ألتق بالسلطان الظاهر «بيبرس» رحمه الله، بعد ذاك الأسبوع الذي أمضيته معه في القصر والقلعة ورحلة الصيد، إلا مرةً واحدةً كانت يوم الثامن عشر من ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة، وكان عمري وقتذاك قد اقترب من الستين. في ذاك اليوم تحقّق مراد «بيبرس» في فتح الجامع الأزهر، بعد مائة عام من إغلاقه، بعدما رمَّمه وجدَّد جدرانه ومدخله. وأنفق على تمنيقه المال الكثير، وجعله منبرًا للدعوة لمذهب السُّنة، بعدما كان قاعدة

للدعوة إلى التشيع. ودعاني مع بقية رجال الدولة لصلاة الجمعة فيه، فكان يومًا مشهودًا انشرحت فيه قلوب الناس، وأُجزلت العطايا للجميع احتفاءً بالجامع العريق الذي أعيد إليه رونقه، وبقي الجامع العتيق بالفسطاط معمورًا. ويوم الاحتفال بافتتاح الجامع الأزهر، هنَّأتُ السلطان بعبارةٍ موجزة فابتسم في وجهي وقال لي، والذين حوله يسمعون: هذه بركاتك يا حكيم.. فظنَّ بعضهم أنني اقترحتُ عليه إعادة إعمار الجامع الأزهر، والحق ليس كذلك. والأرجح أنه قال ذلك لأن الفكرة واتته قديمًا، ليلة لقائنا بالزاوية التي كانت خلف الجامع، أيام كان مهجورًا.

* * *

ويوم الخميس السابع والعشرين من شهر المحرم سنة ست وسبعين وستمائة، مات بيبرس بدمشق عقب انتصاره على جماعة من فلول التتر المتمردين الذين أرادوا العبث بالشام.. قيل إنه توفي في ذاك اليوم مسمومًا، لأنه دعا آخر ملوك الأيوبيين إلى احتفال بالنصر، ودسَّ له بيبرس السُّمَّ في كأس خمرٍ فقتله، لتخلو له الساحة بعد مقتله، ويكون الحكم الأوحد من بعد بيبرس لولده «السعيد بركة خان». ولم يكن خادم «بيبرس» يعلم بأمر دسِّ السُّمِّ، فصبَّ الخمر في الكأس الذي فيه بقية من الخمر المسمَّم، دون أن يغسله، وناوله لبيبرس بعد عودته إلى المجلس، فشرب منه رشفات كانت كافية لمصرعه.

وتولى من بعد بيبرس ابنه «الملك السعيد، بركة خان»

لكنه لم يكن ملكًا ولا سعيدًا. فقد عزله الأتابك «قلاوون» ونفاه إلى قلعة الكرك، وأقام بمكانه أخاه الأصغر «سلامش» ثم عزله هو الآخر، وأرسله إلى المنفى مع أخيه. وبعد فترة وجيزة، مات الملك المخلوع «بركة خان» وقيل إن قلاوون قتله، وقيل بل مات بالحمى بعد سقوطه من فوق فرس. والله أعلم بالحقيقة.

وعندما تولى «قلاوون» حكم مصر والشام وتلقَّب بالملك المنصور، سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة، بعد وفاة بيبرس بعامٍ واحد وبضعة شهور، كان عمري قد تجاوز السبعين سنة. وقد سار «قلاوون» مع الرعية سيرةً حسنة، وحكَم البلاد بحكمة، فاستقرت في زمنه الأحوال.. وقد التقيتُ به مرةً واحدةً، بعد تولّيه الحكم بأسابيع قليلة، إذ استدعاني إليه فوجدت عنده الأمير «حسام الدين طرنطاي» وهو رجلٌ فاضل، كان ولا يزال أخًا وصديقًا لي. وكان معهما الأمير «علم الدين سنجر الشجاعي» وهو رجلٌ شريرٌ لا يحبه أحد، وليس له صديق. سألني قلاوون بوجهٍ غير متجهِّم، وغير بشوش: علمتُ أنك تعلَّمت الطب في البيمارستان النوري بدمشق، فهل هذا صحيح؟.. قلتُ: نعم يا سلطان، وكان ذلك منذ قرابة خمسين سنة.

مسح قلاوون على لحيته راضيًا، ثم حكى أنه كان يجاهد الفرنج في الشام فمرض، وظن أنه الختام، لكن أطباء البيمارستان النوري عالجوه بأفضل تدابير المداواة، حتى برأ من تلك المرضة. وبعد شفائه زار البيمارستان وتفقّد

جنباته وردهاته، فأعجب به، ونَذَرَ أن يبني بالقاهرة مثله إن صار الحُكم يومًا بيده. وقد صار. وللوفاء بنذره، اشترى «الدار القطبية» وهي القصر المنيف الذي بناه الخليفة «العزيز بالله الفاطمي» قبل زمنٍ طويل، وقدَّمه هديةً لابنته الأثيرة عنده «ست الملك».

وقد عهد السلطان قلاوون للأمير «سنقر الشجاعي» بالإشراف على ترميم المكان، وإدخال التعديل اللازم عليه، ليكون بيمارستانًا كبيرًا، سوف يسمى: المنصوري. وكان يوم لقائنا هذا، يريد مني أن أشير على الأمير «سنقر» من خبرتي بالعمل في المشافي والبيمارستانات، بما يضمن أن يتم البناء على أفضل ما يمكن، ليكون «البيمارستان المنصوري» هو أفضل دار شفاءٍ في الدنيا. هكذا قال «قلاوون» ثم أضاف أنه أوقف عليه من الفنادق والحمامات ومصادر الدخل، ما يكفي لنفقاته. فوافقت من فوري على طلبه.

في طريق عودتي من القلعة إلى داري، يومها، استحضرتُ في نفسي ما فعله الفاضل «رضيُّ الدين الرحبي» لتوسعة البيمارستان النوري بدمشق، وغمرتني أمنيتي القديمة في أن أحذو خطاه. ورأيت أن ما معي من المال المدَّخر وفير، ولا وريث لي يحتاج منه شيئًا. فأنفقت جُلَّ ما أملكه من المال، لشراء الدور والبيوت المجاورة للبيمارستان المزمع إنشاؤه، من قبل أن يفتح أبوابه لاستقبال المرضى. وقمتُ بنفسي بالإشراف على بناء هذه

الدار، لأجعلها مناسبةً للضمّ إلى البيمارستان. فتمَّ لي ذلك بحمد الله وتوفيقه.. الله.. يكفي هذا يا سفير، فما عدتُ قادرًا على حكاية المزيد، وهذا كافٍ لما أردتُ من إملاء لمحاتٍ من سيرتي.. نعم.. فيما سبق كفاية، ولله الحمد.

# يومُ الختام

.. الآن، وقد مَرَّ على وفاة العلامة «العلاء» أربعون عامًا، أشعر بقوةٍ ويقين أن اليوم الأخير من حياتي، التي لا معنى لها، يدنو مني ويقترب حتى يكاد يمسّني، فأستريح بعد أن وَهَنَ العظمُ مني. وصرت مثلما كان «العلاء» وهو في الثمانين من عمره، مرتعش الأنامل، عليلًا، غير قادر على القراءة بعيني الكليلة. وبالكاد أخطّ الكلمات على هذه الورقة، بشكل رديء.

كلانا عاش ثمانين عامًا، ولكن شتان ما بين الحياتين. وكلانا تعذَّب في حياته المريرة، وكان الحلو فيها شبيهًا بحلاوة قرون «الخرنوب» التي توصف بأنها: درهم سُكر في قنطار خشب..

أنا منذ شهور، حبيسٌ في سريري، ولا أستطيع النعاس عليه إلا جالسًا، لضيق أنفاسي إذا استلقيت. الأطباءُ الذين يحبونني يتردَّدون عليَّ ويجسُّون نبضي، ثم يقولون بعد تردُّدٍ إنه ضعيفٌ، وما عادت تُجدي معي الأدوية القلبية. فأقول لهم: هذا إنذارٌ وإشعارٌ بقرب توقف القلب. فيدعون لي ويا للعجب، بطول العمر.

ما جدوى العمر، وما معناه، مع انعدام القدرة وافتقاد الشغف وغياب الابتهاج. مجيءُ الموت أرحمُ من انتظاره، ومن الحياة على حافة الهاوية مع ترقُّب القاضية.. لم أجد جديدًا خلال الأربعين عامًا التي تلت وفاة «العلاء»

ولم أستطع القيام بما نصحني به، أعني البحث عن معنى لوجودي. ليس للوجود معنى في ذاته، بعيدًا عما يرسمه كل إنسانٍ لنفسه. وقد كان «العلاء» بليغًا حين قال لي: اجعل لوجودك معنى.

هل كان مدركًا أن الكون خالٍ من المعنى، لكننا نُضفي عليه المعاني من أوهامنا، لتكون حياتنا محتملة. لا، ليس كذلك. العلاء كان يؤمن بالغائية، لأنه كان إنسانًا فاضلًا، فجعل من نفع الناس بالمعالجات ومن التأليف في الطب ومن الاستغناء بالعلم عن العالم، معنى لوجوده. تلك غايات ومعانٍ نبيلة صنعها لنفسه، ليجعل حياته محتملة. أما أنا فلم أكن موفّقًا مثله وهانئًا، بمعنى توهّمته وجعلته لي غاية. عشتُ حتى عمر الأربعين مقتنعًا بأنني متخفٍّ ومستترٌ، ثم اكتشفتُ أنني كنت طيلة الوقت مكشوفًا، ومسكوتًا عني. عشتُ تائهًا، وحين تفكّرتُ في حياتي تُهت أكثر، فقد صحّ عندي بعد طول التفكير أن الوجود لا عقل له، وأن الزمان يعبر علينا بأقدام أعمى يسري في صحراء بلا نهاية، بلا هدى. وصحّ عندي أن الناس سواسيةٌ في التوهُّم، وهم دومًا تائهون، لا يعرفون ماذا يريدون. ومع ذلك يصخبون، وفي كل وادٍ يهيمون أو يهيّمون حينًا، ثم ينسون ما كانوا إليه يسعون، وفي الختام يخمدون ويستسلمون لمسيرتهم الذاهبة بهم إلى لحظة فنائهم.. فأين المعنى، إذا كان لا شيء بيدهم يدوم؟

لا شيء يدوم.

«العلاء» كان رجلًا معروفًا في حياته، وموقّرًا، وهو اليوم مشهور وكتبه تملأ أسواق الوراقين، وسوف تبقى لمئات السنين. فما الذي سيعود عليه من بقائها؟ هو أراد حُسن الخاتمة، وتمَّ له ما أراد، لكنها في نهاية الأمر خاتمة. وكل الخواتيم سواء، وكلها انتهاء، والنسيان سيلحق بالجميع في آخر المطاف. نعم، النسيان هو آخرة المطاف، والخلودُ وهمٌ جميل.

الخلود، وهمٌ.

* * *

بعد وفاة «العلاء» بعدة أيام أردتُ إبقاء ذكراه، فكتبت بخط الثُّلث الجليّ على حائط هذه الدار التي وهبها لي، قبالة الباب الداخل إلى الحجرتين الواسعتين، اللتين جعلت إحداهما لسُكناي والأخرى محلًّا لنسخ الكتب الطبية للطلاب، كلمات الشطرة الأخيرة من البيتين اللذين رثاه بهما «صفيُّ الدين النصراني» ونصُّها: أقصرْ، فمُذ مات العَلا مات العُلا.

كتبتُ ذلك أول مرةٍ، بعرض الجدار، بالحبر الأسود البرَّاق. ثم صرتُ كل عامٍ أعيدُ عليه بماء الذهب، ليستعيد مَشْقُ الخطِ رونقه. وكان بعضهم يمازحني بأن تلك الكتابة، لو رآها واحد من أمراء المماليك أو كبارهم لنقم عليَّ وعاقبني، لأنهم يظنون أن العُلا يقتصر عليهم. فكنت أقول: هؤلاء لا يأتون إلى هنا، وإنما يأتي فقط طلابُ الطب

أو الذين صاروا أطباء، وأولئك وهؤلاء يؤمنون بما هو مكتوب على الجدار، حتى لو أنكره المماليك أو استنكروه.

المماليك، بقوا بعد وفاة «العلاء» على ما كانوا عليه قبلها، وسوف يبقون في مقبل الأيام، على ما كانوا عليه بالأمس. يستأثرون بالحكم دولةً بينهم، ويتقافزون بالسيوف إلى السُّلطة، ويسفكون في سبيلها دماء بعضهم البعض، ودماء الأبرياء. ترتجُّ جوانب البلاد حيناً بسبب صراعهم، وتهدأ حين يستقر الأمر بيد واحدٍ منهم. وعلى هذه تجري الليالي في بلادنا، وتمرُّ الأيام.

العامان التاليان على رحيل «العلاء» مَرَّا على القاهرة هادئينِ، لأن الملك المنصور «قلاوون» بعدما استمال الناس إليه بحُسن السيرة وتخفيف الضرائب، شرع في حماية البلاد من الغزوات التترية. واستطاع أن يدحر بعساكره وعلماء الأمة المجاهدين، غزو مغول التتر، المسلمين. فانتصر عليهم نصرًا باهرًا في معركة «حمص» مما أجبر ملكهم «غازان» على التقهقر والفرار، ثم التفت قلاوون بجيش المماليك إلى بقية الممالك التي ترفع راية الصليب، فأسقطها واحدة بعد أخرى. فلم يبق منها عند وفاته غير مملكة «عكا» التي أسقطها بعد شهور، ابنه ووريثُ عرشه «الملك الأشرف خليل بن قلاوون» واحتفل المسلمون في سنة تسعين وستمائة، بخلوِّ بلاد الإسلام من الممالك غير المسلمة، وبعودة «القدس» من يد ملوك الصليب إلى يد المسلمين.

في تلك السنة ابتهجتُ مع الجميع واستبشرتُ بالآتي،

فعدَّلت موضع عملي وإقامتي، ببناء جدارٍ فيه بابٌ للحجرتين الواسعتين، فصار عندي دارٌ ودكانٌ ورواقٌ يقابلها. وغرست أشجارًا في الزقاق، بإزاء الحائط المفتوح عليه الحجرات الأربع، والرحبة التي فيها البوابة. أبهجني ذلك حينًا، لكن الزمان عاد للعبوس في وجهي، مع تقلُّب أحوال البلاد والعباد، بسبب التهالك على السلطة. فقد فتك الملكُ «الأشرف خليل» بالأمراء الكبار من مماليك أبيه وأصحابه، ومنهم طرنطاي وكتبغا، لأنه توجَّس منهما. ففتك به الأمير «بندار» وقتله شرَّ قتلةٍ في رحلة صيدٍ، وأراد أن يحكم بدلًا منه. فلما دخل القاهرة، فتك مماليك قلاوون بالأمير بندار، وقتلوه هو والذين كانوا معه. ووضعوا على العرش «محمد» الابن الأصغر للمنصور قلاوون، ولقَّبوه بالملك الناصر. ثم ثار ضده «سنقر الشجاعي» وطمع في الملك فهلك وفُتك به وساءت خاتمته، هو وكل الذين كانوا معه. وقد خُلع «الناصر محمد» مرة وخَلَع نفسه مرة، وعاد في الثالثة إلى الحكم فاستقر على الكرسي، وتحسَّنت الحال. ومن هنا تهكَّم العوام في كلامهم اليومي، بقولهم: التالتة تابتة.. يقصدون أن المرة الثالثة ثابتة، مثلما هو الحال في الطلاق الذي يكون نهائيًا وبائنًا مع الطلقة الثالثة.

وفي غمرة تلك الأحوال المملوكية المتشابكة المتهيِّجة، عاد الاضطرابُ وعربد في نواحي مصر والشام. لاسيما مع فساد الهواء واجتياح الوباء، بعد القحط الشديد الذي كان

سنة خمس وتسعين وستمائة، وأحوج الفقراءُ والمعدمون إلى أكل الجيف والميتة من الحيوان والإنسان، ليبقوا على قيد الحياة. وخلال تلك الجائحة، كان الموتى بسبب كثرتهم يُدفنون في حُفر بالجماعات، بلا تفرقة بين رجالٍ ونساء. وخلال اهتياج الوباء، وفي يومين متتاليين، ماتت مطلَّقتي «شهد» وأمها «وعد» فلم يشعر بموتهما أحدٌ، إلا بعدما فاحت الرائحة الشنعة من الدار التي بعطفة السبيل. عندما علمتُ بذلك اعتراني حالٌ غريب، أقعدني يومين في حجرتي هذه مذهولًا، وحين أفقتُ حاولت مرارًا أن أعمل بنصيحة «العلاء» وأتسامح، فلم أستطع. التسامح، والمحبة والإحسان، أفعال تحتاج قوةً ومقدرةً على نسيان الأذى. ولستُ قويًا ولا قادرًا على تجاوز ما جرى، ومقدار ألمي يفوق قدرتي على نسيانه.. وبعد معاناة مريعة، انتهيتُ مع نفسي إلى حسم الأمر على نحوٍ تلفيقي، خلاصته أنني لن أتسامح ولن أحقد، لن أحب ولن أكره، فلا شيء يستحق.

لا شيء يستحق.

وبعد انحسار تلك الجائحة واختفاء الوباء، عادت أحوال الحياة لسابق عهدها، وعاودني الشغفُ القديم بالنساء. لكنني كنتُ قد تعلمت من الدرس القاسي، فلم أستأمن امرأةً فأتزوجها وأضع ثقتي بين يديها. الزواج أمانة لا تفي بها غالبية النساء. كنتُ أيامها أتسكع في الأسواق وأتردَّد على القيساريات، فعرفتُ عددًا من النسوة. منهنَّ جارة لي، كانت تهيم بي كلما ذهب زوجها إلى تجارته بالشام،

ولا تصبر على غيابي عنها يومين، ثم تنساني تمامًا عندما يعود زوجها من سفره.. لن أفيض في الحكاية عن تلك الأمور وعن هاتيك النسوة اللواتي مسَستهنَّ، فهذا مما لا يصح.

وفي سنة سبعمائة للهجرة، التقيتُ بالأديب «فتح الدين أحمد بن البققي» وهو واحدٌ من أدباء الزمان. جاء لزيارتي ومعه مخلاة، وأخبرني بأن شمس الدين الكُتبي المشهور بلقب «الفاشوشة» وهو شيخ طاعن في السنّ قارب عمره المائة عام، وكان معروفًا بين الوراقين المصريين والشوام، قد توفي بدمشق.. قلت: الله يرحمه.. وانتظرتُ إفصاح «البققي» عن سبب زيارته لي على غير العادة، لكنه راح يحكي نوادر الرجل المتوفى، ويسهب في ذلك مثيرًا استغرابي. وبعد ذلك انتقل بكلامه إلى الأمور العمومية الجارية بالبلاد، مُضيفًا ما أعرفه من أن ملك التتر «غازان» وفد إلى الشام غازيًا، فحدثت فظائع هناك، لكنه انسحب بجيشه لأن الثلوج عاقته عن دخول دمشق.

ما شأني أنا الآن بغازان وجيشه، والثلوج. صبرتُ عليه ساعةً ثم أبديتُ الملل، فلما رأى ذلك مني أخبرني مترفقًا بسبب زيارته، فأدهشني.. فقد أخرج من مخلاته بكلتا يديه كتابًا مجلدًا، ومجموعة من الأوراق المفككة، وقال لي وهو يضع كل ذلك فوق الطاولة التي أمامنا: هذا المجلد فيه المصحف المصوَّب الذي كتبه صاحبك «يحيى بن خلف» رحمه الله، وقد عانيتُ حتى حصلت عليه، وتلك الأوراق

فيها كتابٌ ألَّفته، وجعلته بعنوان «كَرْمُ التعريشة في ذمِّ الحشيشة» جمعتُ فيه أشعاري في مَدْح الراح والقَدْح في الحشيش، ثم ألحقتُ بها قصائد الشعراء الذين ذمّوا شرب الحشيش وأكله، ومنهم الشاب الظريف «ابن العفيف التلمساني» وغيره، وأظنك سمعتَ ما نظمته في ذلك من أشعار مشهورة، مثل قولي:

مَحَا الله الحشيش وآكليها

فقد خبُثَتْ كما طاب السُّلاف

كاد «البققي» يكمل إلقاء قصيدته عليَّ، لولا أن استوقفته بأدبٍ سائلًا إياه عما يريده مني. فأجابني بأنه يريد نَسْخ الكتابين وعمل غلافٍ فاخرٍ لهما، وسيعطيني مقابل ذلك ثلاثين دينارًا. اعتذرت له من فوري عن كلا المطلبين، وعللتُ له ذلك بأنني وعدتُ العلامة «العلاء» قبل وفاته، بأن يكون عملي موقوفًا على كتب الطب، وعلى ما يحتاجه الطلاب ومكتبة البيمارستان، ولن أُخلف وعدي له نظير أيِّ مالٍ مهما بلغ مقداره.

ابتأس «البققي» وغادرني صامتًا والحزنُ بادٍ عليه، فلم أكترث يومها لابتئاسه وحزنه، لأنني لم أتوقَّع ما سوف يحدث. وربما لو علمت ما ستأتي به الأيامُ، لكنتُ قد وافقته وعملتُ له ما طلب، حتى من دون مقابل. ولكن لا أحد يعلم الغيب. مرت بعد ذلك عدة أسابيع، قليلة، وخلالها طلب «البققي» من وَرَّاق آخر اسمه «إسماعيل»

أن يعمل له الكّابين. وكان إسماعيل هذا رجلًا وضيعًا، فأظهر للبققي القبول وأخذ منه الكّابين، وبعدما افترقا كتب عريضةً ورفعها إلى القاضي «زين الدين المالكي» المعروف بتشدُّده، اشتكى فيها مما أُريد منه. فاستدعى القاضي المالكي الشهود والشرطة، وجلب «البققي» إلى المحاكمة بتهم انتقاص المصحف وازدراء الدين والاستهانة بالعقائد. فأبدى «فتح الله البققي» الندم وأعلن التوبة، وطلب من القاضي تعذيره والصفح عنه. لكن القاضي «زين الدين بن مخلوف المالكي» رفض ذلك، وحكم عليه بالإعدام علانية في ميدان عام.. كنتُ عائدًا إلى داري من موعدٍ عشقيّ فاشل مع امرأةٍ تسكن خارج السور، وأثناء عبوري بالميدان الفسيح المسمى «بين القصرين» رأيتُ حشدًا من البشر، وعندما اقتربتُ وجدتُ «البققي» في وسط الناس مقيدًا بالأغلال بالميدان.. وأمام الناظرين، وبعد نظرةٍ بيننا تحرق القلب، ضرب السيَّاف عنقه.

لماذا استدعى الآن هذه الواقعة المؤلمة؟.. لا أدري..

في السنة الثانية بعد السبعمائة، عاد الملك التتري «غازان» لغزو الشام ومصر، للمرة الثالثة، مع أنه صار مسلمًا. وكانت جحافله الجرارة هذه المرة، يصل عدد عساكرها إلى ثمانين ألفًا. يعني أربعة أضعاف عدد مغول التتر، الذين كانوا في موقعة «عين جالوت» بل أكثر من ذلك عددًا وعتادًا.. خرج إليه الملك «الناصر» محمد بن قلاوون، وآزره عسكرُ الشام وعددٌ من رجال الدين على رأسهم تقيُّ الدين «بن

تيمية» وتقيّ الدين «بن دقيق العيد» وجمٌّ غفير من رجال القبائل العربية بمصر. أقصد الذين يقال لهم العُربان. فاصطدم الجيشان في الشام، وجرت وقائع مريعة انتهت بانتصار المسلمين المصريين، على المسلمين التتر، وعاد للبلاد الهدوء بعدما قضى نحبه في تلك المعارك قرابة خمسين ألف شخص. ويقال بل قُتل فيها خلال المصادمات العسكرية التي استمرت ثلاث سنوات، أكثر من مائة ألف شخص. لا أحد يحصي العدد بدقة، ولا أحد يكترث بهؤلاء الذين قُتلوا سُدى إلا ذووهم الذين حُرموا منهم، ولا معنى لموتهم، ولا كان لحياتهم من قبل معنى.. لماذا أتذكر الآن ذلك، وأذكره هنا؟.. لا أدري..

يدى كلَّت، وأدركني الوهن. ما عدت قادرًا على استكمال الكتابة. وعلى كل حال، لم يعد عندي الكثير مما أريد تدوينه، فقد جرت الأمور في السنوات الماضية، على ما اعتاد عليه جريان الأمور. فالناس هم الناس. والناصر محمد بن قلاوون هو الحاكم الأوحد للبلاد منذ سنوات، وأظنه سيبقى لسنواتٍ تالية، فهو بعد صغير السن. ولولا البلايا التي تطرأ حينًا وتتوارى أحيانًا، لاستقامت الأحوال. ولا جديد. تأتي الأوبئة والجوائح فتطيح بالمنايا بخبط عشواء، ثم تذهب فيتكاثر الناس استعدادًا لحصادهم القادم. لا جديد، ولا معنى إلا ما نكسو به سبهللة وجودنا. حياتي مرت بسرعة. وليتها تنقضي عما قريب، فقد هَدَّني الهزالُ وقواي تضعف كل يومٍ عما كانت عليه

بأمسٍ. وليست الشيخوخةُ مرضًا، ليكون له دواء. صدق قولُ العلاء.

والآن.. لم يبق لي إلا السكون فوق سريري، والاستسلام التام، حتى يأتي الموتُ فيحرّرني من الانتظار الذي استطال، ويخلّصني مني.

# الورّاق

عاش علاء الدين «ابن النفيس» ثمانين عامًا، عاصر خلالها من أهوال الأحوال والأحداث الجسام، قدرًا هائلًا: الحروب الصليبية والحملة السابعة المريعة على دمياط وشمال مصر، غزو المغول وسقوط بغداد على يد هولاكو، صراعات السلطة بين الجيل الأخير من الأيوبيين والجيل الأول من الحكام المماليك، ثورة حصن الدين ثعلب، المصادمات الشديدة بين أقطاي وأيبك وقطز وبيبرس وقلاوون..

وكان «العلاء ابن النفيس» قريبًا من ذلك كله، فقد كان الطبيب الخاص للظاهر بيبرس، ورئيس أطباء مصر والشام.. ومع اضطراب أحوال زمانه، لم يتوقف يومًا عن التأليف في الطب والفكر وعلوم عصره، وترك لنا من بعده آلاف الصفحات.. فكيف عاش «ابن النفيس» وما الذي أملاه من وقائع حياته على «الورّاق» الذي يصغره بأربعين عامًا، وعاش أربعين عامًا بعده؟ هذا ما تحكيه هذه الرواية.

---

**يوسف زيدان:** مفكر وروائي مصري مرموق، حصل بعد الدكتوراه على درجة الأستاذية في الفلسفة وتاريخ العلوم. صدر له حتى الآن أكثر من سبعين كتابًا، تنوعت بين الإبداع الروائي والمجموعات القصصية والبحوث التاريخية والفلسفية. نالت أعماله جوائز دولية عديدة، منها: جائزة «عبد الحميد شومان» للعلماء العرب الشبان (الأردن)، جائزة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية (الكويت)، جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في مجال الفقه الطبي وأصول فن تحقيق المخطوطات.. ونالت روايته الأشهر «عزازيل» عدة جوائز عالمية: الجائزة العالمية للرواية العربية / البوكر (٢٠٠٩)، وجائزة أنوبي (٢٠١٢)، وجائزة بانيبال (٢٠١٣).

دار الشروق
www.shorouk.com

t.me/twinkling4